Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

893.7Aℓ2
P5

Dalil al-ṣawāb ila ṣadq al-kitāb

Rev. Archibald Alexander

دليل الصواب
الى صدق الكتاب

Alex° J. Cotheal

الفاتحة

الحمد لله رب العالمين الذي اوحى الى عبادهِ الصالحين
بنصوص كتابهِ المبين وجعلهُ عصمةً للمومنين وحجَّةً على
الكافرين . اما بعدُ فيقول العبد الفقير يوحنا ورتبات
انه لما كانت الديانة المسيحية عُرضةً لاوهام المُبطِلين الذين
يرمون بسهم الشكّ في كَبِد اليقين وكان الكتاب الذي وضعهُ
العلاَّمة اسكندر الاميركاني في هذا الشان كافلاً دفع هذه
الاوهام بصحة القياس والبرهان سألني بعض رسل الاميركانيين
المبشرين بالانجيل في الديار الشامية ان استخرج هذا الكتاب
من اللغة الانكليزية الى اللغة العربية . فاستخرت الله في استخراجهِ
بالتي هيَ احسن وتطبيقهِ على الاصل بقدر ما امكن وسمَّيتهُ
دليل الصواب الى صدق الكتاب . والله المسأُول
بكرمهِ وفضلهِ ان ينفع بهِ كما نفع باصلهِ .
والحمد لله اولاً
وآخرًا

فهرس

وجه

الفصل الاول . في استعمال العقل في الامور الدينية ١

الفصل الثاني . في ان نفي كل ديانةٍ من العالم غير ممكن ولو امكن لكان من اعظم المصايب للناس ١٢

الفصل الثالث . في انهُ لو رُفِضَت الديانة المسيحية لما وُجِدت ديانةٌ اخرى تقوم مقامها وتصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانةٍ . . . ٢١

الفصل الرابع . في لزوم الوحي لتعليمنا كيف نعبد الله عبادةً مقبولة وما هو العالَم الآتي وحقيقة وجودهِ وعلى الخصوص كيف السبيل لخلاص الخطاة ٣١

الفصل الخامس . في ان اعلان الوحي من الله ليس امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافق للعقل . ولذلك لا يكون ظهور فعلٍ الهي بالمعجزات لاثبات الوحي امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافقٍ للعقل ٦٣

الفصل السادس . في امكان اثبات وقوع المعجزات بواسطة الشهادة ٦٩

321759

وجه

الفصل السابع . في صدق المعجزات المذكورة في الانجيل ٨١

الفصل الثامن . في ان نجاح الانجيل واتساعهُ اولاً بوسايط قليلة وضعيفة برهانٌ على ان ذلك كان من العناية الالهية ١١٥

الفصل التاسع . في ما تمَّ من النبوات على شعب اليهود بنوعٍ عجيب ١٢١

الفصل العاشر . في نبواتٍ تتعلق بنينوى وبابل وصور وغيرها ١٤١

الفصل الحادي عشر . في النبوات عن المسيح ونبوات المسيح عن خراب اورشليم . . ١٦٦

الفصل الثاني عشر . في انه لا يوجد ديانة حاصلة على ما حصلت عليهِ الديانة المسيحية من بيّنات المعجزات ١٧٩

الفصل الثالث عشر . في ان الكتاب المقدس يتضمن بيناتٍ داخلية تدل على انهُ من الله . ١٨٩

الفصل الرابع عشر . في ان الكتب المقدسة وعلى الخصوص العهد العتيق قد كان للذين كتبوها الهامٌ من الله يصونهم من الغلط . ٢٢١

الفصل الخامس عشر . في الالهام بكتب العهد الجديد ٢٤٧

الفصل الاول

في استعمال العقل في الامور الدينية

ان لجميع الناس حقًّا في استعمال عقولهم في الامور الدينية ووجوب ذلك امرٌ ظاهرٌ لا يُرتاب فيهِ. فانهُ بدون استعمال العقل لا يمكن ان تقوم الديانة. لان ذلك ضروريٌّ في كل درجة من البحث في ادلَّة الوحي وتفسير معانيهِ وقبول تعاليمهِ. وذلك على انه متى تقدمت للناس دلايل الديانة المسيحية تُرفَع دعوى حقيقتها الى عقولهم. فتكون الدلايل والبراهين باطلة ان لم يُسمَح للعقل بالحكم على صحتها. ولا ريب ان هذه الموهبة الشريفة قد أُعطِيَت للانسان دليلاً في الدين كما هي دليلٌ لهُ في ساير الامور. اذ ليس لهُ واسطة اخرى يستطيع بها ان يحكم على قضيةٍ ما او يقبل حقيقةً من الحقايق. وكون النظر بلا اعينٍ ليس باقرب الى المحال من معرفة الحقايق بدون استعمال العقل. واذا كان ذلك كذلك فقد فسد زعم من يزعم ان الديانة ترفض استعمال العقل في حقايقها. بل هي بعكس ذلك تامر باستعمالهِ كالتزامٍ من اعظم الالتزامات الادبية

وتوجب اثماً على الذين لايحكمون لانفسهم بين الحق والباطل هذا وان بعض المومنين با لكتب الموحى بها وان سلموا بان للعقل حقاً في فحص ادلتها والحكم على معنى عباراتها قد انكروا حقهُ في القضاءِ على ذات تعاليمها . ولكننا لانظن هذا الرأي صحيحاً . لانهُ من الواضح اننا لانستطيع ان نتصور شيئاً من الحقايق بدون استعمال العقل . واذا قبلنا قضيةً ما بناءً على انها حقيقية فمهما كانت ادلة صحتها لابد ان نحسب قبولها موافقاً للعقل . ان بين الحق والعقل اتصالاً شديداً حتى لايمكن انفصالهما الا عنفاً . فالحق هو الموضوع والعقل هو القوة التي بها يُدرَك الموضوع كيفما كان نوعهُ او نوع الدليل الذي يقوم بهِ . والتعليم الذي لايكون قبولهُ اكثر موافقةً للعقل من رفضهِ لايمكن ان يكون موضوعاً جديراً بايماننا . فان ادُّعِي بان كتاباً قد أُوحِي بهِ ثم وُجِد فيهِ تعاليم لاتوافق العقل السليم بوجهٍ من الاوجه فذلك دليلٌ ثابتٌ على ان هذه الدعوى ليس لها ركنٌ وطيد ومن الواجب رفضها

ولكن اشتمال الوحي على تعاليم سرّية فايقة الادراك ومخالفة لكل تصوراتنا السابقة وبعيدة في ذاتها عن اوهامنا ليس بمضادٍّ للعقل . بل انما بعكس ذلك ان العقل السليم ينتظر وجود مثل هذه الاشياءِ في وحيٍ من الله . لان كل ما يتعلق بهذا الاله الغير المحدود لابد من كونهِ فايقاً ادراكنا على

نوعٍ ما وكل حقيقة مستحدثة لابد ان تكون مختلفة عما كان معروفًا من قبل . وجميع طرق الله واعمالهِ بعيدةٌ جدًّا ومرتفعة كثيرًا عن ادراك عقولنا . فاننا نرى في الديانة الطبيعية غوامض ليست اقلّ عظمةً من غوامض الوحي ولا يوجد بين حقايق الوحي والعقل الانساني مخالفة اعظم مما نرى بين حالة الكون الحاضرة وما كان يخترعهُ الانسان لهُ . فكما ان تصديق حواسنا مطابق للعقل كذلك يطابق العقل ايضًا ان نومن بما اعلن الله حقيقتهُ لنا

فاذن في قبول اعظم غوامض الوحي تنتهي الدعوى الى حكم العقل . لالاجل الحكم على امكان كشفهِ تلك الحقايق بذاتهِ ولا على كونها قريبة او بعيدة باعتبارها في نفسها . بل لاجل الحكم على ايّ الامرين هو اكثر مطابقةً للعقل أهو تصديق قولهِ تعالى ام الاعتماد على ادراكنا القاصر . ومَثَل ذلك مَثَل رجلٍ غبيٍّ اذا سمع رجلاً عالمًا يقول ان دوران الشمس اليومي انما هو بحسب الظاهر فقط لا في الحقيقة او ان الشمس في الشتاء تكون اقرب الى الارض مما تكون في الصيف . فانهُ ولو لاح لهُ ان ذلك مضادٌّ للحواس لكنهُ يوافق العقل ان يسلّم لمن لهُ معرفةٌ بهذا الموضوع ومن يمكن الاعتماد على صدقهِ . واذا قبلنا شهادة البشر في الامور التي تفوق اطوار عقولنا فبالاحرى ان نقبل شهادة الله العليم بكل شي الذي لا يمكن ان يغشّ خليقتهُ

باقوالٍ كاذبة

انهُ لا يوجد سببٌ كافٍ للخوف من الضلال في استقامة استعمال العقل في اي موضوعٍ يعرض علينا . بل الخطر الذي علينا انما هو من جرَى استعمال العقل على غير الاستقامة . وما اشدَّ ميل طبيعتنا الى السقوط في هذا الخطر . فاننا نرى اكثر الناس يدَّعون بان العقل هو دليلهم في عقد آرآيهم ولكن هذا الدليل عندهم اعمى منحرف . لانهُ لو كان صحيحًا مستقيمًا لما امتلأَ العالم ضلالةً ولا اشتهرت كثرة الآرآء الكاذبة المخطرة ولا حُومِي عنها بكل عنادٍ كما هو الواقع

ان بعض الناس من نظرٍ قليل الى امور الديانة من ظاهرها يبادرون الى نتيجةٍ لا بد ان تضرهم ضررًا بليغًا . وذلك انهم يرون في الاعصر القديمة والحديثة كثيرًا من الخرافات والغشوش واختلاف الآرآء وتنوُّع المذاهب والدعاوي الباطلة بالوحي من الله والاخبار عن عجايب كاذبة واقوال نبوية لا صحة لها . ثم بدون ان يفحصوا عن الحق باجتهادٍ بين مخاصمات هذه الدعاوي المختلفة يستنتجون نتيجةً عامة ان جميع الاديان هي على حدٍّ سوى وان الامر باجمعهِ زورٌ قد اخترعهُ اناس خُبثاء وغرَّوا بهِ الجمهور العديم التامُّل وان الدعوى بالوحي الالهي باطلةٌ على الاطلاق لا تستحق البحث عنها . فهل يهدينا العقل السليم الى نتيجةٍ مثل هذه . انهُ لو سلكنا هذا الطريق في بقية

الامور لانقلبت امور العالم باسره في حالةٍ يُرثَى لها . وعلى هذا المنوال يُطرَح الحق والصدق والشرف كاسماء بلا مسميات . لان هذه جميعها قد تقلدت كذبًا مرارًا لا تحصى ولا نهاية لاختلاف الآراء فيها

ومن الناس ايضًا مَن يعتنون بامر الدين اكثر من الذين سبقت الاشارة اليهم وهم يدَّعون بانهم يخضعون للعقل ولكن عقولهم قضاة ظلم . لانهم يميلون اذانهم بكل اصغاء الى ما يقال ضد الوحي ويقرأون بكل رغبةٍ ما كُتِب ضد الديانة المسيحية ويحتفظون بحرصٍ على كل ما يُعترَض بهِ عليها بدون التفاتٍ الى الذين يحامون عنها ولا يسألون اصلاً عن هذه البراهين والاعتراضات التي تترآى لهم انها وطيدة هل لا يوجد من الرد عليها ما ينقضها . ولذلك يثبتون على كفرهم اشد الثبات مع امكان الحصول على ما كانوا يقتنعون بهِ لو شاءوا . وما داموا على هذا الفحص المنحرف فلابد ان يبقوا في ظلامهم

ومن الناس ايضًا نوعٌ ثالث وهم الذين يدَّعون بانهم تابعون لهداية العقل وهم تحت سلطة الاخلاق الردية كطلب المجد والبخل والشهوة والانتقام . والذين هم على هذه الصفات مهما كانت عقولهم ثاقبة ومعرفتهم واسعة لا يمكن ان يحكموا بالانصاف في ما يصدهم عن التمتع بشهواتهم الغالبة . وبما ان الدين ينهي عن جميع الشهوات الردية والتمتعات الرذيلة تحت

التهديد بالعقوبات الصارمة يطاردونه ببغضةٍ خبيثة . وهم كما قال بعض الفضلآء يقاومون الدين لان الدين يقاومهم . فان مثل هولآء ليس من شانهم ان ينظروا الى الديانة نظرًا هاديًا ولا يمكنهم الانتفاع ببراهين من يحامي عنها . فلا يفتكرون في الدين الا بروح العداوة ولا يتكلمون فيهِ الا بالهزءِ والشتيمة . وليس شيءٌ احبَّ اليهم من ان يستأصلوا جميع احكام الديانة من عقول الناس ويعدموها من العالم حتى لا يبقى لها اثرٌ يعذب ضمايرهم . وقد استحق فولتير الشهير ان يُدعَى رئيسًا لهذه الطايفة . وما اكثر الذين اقتدوا بهِ في بلاد المسيحيين

ثم انهُ يوجد نوعٌ اخر من الناس الذين اشتهروا بالعقل اكثر من الذين ذكرناهم وهم المرتابون في جميع الحقايق الذين ارآوهم مُغشَّاة بغمامةٍ كثيفة من غوامض المعقولات وهم يلقون شكًّا على اوليات الامور ويشوّشون عقول السامعين لهم بابتداع رسومٍ مخالفة للمشهورات . وربما يصدر منهم ضرر اكثر من اوليك وان كانوا قليلين في العدد . لان غيرهم من اعدآء الحق لا يُرَى فيهم العقل الثاقب الا نادرًا واما هولآء الفلاسفة فهم ارباب خبرةٍ في جميع فنون الكلام حتى يُرَى بين ايديهم الفاسد صحيحًا والغلط صوابًا ولو سلمنا لوساوسهم لشككونا ليس بالوحي فقط بل بشهادة حواسنا وبنفس وجودنا ايضًا . وهذا الريب يلقونه على كل شيءٍ باتخاذهم مقدماتٍ لاقيستهم من مبادئ

فاسدة وبحكمٍ سفسطيٍّ على مبادئ صحيحة وباستعمال عبارات مبهمة عن حذاقةٍ كلية وبتجاوز حدود المعرفة الانسانية في البحث . واما مقصودهم بذلك فلا يسهل الحكم عليه ولكن الارجح انه المجد الباطل . ولاجل ذلك يرغبون ان يُظهِروا انهم اعلم واحذق من غيرهم . ومن المعلوم ان تحصيل الشهرة في سلوك طريقٍ غير مطروق اهون من تحصيلها في سلوك الطريق الاعتيادي . ولا يمكن ان تكون علة علمهم اعتبار الحق لان الحق والعقل بحسب مباديهم على حدٍّ سوى في عدم المنفعة . فليس للحق عدو اعظم من هذه الطايفة . وانهُ لامرٌ يُرثَى لهُ ان بعض الاحداث الحاذقين قد يسقطون في فخاخ هولآء الفلاسفة وهم يتورطون اكثر فاكثر في حماة ضلالتهم حتى لايكادوا يخرجون منها فينقطع الى الابد الرجآء بانهم يصيرون انقيآء ويفيدون الاخرين

وقبل انهآء الكلام في الذين يدَّعون بان العقل دليلهم مع عدم استقامتهم في استعمالهِ يجب ذكر نوعٍ اخر وهم من المشهورين بالعلم والحذاقة الذين يدَّعون بقبول الوحي المسيحي ويفتخرون بتسمية انفسهم مسيحيين عقلآء . ولهم مبدأ حميد صحيح ان أُخذ على استقامتهِ وهو انهُ لا يجب قبول شي على انهُ حقٌّ الا ما تستحسنهُ عقولهم . ولكن مع حسن خضوعهم الظاهر لما يطابق العقل يُحكَم عليهم بمخالفتهِ مخالفةً لا يُتصوَّر اعظم منها بمناقضتهم

لمباديهم اكثر ممن تقدم ذكرهم . لانهم مع تسليمهم بان الناس قد اتاهم اعلانٌ من ربهم لا يرضون الا بعرض الحقايق المُوحَى بها على العقل البشري ورفضها ان لم توافق هذا القياس . ولا يعتبرون ان كون الامر مُوحًى بهِ من الله هو السبب الاعظم لقبولهِ والايمان بهِ . فلا ريب ان اقامة ارآينا ضد تعاليم من الله معلنة اعلانًا واضحًا يُعَدُّ جسارة ليس اعظم منها . ولكن ربما لم يكن الامر في الحقيقة كما ذكرناه ولا يوجد من يُتهَم حقًّا بمخالفة مباديهِ هكذا حتى يسلّم باشتمال الوحي على قضيةٍ بدون ريبٍ ثم يرفضها . فحقيقة رايهم تكون ان الكتب المقدسة محتوية على وحيٍ من الله ولكن يوجد فيها اشياءُ كثيرة اذا أُخِذَت على اظهر معانيها تكون مناقضة للعقل ومن حيث ان ما كان مخالفًا للعقل لا يمكن ان يكون من الله يلزم ان ذلك المعنى لا يمكن ان يكون معنى الكتب المقدسة الحقيقي . وبناءً على ذلك تشتغل فطنتهم ويُغتصَب علمهم لاختراع معنى اخر وللمحاماة عنه . فعلى هذه المبادي يومن الانسان بما يشاءُ من الكتاب المقدس ويرفض ما يشاءُ اذ لم توجد آيةٌ تقوى على جميع طرايق المعالجة التي اختُرِعت لتحريفها . واما هذا العمل جميعهُ فهو مضاد للعقل السليم . والطريق الصريحة التي يرشدنا العقل اليها هي اننا بعد فحص ادلة الوحي والاقتناع بصحتها نتقدم الى تفسير الكتب المقدسة بعقلٍ خالٍ من الاغراض ونستخرج معنى عباراتها

المتنوعة باستعمال حكمٍ سليم وبمساعدة الوسايط والضوابط التي يرشدنا اليها العقل والاختبار. وذلك المعنى ولو كان مضادًّا لارآينا السابقة او مناقضًا لاهوآينا فيجب علينا قبولهُ بكل خضوعٍ. ولا يجوز اننا بواسطة حذاقةٍ ثاقبة وعملٍ مدققٍ نستخرج معنى يوافق اوهامنا. لاننا بذلك لانجعل ارآءنا بحسب كلام الله ولكن نقصر تعاليم الوحي السامية السرية على قياس افكارنا الضيقة. ومن جرَى ذلك نرى في قاعة ايمان كثيرين من هولآءِ المسيحيين العقلآءِ ان بهآءَ الحقايق السموية قد سُلِب ولم يبقَ ما يفوق الاَّ قليلاً على قواعد الديانة الطبيعية. وهذا العمل ليس فيهِ مطابقة للعقل اصلاً

وان قيل كيف السبيل ان وجد معنى الكتب المقدسة الصريح مضادًّا على الاطلاق للمبادي العقلية فنجيب انهُ اذا تبرهن ذلك تكون النتيجة بالاحرى افساد الكتب المقدسة لاجواز استخراج الراي منها على الاسلوب المذكور. ولكن لايمكن ان يُبرهَن شيءٌ من ذلك. والدلايل التي تقدمت لبيان مضادة التعاليم القويمة للعقل انما هي فاسدة. ونظيرها لو قُبِل في الديانة الطبيعية لاوصلنا الى انكار وجودهِ تعالى

ان الذين ينكرون وجود وحيٍ من الله كثيرًا ما يفرضون في كتبهم عدم امكان موافقة الايمان والعقل. وقد اشعروا بل جزموا بانهُ لايمكن قبول الوحي بدون ترك العقل واظهروا

حزنًا على امتحانهِ بفحصٍ عقليٍّ لا يحتمل . وقد قال واحد منهم اسمهُ هوم في خاتمة رسالتهِ الشهيرة في المعجزات ان ديانتنا الكلية الطهارة موسسة على الايمان لا على العقل وانها تُلقَى في خطرٍ من هتك الفاضح اذا جعلناها موضوعًا لفحصٍ لا يمكنها ان تحتملهُ . ثم قال ايضًا ان مجرَّد العقل لا يكفي لاقناعنا بحقيقتها والذي يحركهُ الايمان لقبولها يشعر في شخصهِ بمعجزةٍ دايمة تناقض جميع اصول فهمهِ

ان هذه الطعنة المكمنة انما هي كعادة جميع الكافرين في كلامهم عن الوحي حتى تظاهروا بجسارةٍ منذ برهةٍ وجيزة . فانهم من ورآء ستر المحبة بالفاظ الوقار على شفاههم قد قصدوا طعن الديانة المسيحية في قلبها طعنًا قاتلاً . واما من جهة القضية المتضمنة في ما اوردناه من كلام هوم فالمومنون بالوحي يرفضونها رفضًا كاملاً ويحسبونها كذبًا فاضحًا ولا اساس لها عندهم . ولا داعي لهذا القول من جَرَى حالة المباحثة بين المسيحيين والكافرين بالوحي . لان المحامين عن الحق مستعدون دايمًا لملاقاة اخصامهم في ساحة العقل الخالي من الاهوآء . بل انهم قد برزوا لهم في كل ناحيةٍ يُقبِلون منها . ونقول بكل طمانينةٍ انهُ لم يبقَ للكافرين قولٌ غير مردودٍ ولا حجةٌ غير مكشوفة ولا مدحوضة . وقد رُدَّ على رسالة هوم ذاتها ببيانٍ جليٍّ كافٍ لاقناع كل احدٍ عدا السفسطي والمرتاب في الاشيآء كلها كما

سياتي الكلام عليهِ في مكانهِ

وبما اننا نرى كثيرين من الذين شربوا من هذه السموم ليس لهم سبيلٌ الى الترياق راينا ان نضع هذا المختصر في ادلّة الديانة المسيحية راجين ان تفيد هولآءِ الغاية الكبرى ولا تصدَّ الذين عندهم المطولات عن مطالعتها. وعسى ان تكون دواءً لما يُعَدُّ من اعظم الامراض المستحوذة على البشر

الفصل الثاني

في ان نفي كل ديانةٍ من العالم غير ممكن ولو امكن لكان من اعظم المصايب للجنس البشري

ان المقصود هنا ليس هو النظر الى الديانة من حيث وجوبها او كونها واسطةً لنوال السعادة في العالم الآتي لان الذين يقصدون نفي الديانة لا يعتبرون كلا هذين الامرين. ولكن المقصود انما هو اثبات هذه القضية وهي ان التمسك بديانةٍ ما هو طبيعةٌ غريزية في الانسان فلا بد منهُ. ويتضح ذلك من الوقوف على اصول الطبيعة البشرية وعلى تاريخ العالم. فان للانسان بالطبع حاسيةً بالتزامٍ ادبيٍّ ومعرفةً للتمييز بين الحرام والحلال واشعارٍ بحزنٍ او سرورٍ عند نظرهِ الى سيرتهِ وخوفًا من جزاءٍ عتيدٍ عند ارتكابهِ معصيةً وميلاً الى تقديم عبادةٍ الى معبودٍ منظورٍ او غير منظور. وتسمَّى هذه الحركات بالحاسيَّات الدينية ولذلك يقال للانسان حيوانٌ دينيٌّ. ولا ريب انهُ لا شيءَ يميز الانسان من الحيوانات البُكم اكثر من هذه القابلية للديانة. لاننا مهما راينا في البهايم من

دلايل المعرفة في بقية الاشياء لانستطيع ان نعلمها شيئاً من الامور الادبية ولانجعل فيها تاثيرًا دينيًّا. ومن الواضح ان هذه الحاسيات غريزيةٌ لاعرضية لانها توجد في البشر مهما كان عمرهم في جميع الازمنة وجميع البلدان وفي جميع احوالهم المختلفة من التوحش والتمدن. ولذلك ليس يوجد شعبٌ قديمًا كان او حديثًا بدون نوعٍ من الديانة. حتى ان وجود قومٍ بدون نطقٍ ليس بابعد من وجود قومٍ بدون شيءٍ من الديانة. نعم ان بعض السيَّاح قد اخبر بعد ملاحظة قليلة عن بعض قبايل بربرية انهم عادمون الافكار الدينية وليس عندهم عبادةٌ ولا معبود. ولكن بعد الفحص تحقق ان ذلك كان غلطاً منهُ. وبحسب معرفتنا الحاضرة بطوايف الارض نقدر ان نحكم حكمًا قاطعًا صحيحًا انهُ لايوجد شعبٌ واحدٌ خالٍ من الحس بامورٍ دينية ومن طريقةٍ للعبادة. وهذا الامر كان معروفًا جيدًا عند حكماء الازمنة القديمة وقد بنى عليهِ افلاطون وشيشرون عدة نتايج جوهرية. وهذه الاصول الطبيعية مغروسةٌ فينا غرسًا متمكنًا حتى لايمكن اقتلاعها. نعم انهُ قد يمكن ان الناس يتركون ديانتهم القديمة ويتمسكون بغيرها ولكن لايمكن ان يبقوا زمانًا طويلاً معتوقين من كل ديانةٍ. فاذا نُزِع منهم معبودٌ يلتصقون بغيرهِ واذا فقدوا لسوء حالهم معرفة الاله الحقيقي يتخذون الهةً قد اخترعوها لانفسهم او اتخذوها من غيرهم. ويشهد بذلك

تاريخ جميع الشعوب شهادةً لايمكن انكارها. فعموم الديانة هكذا يبيّن باجلى بيانٍ ان هذا المبدأ غريزيٌّ بل هو امرٌ جوهريٌّ في طبع الانسان كما ان عموم الفة الناس بعضهم ببعضٍ يبرهن ان الالفة هي خاصية طبيعيةٌ فيهم

ان الكافرين بالله قد اجتهدوا بان ينسبوا جميع الحاسيات الدينية وطقوس العبادة الى حِيَل الكهنة وتدبير الحكّام. لكن هذا الراي غير مثبتٍ بشهاداتٍ تاريخية بل هو في نفسهِ مغايرٌ للعقل بالكلية. لانهُ لو لم يوجد في عقول البشر ميلٌ سابق الى الديانة لما تصوَّر مثل هذا القصد في افكار الكهنة والحكام. ولو تصوَّر لخابت آمالهم من دخول اوهامٍ مثل هذه في عقول الناس خارجةً عن طبيعتهم. وعلى كل حالٍ لم يكن ممكنًا ان يدوم مثل هذا الخداع الى هذه المدة الطويلة ولا ان يعمَّ جميع شعوب العالم وقبايلهِ. لانه لو لم يوجد في عقول البشر حاسية دينية لما كانت للكهنة وارباب السياسة يدٌ يتمسكون بها ولا اساسٌ يبنون عليهِ. حتى ان نفس وجود الكهنة يستلزم وجود ديانة قبلهُ

ثم انهُ قد قيل ان الخوف هو علة وجود الآلهة. وذلك ايضًا وان سلَّمنا به يثبت قضيتنا انهُ يوجد في طبيعة الانسان ما يقتادهُ الى الديانة بل انه اقرار بصحتها. فالسبب المحرك لايجاد الاديان في الزمان الماضي لابد ان يكون سببًا لايجادها ايضًا ما دام

العالم موجودًا. فاذن يكون نفي الديانة من العالم غير ممكن

اننا لانعلم الى اية درجة بلغ الكافرون بالله في محو جميع اثار الديانة من قلوبهم. انما لاشك ان بعضهم قد بالغوا في مقاومة الميل الطبيعي وخمود الحاسيات الغريزية. ولكن لنا دلايل كافية على ان ادعآءهم باعدام هذه الحركات فيهم لاصحة لهُ. اذ قد عُلِم ان بعضهم استعبدتهم المخاوف والوساوس اكثر من ساير الناس وان اخرين عند وقوعهم في خطرٍ شديد كهيجان العواصف البحرية رفضوا كفرهم للوقت وطلبوا الرحمة من الله بحرارةٍ عظيمة كانهم من اخصّ المومنين. فاذا كان هولآء الفلاسفة بكل فلسفتهم لم يقدروا ان يمحوا الاثار الدينية من عقولهم فلا بد ان يكون نفي الديانة من العالم كلهِ امرًا مستحيلاً

ولكن لو فُرِض حصول هذه الغاية الخطيرة ولم يبقَ للديانة اثرٌ في العالم فماذا تكون النتيجة من ذلك. هل كان الناس يبقون بلا معبودٍ ولا يعود يستحوذ عليهم خوف قُوَّاتٍ غير منظورة ولا يحثهم ايضًا توبيخ الضمير على استعمال شيءٍ يقدمون بهِ الوفآء عن خطاياهم ولا يقوم ايضًا خدَّاعون وانبيآء كذبة يمكرون بالعالم ثانيةً باحلامهم وتخيلاتهم ويدَّعُون بوحيٍ والهامٍ. ان الذين يتوهمون عدم وقوع شي نظير ذلك لم يبلغوا كثيرًا من معرفة الطبيعة البشرية

فاذن الذين يقاومون الديانة المسيحية راجين بملاشاتها

الخلاص من الديانة بالكلية يغشون ذواتهم غشًّا عظيمًا. ولو تموا هذا العمل للزم تكرارهُ واعادة تعبهم مرارًا لانهاية لها. وعوض ديانة المسيح الطاهرة اللطيفة المترفقة يجدون انفسهم محاطين بخرافاتٍ دنسة كاذبة هايلة مستحيلة لم ينبت اشرُّ منها في اخصب اراضي العبادة الوثنية. كما نرى في ما بين الشعوب الاممية حيث الادناس والشقاوات متسلسلةٌ بلا انقطاعٍ من الخرافات القديمة في احسن اقاليم الدنيا واكثرها سكانًا. وفي افريقية واميركا حيث القبايل المتوحشة موثوقة في اشدّ العبودية بالخرافات المنكرة. ولولا حسن تاثير ديانة المسيح لنبتت حالاً في بلاد المسيحيين شرورٌ مثلها او اعظم منها. وقد كان ابآونا قبل تمسكهم بديانة المسيح واقعين في هذه الحالة الشقية نفسها. وانهُ لامرٌ يستحق ان يُنادَى بهِ في الشوارع ان الكتاب المقدس هو الذي اعتقهم من عبودية الخرافات الخبيثة وانهُ وحدهُ هو الذي يستطيع ان يمنع تسلطها ثانيةً علينا. ان الفلسفة لم يكن لها يدٌ في خلاصهم هذا لانها مع كل مدارسها المشهورة وعلمآيها البارعين لم تردَّ احدًا عن العبادة الباطلة. وكذلك ليس لها قوةٌ على منع رجوع الخرافات لو ارتفعت الموانع الاخرى

والان فلنتقدم الى الجزء الثاني مما نحن في صددهِ. وهو انهُ لو كان نفي الديانة من العالم ممكنًا لكان ذلك اشدَّ المصايب التي يمكن ان تعتري الجنس البشري

ان العلماء قد اختلفوا قديمًا في ايُّما هو اضرُّ للجمهور الخرافات ام الكفر. وقد تداول هذه القضية كثيرون منهم بحكمةٍ بليغة وانتهوا الى نتايج مختلفة. غير أن هذه المسألة مهما وقع فيها من الريب في الازمنة الماضية لم يبقَ فيها محلٌّ لهُ الان. اذ قد راينا من زمنٍ قريبٍ شعبًا عظيمًا قد طرحوا ديانة ابآيهم باحتقارٍ مهين وغاصوا دفعةً واحدة في لجة الكفر. وقد راينا من ذلك امتحان الامر هل يمكن قيام شعبٍ كثير العدد بدون ضبط من الديانة. وكانت جميع الظروف موافقة بقدر المرغوب لنجاحهم في هذا العمل. وذلك من جهة الارتقاء الى اعلى درجةٍ من العلم والتقدم في الفلسفة الى نحو الغاية القصوى والاعتناء بالتمدن ولطافة الاخلاق اكثر من كل من تقدمهم من الشعوب. ومع هذا كلهِ فما هي النتيجة. انها مكتوبةٌ باحرفٍ دموية عبرةً لمن يعتبر. كانَّ براكينة عظيمة هاجت من احشاء الارض وهي تقذف طوفانًا ناريًّا على جميع اوربا. ان العالم لم يشاهد قبلاً وليتهُ لا يشاهد ايضًا مثل ذلك المنظر من القساوة والحقد القبيح والنجاسة الوحشية والكفر الشنيع والظلم الهايل. وربما لم يلحق ذلك الليل الحالك الظلام صبحٌ لو لم يكن في ذلك الامر الذميم ما يُؤدّي الى فسادهِ وسقوطهِ عاجلاً. وذلك من حيث انهُ ليس للكفر رباطٌ لاتحاد اصحابهِ ولا اساس للالفة بينهم. لكنهُ يلقي على كل شخصٍ تهمةً ومن ثَمَّ يسبب في كل قلبٍ بغضةً.

وليس فيهِ علةٌ لعملٍ سوى مجرَّد محبة الذات التي لا تعتبر رباطات الطبيعة ولا تلتفت الى ما يوجب الشكر والمحبة. واما الحاسية الغالبة في قلب الكافر فهي الخوف. لانهُ عند شعورهِ بخلو نفسهِ من الفضيلة والشرف والرحمة يرى الاخرين على هذه الحالة ايضًا فيخاف منهم ويكون مستعدًّا لرفعهم من طريقهِ باية واسطةٍ كانت عند ما يظن انهم يصدُّونهُ عن اتمام مقاصدهِ. ولاجل ذلك قد ادار اوليك الكفرة سلاحهم بعضًا على بعضٍ بعد ان سفكوا دماءَ المسيحيين الابرياءَ والكهنة الذين لا ذنب لهم. ومن ثم غير مكتفين بقتل الذين خافوا منهم او حسدوهم نزَّهوا ابصارهم يوميًّا بمشاهدة سيول الدماءَ الجارية بلا انقطاع من تحت سيوف الجلَّادين. فان عدل الله لم يظهر قط على القساة الاردياءَ على نوع اجلى مما ظهر في جعلهِ هولاءِ الاشرار آلةً للانتقام بعضهم من بعضٍ. وقد كانت الاداب العمومية في تلك البلاد في مدة نفي الديانة المسيحية على حالة من الفساد تفوق التصديق. وقد اخبر من شاهد هذه الامور عيانًا وكان لهُ علمٌ فيها انهُ كان يكثر عدد الذين يقتلون انفسهم وكانت السجون ممتلية من اناسٍ غير مذنبين وكانت رؤُس المحكوم عليهم تقطع بلا انقطاع وشاع الحنثُ والغدرُ من كل نوعٍ والازدراءُ بسلطان الوالدين واباحة الفواحش باتخاذ اللواتي سمَّوهنَّ أُمَّهاتٍ غير متزوجات. وكثر الطلاق حتى ان نحو

ستة الافٍ طلّقوا نساءهم في مدينة باريس وحدها في نحو سنتين بعد اجازة الطلاق شرعًا. وبالاختصار كان هناك كل ما يُعَدُّ الفحش بين الرذايل وافظع بين المظالم. فاذا كانت هذه اثمار الكفر الحقيقية فالاولى بنا ان نختار عليها الخرافات باشنع صورتها. لان بين الكفر والخرافات هذا الفرق العظيم وهو ان هذه ربما تحلُّ بعض الذنوب واما ذاك فيفتح الابواب لجميعها. هذه تحجز ولو قليلاً عن الشر واما ذاك فيرفع كل مانعٍ لهُ. لان كل نوعٍ من الديانة لابد ان يكون فيهِ بعض مخاوف لمن يرتكب الذنوب اما الكفر فيَعِد ببراءةٍ كاملة من كل قصاص ويَسِم الفضيلة نفسها بسِمَة الجهل

ولكن لا نظن ان جميع الشعب في فرنسا كفر في تلك المدة. حاشاهُ من ذلك. فان اكثرهم نظروا الى ذلك المنظر بمقتٍ وكراهةٍ. ولكن كان السلطان يومئذٍ بيد الفلاسفة الكافرين ومع انهم كانوا جانبًا صغيرًا من الشعب استطاعوا ان يعملوا ضررًا هذا مقدارهُ. غير اننا من هذا المثال نقدر ان نحكم كيف يكون الحال لو كفر جمهور الشعب وتحرر من نصايح الضمير ورباطات الديانة على ان هذا لا يمكن ان يكون ولو كان لاعترف الجميع بانهُ لا يمكن ان تكون مصيبةٌ اشدُّ منها على الارض وكانت صورة جهنم بعينها في هذه الدنيا. لانه لا يوجد في جهنم شي ارعب من عدم وجود كل رجاءٍ ورفع كل مانعٍ عن ارتكاب

الشرور واباحة جميع الشهوات الردية. غير ان بين الحالين اختلافًا ظاهرًا في امر واحد وهو ان الكافرين ينكرون الاله الذي خلقهم واهل جهنم يومنون بهِ ويرتعدون منه

الفصل الثالث

في انهُ لو رُفِضَت الديانة المسيحية لما وجدت ديانةٌ اخرى تقوم مقامها وتصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانة

قد ثبت في الفصل السابق ان التمسك بديانةٍ امرٌ ضروري. والان لنا الديانة المسيحية التي هي بحسب اقرار الكفرة انفسهم تصلح لغاياتٍ كثيرة حسنة. فان اردنا ابدالها باخرى يجب ان نمعن النظر جيدًا في الافادة المنتظرة من هذه المبادلة. فاننا ان ارانا احدٌ ديانةً افضل منها ومبنيةً على براهين اثبت من براهينها يجب ان نتركها بكل رضى. والا فلا يوافق العقل ان نترك خيرًا حاصلاً بدون ان نحصل على ما يعادلهُ. لان ذلك يكون كانَّ ركَّاب سفينةٍ تتقدم بامنٍ الى المينا المقصود يعزمون على تركها من غير ان يعرفوا سفينةً اخرى يركبونها وذلك بمجرَّد زعم بعضهم انها سوف تغرق. فليظهر اعداء الديانة المسيحية مقصودهم ويخبرونا ما هو الذي يريدون ان يضعوهُ عوض الكتاب المقدس ان امكنهم. والا فلا يلزمونا برفض اعزّ آمالنا بدون معرفة ما يعوَّض بهِ علينا عن خسارتنا

ان هذا امرٌ كلي الاعتبار ومستحق العناية الجسيمة. لانهُ ان

قُصِد بالحقيقة وضع ديانةٍ اخرى عوض الديانة المسيحية فمن المعلوم انهُ يجب قبل المبادلة ان تكون لنا فرصةٌ لفحص بيناتها واصولها لنعرف هل تصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانةٍ. ولاجل تسهيل المباحثة في هذا الموضوع يجب ان ننظر الى العالم اجمع ونسال ما هي الاشياء التي امامنا للاختيار فيها. فالتي يسعنا ان نتكلم فيها اثنتان الاولى عبادة الاوثان من الطرق الموجودة في ايامنا او في الاجيال الماضية. والثانية الديانة الطبيعية اي اتّباع ارشاد الطبيعة في الديانة من دون وحي

اما الديانة الوثنية فنبيّن نقايصها في محلها ونكتفي هنا بذكر البعض من الذين تجاسروا على طلب اعادتها. فنقول انهم وان كانوا قليلين لكن يوجد اناس مثل هولاءِ منهم المعلم كبون. على انهُ لم يصرّح بهذا الاعتقاد جليًّا بل يُستنتَج من اقوالهِ في تاريخ انحطاط المملكة الرومانية وانقلابها انهُ قد حزن جدًّا على انقراض الديانة الوثنية القديمة ولم يسرّهُ تقدم الديانة المسيحية اصلاً. فانه برينا انهُ لو رجع الامر الى ارادتهِ لما سمح بابطال الطرق القديمة ولاوجدت الديانة المسيحية مقرًّا. ولكن لا يصرّح بفكرهِ هل يريد بناءَ الهياكل ثانيةً وترجيع الطقوس الوثنية. وتعسر معرفة قصدهِ في مقاومة الديانة المسيحية ولا نعلم هل كان لهُ قصدٌ اخر سوى اظهار بغضه للانجيل وصاحبه

ثم ان المعلم تيلور قد اقرَّ علانيةً باستحسانه ديانة افلاطون

وارادته احياءها ايضاً واستحقر الديانة المسيحية بالنسبة اليها. ولكن لا نرى كيف حسب تلك الديانة موافقة لجمهور البشر الذين لم يكن لها تاثيرٌ فيهم البتة ما دام الفيلسوف ذاتهُ حيًّا. ولا تصلح هذه الديانة ان تكون عوضاً عن الديانة المسيحية التي من الطف محاسنها ان المساكين يبشرون بالانجيل. ثم اننا اذا كُشِف الحق فلا ريب ان نرى ذلك العقل السامي اي عقل افلاطون قد استمدَّ بعضاً من افضل مباديهِ من الكتب المقدسة اما بواسطة او بغير واسطة. وانهُ لو عاش في نور الانجيل لما نظر الى الديانة المسيحية نظرَ هذا المعلم الكافر

ثم انهُ في زمان الانقلاب فى فرانسا بعد امتحان احوال الاشياء مع نفي كل ديانةٍ اشار احدهم باقامة ديانةٍ جديدة مثل ديانة الفرس القدماء. وهي ان يشار الى الجوهر الالهي بنارٍ دايمة وان يُقرَّب لهُ قرابين من الاثمار والزيت والملح ويسكب سكايب من الخمر الى العناصر الاربعة. ورسم ان تُمارَس العبادة يومياً في الهيكل وان كل يومٍ تاسعٍ يكون سبتاً للراحة وان يشترك الجميع بالرقص والملاهي في اعيادٍ معلومة. وقد اتبع هذه الديانة الحديثة بعض انفارٍ في باريس وغيرها. ولكن لم يُلتفَت اليهم وبعد برهةٍ يسيرةٍ انطفا خبرهم وانقرضوا

واما اختيار الديانة الطبيعية اذا رفضت الديانة المسيحية فنقول فيه ان البعض من تابعي هذه الديانة قد تجاوزوا الحدود

في مدحها وتعظيمها على انها حاوية جميع ما يلزم الانسان معرفتهُ وانها بسيطة ومفهومة عند الخاص والعام. ولكن يا للعجب لا نرى اثنين منهم يتفقان في ما هي الامور الجوهرية للديانة التي لا بد من تعيينها قبل امكان ترتيب عبادةٍ دينية. فيختلفون على مسايل مثل هذه. وهي هل يوجد فرقٌ في الحقيقة بين الحلال والحرام. هل يلتفت الله الى الامور البشرية. هل النفس خالدة. هل الصلوة واجبة ونافعة. هل الطقوس الخارجية لازمة في العبادة

وايضًا لو كانت الديانة الطبيعية هي الديانة الحقيقية فلماذا لم تنمُ التقوى بين تابعيها. ولماذا لم يغاروا على عبادتهِ تعالى. أفلا تزداد التقوى بواسطة الحق وألا يكون المتمسكون بالحق يحبون الله اعظم محبة ويعبدونهُ احق عبادة. ولكن ما هي حالة هولآءِ الاشخاص. هل اشتهروا بحسن العبادة. وهل كثر فيهم امثلة صالحة في السيرة التقوية. كلاَّ بل الامر بالعكس حتى ان مثل هذا السوال عليهِ هيئة الهزءِ عند من يعرفهم. واذا قيل كافرٌ تقيٌ فكما يقال لصٌ امينٌ او سكرانٌ صاحٍ

وليس قولنا هذا على سبيل النميمة. لان الكافرين لا يدَّعون بالتقوى ولا يحبون العبادة وهي نفس الشي الذي يريدون ان يتخلصوا منهُ. ولو كانوا يظنون ان الكفر يوجب زيادة التقوي والعبادة لما كانوا يغارون عليهِ كما نراهم. فان الخصام ليس بين

ديانةٍ واخرى ولكن بين الديانة وعدمها. لانهُ لا يمكن لصاحب التقوى الحقيقية ان يرفض الكتاب المقدس ولو لم يطّلع على الادلة التاريخية لصحتهِ بل كان يجدهُ مناسبًا لذوقهِ ومفيدًا لنفسهِ حتى يتيقن ان مصدرهُ من السماء. ولكن مثل هذا الروح لا نجد في تصانيف الكافرين لا ولا شيئًا من حفظ التقوى بل نجد كثيرًا من الهزؤ والسماجة. واذا التفتنا من الكتاب المقدس اليهم نكون كمن ينتقل من مكانٍ معتدل الهواء الى زمهرير المنطقة المتجلدة. فاذا اراد الكافرون ان ينظر الناس الى ديانتهم بالرضى والقبول يجب ان يُظهروا التقوى الحقيقية مهتمين في خدمة الله بخلوص القلب. فذلك يوثر اكثر من كل براهينهم. ولكن حينئذٍ لا نعود نجدهم مضادّين للكتاب المقدس بل معتبرين اياهُ كاشرف الكتب ومقبلين اليهِ ليوطدوا بهِ اركان التقوى النقية. فقد صدق اميرٌ من سودان افريقية حضر الى بلاد الانكليز وسُئِل ما ظنك في الكتاب المقدس اذ قال اظنه من الله لاني ارى كل الصالحين معهُ وكل الاشرار عليهِ

ثم ان الكافرين لم يستطيعوا قط ان ينشوا لذواتهم طريقةً للعبادة ولا ان يثبتوا عليها اذا انشوها. مع انهم قد اجتهدوا في هذا الامر مرارًا في اماكن كثيرة وفي اوقاتٍ مختلفة. والعلة الكبرى انما هي خلو نفوسهم من روح التقوى وحسن العبادة ولنا امثلة كثيرة لصحة هذه القضية منها قسيس في ليفربول

قد رفض الكتب المقدسة وتمسك بالديانة الطبيعية. فانه ذهب الى مدينة لندن وهناك فتح بيتاً لاجل العبادة على مذهبهِ بموازرة البعض من ذوي الاقتدار واخترع طقساً اكثرهُ تقديم تسابيح وشكر للخالق فوعظ هناك مدةً يسيرة وتبعهُ اناس قلايل. لكنهُ راى اكثر جماعتهِ لم يقفوا عند مذهبهِ بل تقدموا الى الكفر بالله ايضاً. وبعد اربع سنين لم يبقَ لهُ نفقة ولا جماعة فانتهى الامر على ذلك

ثم ان فردريك الثاني الشهير ملك بروسيا المتمسك بالاقرار المذكور قصد بناءَ هيكلٍ في برلين لاجل اتباع جميع المذاهب والاديان. وكانت الغاية العظمى فى ذلك انما هي استيصال الديانة المسيحية الا انهُ لم يتمَّ لهُ العمل

ثم انهُ في ايام الانقلاب في فرنسا بعد ما وجدوا انهُ لابد من نوعٍ من العبادة قام جماعةٌ من الاكابر والعلماءِ وانشأُوا طريقةً لعبادة الله حسب اصول الديانة الطبيعية واستعملوا الكنايس اماكن لعبادتهم. وكان دستور ايمانهم بسيطاً حاويًا قضيتين كبيرتين وهما وجود الله وخلود النفس. وكانت شريعتهم الادبية حاويةً مبدأين كبيرين وهما محبة الله ومحبة الناس. وكانت عبادتهم تحتوي على صلواتٍ وتسابيح مكتوبة في كتابٍ لارشاد العابدين في العبادة. وفي اجتماعاتهم كان يخطب بعض الاعضاءِ ولكن لم يُسمَح ان يقدم خطابٌ للجمهور

الاَّ بعد فحصهِ من المناظرين . وقد اضيف الى هذه بعض طقوس بسيطة كوضع طبق اثمار وزهور على المذبح . وكانوا يستعملون الموسيقى بالاصوات والآلات في اجتماعاتهم . وجدُّوا كل الجد في ادخال هذه العبادة الى كل مدن فرنسا المشهورة . وانتشرت مقاصد جمعيتهم الى بلادٍ اخرى . وتوجه كتابهم الى جميع اقطار بلاد فرنسا بامر وزير الامور الداخلية

فانهُ لم تكن قط لجمعيةٍ اخرى في بدايتها وسايط اعظم وانسب مما كان لهذه الجمعية . لان الديانة المسيحية كانت قد رُفضِت باحتقارٍ . وقد امتُحن الكفر بالله مدةً يسيرة فوُجِد غير محتمل . والحكم كان موافقًا لهذا المقصد وسعى بهِ اناسٌ ارباب سطوةٍ وعلمٍ . وكانت لهذا المذهب الجديد كنايس مبنية مُعَدَّة . وطريقة الديانة الطبيعية التي اخترعوها كانت افضل ما يتصور . ولم يخلُ تركيب صلواتهم وطقوسهم من حكمةٍ وفطنة . ولكن مع موافقة جميع هذه الظروف لم تقدر الجمعية ان تقوم . بل من البداية كان اكثر الذين يجتمعون في اجتماعاتهم ناظرين فقط يحضرون على سبيل التفرج لا من اهل هذه الطريقة . وبعد برهةٍ يسيرة لم يبقَ لهم من يسمع خطاباتهم . ورويدًا رويدًا تلاشوا ولم يبقَ لهم الان اثرٌ

فتكون معرفة الاسباب المانعة نجاح جمعيةٍ متمتعة بمثل هذه الوسايط مفيدةً لكل طالبٍ . ولا ريب ان اعظمها ما كان

الاَّ عدم وجود روح التقوى الحقيقية فيها. وقد ظهر ذلك في بداية اجتماعاتهم لانهُ لم يوجد فيها شي يحرك عواطف القلوب. وذلك بما ان خطباءهم مع كونهم من اهل العلم وخطباتهم تعلّم اصول الآداب لم يكونوا من ذويي التقوى ولاكانت سيرتهم دايمًا طاهرة. وكذلك تسابيحهم ربما كانت حسنة الانشاء وشجية الالحان ولكن اصحاب هذه الالحان كانوا من الذين يغنُّون في المراسح ولم يكن شيءٌ من حسن العبادة في قلوبهم. واهل هذه الطريقة كانوا ايضًا يبخلون جدًّا في تقديم ما يلزم الجمعية من المال حتى انهم لم يقدروا ان يجمعوا في بعض جمعياتهم ما تجمعهُ افقر جماعات المسيحيين في يومٍ واحدٍ. فبعد هذا لا يُظَنُّ ان الذين يقرُّون بالديانة الطبيعية او غيرهم من الكفرة يخترعون لذواتهم طريقة مخصوصة للعبادة

ولكن عند البعض من الفلاسفة الذين يعتقدون ان الطبيعة البشرية يمكن ان تصل الى درجة الكمال بواسطة تاثير العلم والحكم الحسن يوجد نظرٌ وهيٌّ بقيام ديانةٍ عقلية فلسفية لا تحتاج الى طقوسٍ خارجية. وعقايدهم الاصلية هي ان الديانة امرٌ بين الله وضمير الانسان فقط. وان جميع ما يطلبهُ الخالق من الناس ليس هو الاَّ عبادة القلب. واننا ان اشعرنا بالاحترام والشكر والخضوع نحوهُ تعالى وقمنا بما يجب علينا نحو الجمهور فقد تممنا الواجب علينا. وانهُ لا يمكننا ان نعرف ماذا يصيبنا

بعد الموت . ولا ينبغي ان نشوش ضمايرنا في ذلك . فاننا لا نعلم هل يقصدون جعل هذه الديانة للفلاسفة فقط ام للبسطاء وذوي الاشغال ايضاً . ولكننا نعلم ان جمهور البسطاء والجهلاء يصيرون بهذا كأن لا ديانة لهم . لان اكثر الناس يحتاجون الى شيء محسوس منظور في الديانة فيطلبون ممارسة الطقوس والالفة للمحافل لاجل حصر الافكار وايجاد الرغبة وتحريك الحواس في العبادة . وكذلك اذا اثرت حركات التقوى في القلب تطلب الطبيعة اظهارها في الخارج حتى انه حيثما اشعرت اشخاصٌ بحاسياتٍ متشابهة في الديانة فلاسفةً كانوا ام سادجين فهناك يوجد ميلٌ شديدٌ الى ان يشتركوا في اظهارها . فاصحاب الافكار التقية يسرُّون بان يشهروها بالاتفاق في حمد وعبادة الاله الذي يحبُّونهُ ويتَّقونهُ . ولا يوجد سببٌ لاخماد هذه الحركات ومنع النطق بها ولا يمكن ان يقع ذلك عموماً مع كون التقوى تقوم خاصةً بحركات القلب . لان من فضل القلب يتكلم الفم . فهذه الديانة العقلية الموهومة تكون صحتها مشتبهة وسطوتها ضعيفة وتاثيرها في سيرة من يعتقد بها قليلاً ولا يمكن ان تكون مفيدة للاخرين على سبيل الاقتداء

وفي سنة ١٨٠٢ اعيدت الديانة المسيحية الى فرنسا بامر الحكم وحينيذٍ قال احد اكابرهم في خطابهِ امام ارباب الديوان والحكم ان الذين يفوزون بمعرفة العلوم لا يكونون الا قلايل .

واما الديانة فيتعلم الانسان بها بدون ان يكون عالماً. فبما ان الديانة الطبيعية التي يصل اليها شخصٌ بواسطة العقل المهذب عقلية نظرية فلا تناسب شعباً من الشعوب. واما الديانة الموحى بها فهي التي تشير الى جميع الحقايق المفيدة للذين ليس لهم فرصةٌ ولا وسايط للفحص المدقق. فمن الذي يريد ان يجفّف ذلك الينبوع المقدس الذي ينبع علماً ويفيض رسوماً صالحة ويقدمها لنظر كل انسانٍ ويعطيها ذلك السلطان وتلك الهيئة المقبولة التي بدونها تكون تلك الرسوم مجهولةً عند الجمهور وربما عند جميع الناس ايضاً. فانهُ لعدم التربية الدينية في العشر سنين الماضية قد صارت اولادنا كانها عادمة المعرفة بصفات الباري تعالى والتمييز بين الحرام والحلال. فمن ذلك تنتج العوايد البربرية ويصير الشعب متوحشاً حتى انهُ لا بد من الحزن الشديد على ما سوف يصيب هذا الجيل وما بعدهُ. فوا اسفاه ما الذي ربحناهُ بانحرافنا عن السبيل الذي ارشدنا اليهِ اسلافنا وما الذي استفدناهُ باتخاذنا تعاليم باطلة عوض التعاليم التي كانت تحرك قلوب اوليك الفاضلين تورين وفنلون وباسكال. انتهى

وما ذكرناهُ عسى ان يكفي لاثبات قضيتنا الثانية التي هي لو رفضت الديانة المسيحية لما وجدت اخرى تقوم مقامها. او بالاقل لم توجد ديانةٌ تصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانة

الفصل الرابع

في لزوم الوحي لتعليمنا كيف نعبد الله عبادةً مقبولة وما هو العالَم الآتي وحقيقة وجودهِ وعلى الخصوص كيف السبيل لخلاص الخطاة

لا حاجة الى تكرار ما ذكرناه في الفصل السابق من احتياج الانسان الى الوحي عند خروجهِ من يد خالقهِ. بل ننظر الان الى الانسان في الحالة التى هو عليها في الوقت الحاضر والتي حسب التواريخ كان عليها منذ القديم ونسال ألا يحتاج جدًّا الى نورٍ اكثر مما لهُ وألا توجد بعض قضايا ضرورية يجهلها لا محالة ما لم تُعلَن لهُ معرفة الحق بوحيٍ من ربهِ. ومن ثمَّ نرى لزوم مثل ذلك الوحي. ولكننا بقولنا لزوم الوحي ليس مرادنا لزومًا طبيعيًّا ولا ان الله ملتزمٌ باعطاءِ وحيٍ ولكن المراد انما هو اللزوم الذي يتعلق باحتياجات الانسان. فكاننا قلنا ان الانسان في كل زمانٍ وعلى جميع الاحوال قد وُجِد محتاجًا الى معرفةٍ لا يمكنهُ الوصول اليها بمجرَّد استعمال عقلهِ بل يفتقر الى وحي من ربّه لتحصيلها على نوعٍ كافٍ

وانهُ لو استطاع بعض الفلاسفة ذوو العقول الثاقبة ان

يكشفوا ببحثٍ طويلٍ عميق عن جميع الحقايق اللازمة معرفتها بالضرورة لبقي اعلان هذه الاشياء بوحيٍ من الله لازمًا جدًّا للجمهور اذ لا يوجد لاكثر الناس فرصةٌ او طاقةٌ على فحصٍ طويل عسير مثل هذا. ولكن حقيقة الامر حسبما نعلم من التاريخ هي ان حكماء هذا العالم وجهلاءهُ قد كانوا في الجهالة على حدٍّ سوى من جهة تلك القضايا التي يحتاج الانسان الى معرفتها اشد احتياجٍ. فانهم بعد ان احتجوا كثيرًا وتوهموا ونظروا الى حدّ امتداد العقل البشري قد عجزوا عن تحصيل الحق بدون شبهةٍ واكتفوا اخيرًا بمجرَّد الظن او زاغوا الى ضلالٍ مبين

وايضًا لو كان نور الطبيعة كافيًا للدلالة على شي من الحقايق المعتبرة اللازمة معرفتها للانسان فانهُ لا يبطل بذلك احتياجهُ الى اعلانٍ واضح من السماء مُثبَّتٍ بالبيّنات الصريحة يزيل بحكمهِ القاطع الشك من امورٍ فيها نتايج العقل ضعيفة مبهمة. لانه من اشد الضرورة في الحقايق الدينية لكي توثّر في الضمير وتحرك القلب ان تكون معلومةً لا يشوبها ريبٌ وان يشعر الناس بكونها مثبتةً بسلطان الهي. فانهُ قد وُجِد بالاختبار ان ما يكشفهُ الانسان بالاستنتاج العقلي شيئًا فشيئًا فعلهُ في الضمير ضعيف بالنسبة الى اليقين بان الله هو المخاطب لنا بواسطة وحي من عنده. ثم ان الناس يختلفون كثيرًا في اعظم الحقايق وذلك مما يلقي الشك والريب على جميع ارآيهم. وعند ما

نقرا خُطَب احكم الحكماءِ الوثنيين ونلاحظ ما غشيهم من الظلام نحزن على ضعف العقل البشري حتى ان الافضل فيهم قد اشعروا وتحققوا بعدم كفاية العقل لادراكهم الحقايق وقد لاح لهم احيانًا رجاءٌ ضعيفٌ بانهُ في زمانٍ ما سيُعلَن بطريقةٍ غير معروفةٍ تعليمٌ الهي لبني البشر الضالين

ويبان ايضًا ان اوضح افكار الفلاسفة واعظمها في الديانة لم تكشفها عقولهم ولم تكن نورًا اوقدتهُ الطبيعة ولكنها كانت اشعّة حقٍّ قد أُخِذَت بعيدًا او قريبًا من وحيٍ الهي كما سبقت الاشارة اليهِ. ونعلم ان الحكماءَ الوثنيين قد نسبوا كل معرفتهم الى تقليداتٍ وصلت اليهم خلفًا عن سلفٍ

وانها قضيةٌ لايمكن انكارها ان العقل مع مساعدة التقليد ترك الناس يمشون في الظلام ولم يمنعهم من السقوط في اقبح انواع العبادة الوثنية. نعم ان العقل يعلّم بوجود الله ووجوب عبادتهِ الا انهُ لايعلّم البتة من اي نوعٍ يجب ان تكون العبادة لكي تكون مقبولة وليس ذلك في مكنتهِ. فان جميع ما استنبطهُ الانسان من طقوس العبادة لايليق بالله اصلاً ومن المحال ان يخترع الانسان طريقة عبادة مقبولة اذ لايرضى الله بخدمةٍ من هذا القبيل لم يفرضها هو بنفسهِ. فلذلك ان فقد الانسان فرايض الديانة الاصلية او صارت فاسدةً باجمعها فقبل ما يستطيع ان يودّي خدمةً مقبولةً لخالقهِ لابد لهُ من وحيٍ جديد. ولنا براهين

كافية لاقناعنا بان كثيرًا من طقوس العبادة عند الوثنيين انما هو رسومٌ الهية فاسدة قد اعطيت للناس بوحيٍ سابق. ولاسيما في ما يلاحظ الذبايح التي كانت جزءًا جوهريًّا من عبادة جميع الشعوب القديمة. ومن تلك العبادة قد وصل بعض اثارٍ الى القبايل البربرية في هذه الايام بواسطة التقليد. فلا ريب ان العقل لم يعلّم الناس اصلاً بان سفك الدم في قتل حيوان يكون ذبيحةً مقبولةً عند الله او ان تقدمة ذلك على مذبحٍ واحراق جميعهِ او جزءٍ منهُ يكون كفّارةً عن الخطية. ومع ذلك قد عمّت هذه الطقوس العالم الا قليلاً كعموم قوة النطق. ثم انهُ قد لُحِظَت مشابهة كلية بين ذبايح شعوب بعيدة جدًّا عن بعضها في ظروف الذبايح كبناء المذابح وسفك الدم وتفسيخ الحيوان وتقديم ملح وخمر وخبز وبخور مع الذبايح واعتبار دم الذبيح وموتهِ كفارةً عن الخطية ووجود رتبة كهنوت لخدمة هذه الطقوس المقدسة ممن تكرّسوا للخدمة بكل وقارٍ وحُسبوا اطهر من غيرهم واكلهم ما يبقى من الذبيح داخل الهيكل او الحدود المقدسة اذا كان لم يحرق جميعهُ. وترى هذه المشابهة ايضًا في ذات تسمية الذبايح المتشابهة باسمٍ واحدٍ عند شعوبٍ مختلفة. فهذه المشابهات القريبة ونظايرها من طقوس الشعوب القديمة تبرهن انها من اصل واحد لامحالة. وكون ذلك الاصل وحيًا سابقًا اصدق مما يُعَلَّل بهِ عن عادة الذبايح ومن ثمّ نرى صدق التاريخ

الموسوي في اصل العبادة الدينية

واذا فرضنا ان طايفةً وثنية قد اقتنعت ببطلان عبادة الوثن وشعرت بانها ملتزمة ان تودي عبادةً خارجيةً الى الخالق جل شانه فبأيّة واسطةٍ تتوصل الى معرفة النوع المقبول من العبادة. فان العقل لا يستطيع ان يعلّمها ما هي الطقوس الواجب استعمالها وبدون وحيٍ من الله لابد ان تبقى الى الابد بغير طريقة للعبادة او تخترع بعض طقوس يعلّم كل اختبارٍ سابق بانها لا تسلم من اثر الضعف البشري. واذا كان ذلك كذلك يظهر ان الانسان محتاجٌ الى وحيٍ يعلمهُ كيف يقدم العبادة المقبولة لخالقهِ ولو فرضنا انهُ ليس بمخطئٍ

قد ادّعَى بعض مولفي الكافرين ان كيفية عبادة الله امرٌ لا طايل لهُ لان الله يرضى بعبادة جميع الشعوب على حدٍّ سوى مهما اختلفت كيفية عبادتهم. ولكن هذا الاعتقاد مضادٌّ للعقل السليم كل المضادة. فانهُ بحسب هذا المبدا يتبرر تقديم الذبايح الانسانية الذي قد كثر جدًّا في العالم وتكون ادنى العوايد وارداها مقبولةً عند الله. ان عبادة الشعوب الوثنيين باسرها في الازمنة القديمة والحديثة مكروهةٌ جدًّا وكل من لهُ نظرٌ لايقٌ في صفات الله لا يمكن ان يقنع نفسهُ بانهُ تعالى يرتضي بعباداتٍ متصفة بالقساوة والنجاسة والجهالة مثل هذه. ولا تتجه عبادتهم نحو الاله الحقيقي بل نحو الهةٍ كاذبة هم قد استنبطوها فلا

يذبحون لله بل للشياطين. وقد وضعوا مكان الاله العظيم مخلوقاتٍ من كل جنسٍ ونوعٍ. لا يقدر عاقلٌ ان ينظر الى هيكلٍ وثني الا ان يقشعرَّ وينذهل من طقوس تلك العبادة المكروهة الدنسة. وكلما ازددنا تاملاً في هذا الموضوع زاد نظرنا شدة احتياجنا الى وحيٍ الهي وادراكنا منافعهُ العظيمة للجنس البشري. فمن يقدر ان يقف مثلاً على اخبار الهة المصريين القدماء او الهنود الحدثاء وعبادتهم الوثنية، لا يرى شدة الاحتياج الى ما يكشف تلك الظلمة الهايلة ويقطع رباطات تلك الخرافات الفاحشة

ثم لنا برهانٌ اخر للاحتياج الى وحيٍ الهي وهو انهُ بدون الوحي لا بد للانسان من ان يبقى جاهلاً باصلهِ وباخرتهِ ولا يستطيع ان يفهم الظروف التي هو فيها. فيجد نفسهُ في هذا العالم ويشعر بان كرور الزمان حاملٌ لهُ ولساير جيلهِ الى هاوية مظلمة امامهُ لا يرى منها فرارًا. واذا سال عن اصل الجنس البشري وطلب معرفة كيفية وجودهِ الاثيم الشقي المايت لا يجد احدًا من الاحياء او الاموات يعطيهِ خبرًا كافيًا. ان جميع تقليدات الناس وتواريخهم عن الاجيال الاولى مشحونة كذبًا وان صدقتْ في بعض الاشياء فالصدق والكذب فيها ممتزجان حتى لا يمكن التمييز بينهما. فلو ارتفعت الاخبار الموجودة في الكتاب المقدس لكان كل ما تعلمناهُ من غيرهِ

لا ينيرنا البتة في معرفة اصل جنسنا . والكافر بالوحي لا يمكنهُ ان يعلّل بما يوافق العقل عن خطية الانسان وشقاوتهِ وموتهِ . فان ظلام هذه الامور وابهامها قد الجأ كثيرين من الذين انكروا سلطان الكتاب المقدس ان يتمسكوا بوهمياتٍ بعيدة وكفرية في شان اصل الانسان . فادَّعَى بعضٌ بالاعتقاد ان الارض وسكانها قد كانت منذ الازل . وبما ان ذلك محالٌ لا حاجة الى الرد عليهِ . وتسلَّى اخرون وسلَّوا من يقرأُ مصنفاتهم بان الجنس البشري كان في الاصل نوعًا من الاقراد ثم طرحوا عنهم بالتدريج صورتهم وعوايدهم الوحشية وبعض زوايد غير بشرية وعلى توالي الايام استنبطوا اللغة والصنايع اللازمة للبدن في لباسهِ ومأْواهُ وصاروا يتقدمون درجة بعد درجة في الاصطلاح حتى وصلوا الى هذه الدرجة من التمدن والنظام التي وصل اليها احسن الطوايف تمدُّنًا . فاوهام مثل هذه كافيةٌ لبيان كون نور العقل في هذا الموضوع قليلاً جدًّا وكوننا في غاية الاحتياج الى وحيٍ الهي . فلا يمكن من يكفر بهِ ان يستنبط رأيًا يُروِي بهِ غليلنا ويعطي خبرًا كافيًا عن حالة جنسنا الادبية وتعرُّضه للفناء . نعم انه قد يمكنهُ ان يقول ان ذلك سنَّة الطبيعة الا ان هذا القول انما هو اقرار بالواقع لا اعطاء سبب وجودهِ

ولربما كنا نرتضي ان نبقى بدون معرفة اصلنا لو كان يمكننا معرفة نصيبنا المستقبل وكيف يتعلق ذلك بصفاتنا وسيرتنا

الحاضرة. فان العقل قد اجتهد حتى استفرغ كل قواهُ في اثبات خلود النفس اثباتاً غير متزعزعٍ. ولكن نتايج هذا التعلل لم تكن الا بيان الامكان او الاحتمال الارجح ان النفس تبقى حية بعد موت الجسد. والحال اننا في هذه القضية اكثر من غيرها نحتاج الى كمال التحقيق. فكم من غمومٍ كان يشملنا لو تبرقعنا بظلام الشك والريب عند ما ننظر الى المستقبل ولاسيما لو لم يكن لنا ما نتمسك بهِ الا نتايج عقولنا الضعيفة واوهامها عند نزولنا في القبر. ولا يُظَنَّ اننا نحتقر قوة البراهين العقلية لخلود النفس. لان كثيرًا من الفلاسفة الوثنيين قد كانوا يعتقدون بموت النفس مع الجسد ومن الذين كانوا يومنون بوجود الاخرة كان اناسٌ يعتقدون بموت النفس بعد مضي الف سنةٍ او اكثر. واخرون كثيرون كانوا يعتقدون بتناسخ الانفس من جسد حيوانٍ الى اخر مداولةً دايمة. واكثر من هولاءِ كانوا لم يتصوروا الخلود الا ان النفس التي كانوا يعتقدون انها جزءٌ من الاله ترجع عند الموت وتمتزج بالجوهر الالهي وما هذا الا انكار وجودٍ عتيد لانفس مفردة ذوات اشعار شخصي. حتى انهُ لمثل سقراط وافلاطون وشيشرون لم يكن رايٌ بيّنٌ وثابتٌ في هذا الموضوع العظيم. وليس ذلك لعدم استعمال عقولهم الحاذقة لان هذا الموضوع اشغل عقولهم اكثر من غيرهِ. ولكن لانهُ كان محتاطاً بظلامٍ لايستطيع العقل المجرد عن المساعدة من الله ان يكشفهُ.

وكم من الفرح كان يشمل اوليك الفلاسفة لو حصلوا على لمحةٍ من نور ذلك الوحي الذي يحتقرهُ الكافرون في ايامنا

ان عامة الكافرين بالوحي كانوا يسلمون قديمًا بوجود الاخرة والجزآء العتيد الا انهم كانوا يظهرون على انفسهم الايمان بان العقل كافٍ لاثبات هذا الاعتقاد. واما الذين خلفوهم فى هذه الايام فاما ان ينكروا ذلك واما ان يرتابوا بهِ. واذا تاملنا باستقامةٍ في كل ما اوجده العقل البشري من البراهين قديمًا وحديثًا لاثبات هذه القضية نلتزم ان نعترف باحتياجنا الى نورٍ ايضًا. ولا يستطيع احدٌ ان يحقق لنا تحقيقًا كافيًا عن وجودنا العتيد السرمدي الا الله وحدهُ لان ذلك متوقفٌ على ارادتهِ فقط. نعم انهُ قد يقدَّم براهين لاثبات ان النفس غير مايتةٍ طبعًا غير انها لا تبين الا ان اسباب موت الجسد لا تاثير لها في اعدام وجود النفس وعملها. وتلك البراهين المسماة بالبراهين الادبية لا تثبت الا انهُ ان كان الله يسوس مخلوقاتهِ في هذا العالم بحكم ادبي فلا بد من جزآء عادل فيما بعد. ولكننا نحتاج في هذا الامر الى تحقيقٍ اكثر من ذلك. نحتاج الى واحد ياتينا من ذلك العالم ويخبرنا بوجود الاخرة. نحتاج الى ان نسمع صوتًا من الله يشهد لنا ليس فقط بالاخرة بل بيوم الدينونة العادلة ايضًا. واذا تقرر ذلك فقد صار كل واحد يستطيع ان يحكم لنفسهِ هل هو محتاجٌ الى وحيٍ من ربهِ ام لا

ويثبت ايضاً هذا البرهان عن الاحتياج الى الوحي من ملاحظة حال الديانة والاداب بين الطوايف الوثنية. قد تواردت الاقوال ان احسن الطرق لمعرفة ما يستطيعهُ العقل من العمل هي النظر الى ما قد عمله في ما مضى من الزمان ولاسيما عند كونهِ على احسن حالةٍ من التهذيب والمعرفة. ففي العلوم الطبيعية قد ننتظر اكتشافاتٍ مستحدثة بواسطة استعمال العقل. وربما يُعرَف علم الآداب في زمان مستقبل احسن معرفة من الان. ولكن اذا كانت الشعوب التي هي في اعلى درجة من التمدن والعلم قد عجزت كالشعوب التي في ادنى حال من التوحش والجهل عن تصور اراءٍ صحيحة في اعظم قضايا اللاهوت والاداب وقد تورَّط الجميع في اشنع الضلالات وابعدها عن العقل وارتضت بانجس العوايد الوثنية واسمجها فما اوضح الامر انهم كانوا في غاية الاحتياج الى وحي الهي. ولعل غاية الرب في ترك الشعوب ان يسلكوا بحسب طرقهم فى تلك المدة الطويلة كانت اقناعنا بعجز عقولنا لكي نقبل منه تعالى هذه المنة العظيمة بكل شكرٍ قلبي عند ما يقدمها لنا الله

ولو استوفينا حق الكلام على هذا البرهان لاشحنَّا كتباً. ولكن بما ان غيرنا اتسع فيهِ فلنتركهُ ملاحظين فقط ان القبايح المنكرة التي قد تولدت من كل ديانةٍ وثنية لا توثر في عقولنا الا قليلاً لاننا نسمع اخبار هذه الامور من بُعدٍ فقط.

وقد نميل احيانًا الى الظن بانهُ قد بُولِغ فيها والحال انهُ لم يُخبَر بنصف الواقع ولو أُخبِر بكلهِ لكان ذلك منافيًا لكل لياقةٍ ولطفٍ. وانهُ لامرٌ مهولٌ ان ملايين كثيرة من اخوتنا كانوا منذ هذا الزمان الطويل تحت نير عبودية الخرافات وهي عبوديةٌ تؤثر في العقل وتسبب شقاوة الجنس البشري اكثر من كل ما عداها. ومن حيث ان الديانة الوثنية لم تزل باقيةً وشرورها لم تتناقص على مدى الزمان تسهل لنا مقابلة العالم المسيحي مع العالم الوثني. فارفع عينيك الى كل جهةٍ من العالم واخبرنا اي مكانٍ هو في اشدّ الظلام واي مكانٍ يتلألأُ فيهِ نور الحق. أَليس خط الحدود بين النور والظلام ظاهرًا. أَوليس في غاية الوضوح ان الكتاب المقدس بركة عظيمة لكل من يقتنيهِ ويقرأهُ. وهنا محلٌّ لمقابلة الطوايف المسيحية التي تبيح قرآءة الكتب المقدسة من غير مانع بتلك الطوايف التي تحصرها في لغاتٍ ميتة لكننا لا نتعرض لذلك. بل نقول ان من كان مطَّلعًا على ما حصل من اعمال المرسلين في هذه الايام ولا يعترف بان الانجيل هو اعظم الفوايد التي تُفاد بها الطوايف الوثنية فان عينهُ تكون مغشَّاةً بقشورٍ غليظة من هوى النفس والميل المنحرف. فينتج اذن اما ان خديعةً خبيثة وخرافةً مصطنعة بالدهاء قادرةٌ على اصلاح وتهذيب اوحش القبايل الوثنية واما ان الديانة المسيحية وحيٌ الهي وهي مصحوبة بقوةٍ من الله

لتكون فعّالةٌ في انارة الامم وارشادهم وخلاصهم. فليختر الكافر من الطرفين ايهما شاء. فلو ذهب جماعةٌ من الذين لا يعتقدون بالوحي الى افريقية او الى جزاير سندويج او الجزاير المتقاربة لكي يهدوا الوثنيين الى الحق فهل كان يحصل شيءٌ من ذلك الاصلاح الذي قد حصل من تبشير المرسلين المسيحيين. انهُ ربما ضحك القاري عند ما نفرض ان الكافر قد صار رسولاً ليهدي الامم الى طريق الحق ولكن نفس هذا الاشعار يبرهن جليًّا ان الكفر لا يصلح ان يكون واسطةً لاصلاح العالم. والحال ان الكافر لو كان مصيبًا في رايه لكان من اوفق الناس للرسالة في شان هدى عبدة الاوثان. ولكن الكافرين لا يعتمدون على مباديهم من هذه الجهة ولا غيرة لهم على بذرها في حقل هذا العالم ولا يرفضون ما يرفضهُ المسيحي من نعيم هذا العالم لتحصيل هذه الفايدة الحميدة

ولكن ما الداعي للذهاب الى بلاد بعيدة وثنية لاثبات لزوم الوحي مع وجود ما يكفي من البرهان امام عيوننا. فانهُ قد يمكننا باية مدينةٍ كانت من مدننا الكثيرة السكان ان نضع حدًّا ظاهرًا يفرق بين الذين هم تحت نور حق الانجيل وبين الذين يضعون انفسهم خارجًا عن دايرة الاشعّة الانجيلية. فلنقطع النظر عن نوعٍ اخر بين هذين الطرفين لا يُعَدُّ منهما ولنفرض ان ثُلث السكان البالغين يواظبون الذهاب الى

الكنيسة ويسمعون اخصّ حقايق الانجيل وان ثُلثًا آخر لا يحضرون صلوةً ابدًا وان حضروا فيكون ذلك نادرًا. فبين هذين النوعين يمكننا ان نضع مقابلة. وإنْ كان قد يستثنى البعض من الجانبين ولكن بالاجمال لا يبقى محلٌّ للشك في كون الديانة مفيدة ولازمة. لانه يبان واضحًا من اي هذين النوعين ياتي المذنبون الذين تمتلي منهم السجون ومن ايهما يتقدم صالح الجمهور. فلو فرضنا اولًا ان كل الذين لا يقرأون الكتاب المقدس ولا يحضرون المعابد ارتفعوا من بيننا او فرضنا ثانيًا ان الذين يواظبون الصلوة في بيت الله ينتقلون الى بلادٍ اخرى فعلى الفرض الاول كنا إنْ لم اكن سهوت في ذلك سهوًا عظيمًا نستغني عن اكثر وسايط المنع والحجز ونكتسب النفقات الجزيلة على قيام الدواوين والسجون وعلى الفرض الثاني لم تكن جميع اموال البلاد تكفي لاقامة السجون ولتقديم وسايط المعيشة للمذنبين. او بالحري كانت تصير مدننا العظمى كسادوم وعند ذلك يلحقها ما اصاب سادوم فتهلك ولا تقوم ايضًا

وان قال قايلٌ ما ذُكِر ليس بصحيحٍ على التمام لانهُ يفرض عدم وجود ديانةٍ وعدم امكان وجود ديانةٍ غير موحى بها. فحينئذٍ نسال المعترض ان يعرفنا ما هو نوع الديانة الذي يُنتظَر لو رُفِع الكتاب المقدس من بيننا. فعوضًا عن مياتٍ من الواعظين بالانجيل الذين يرفعون اصواتهم كل يوم احدٍ

ليحذروا الناس من خطر الهلاك ويرشدوهم الى طريق الحيوة لو امتلات تلك المنابر من الخطباء الكافرين فهل كان ذلك يأول الى قيام الآداب والى سعادة الجمهور . اننا جميعًا نعرف ان كثيرين من الخطاة قد تابوا واهتدوا بواسطة مواعظ الانجيل ولكن هل عرفت احدًا او سمعت عن احدٍ قد ارتدَّ عن ضلالهِ بواسطة استماع خطاباتٍ كفرية

لاريب انهُ قد يكون كثيرٌ من انواع الديانة بدون وحي ويشهد لذلك جميع العالم الوثني . وان بعض اناسٍ عالميين لم يفرقوا بين الديانات ولا ميزوا بين خادميها بل مزجوا الجميع سويةً . مع ان الديانة الحقيقية تختلف عن الاديان الكاذبة كاختلاف النور عن الظلمة . والمانع الوحيد لامتداد الاديان الكاذبة انما هو القيام بالديانة الحقيقية . نعم ان الكفر قد يمحو نوعًا من الخرافات ولكن بعد ذلك ينقلب الحال ويأتي نوع اخر من الترفض او الخرافات كطوفانٍ . لانهُ لابد للناس من ديانةٍ كما بيَّنَّا فيما تقدم فاذا نزِعَت الديانة الحقيقية الموافقة للعقل الهادية الى الخير يدخل حالاً عوضها اشد الديانات الكاذبة ترفُّضًا ومحالاً . وعند ما تنطفي نار الهياج تبقى انواعًا فظيعة من الخرافات . ان الديانات الوثنية كانت اولاً ممتزجة بشيء من الحق من تقليدٍ سابق . لانها جميعها كانت ناشية من فساد عبادة الانسان الساقط الاصلية كما راينا . فلو رُفِعَت

الكتب المقدسة لدخل عوضها اما زعازع الكفر مصحوبةً بالمعاصي الدنسة المخضبة الثياب بالدماء او تلك الخرافات المانعة كل عملٍ صالحٍ والمدنسة كل عاطفةٍ شريفة من عواطف القلب والمفسدة كل سعادةٍ في العيال

انهُ قد يستند احيانًا بناءٌ عظيم على بعض اعمدةٍ متينة لو نُزِعت من مكانها لسقط البناء خرابًا . وهكذا تتوقف سلامة الجمهور ونظامهُ وراحتهُ في الامور المدنية على امرين لم ياتيانا الا من الوحي . اولهما فرض الزيجة الطاهرة وثانيهما التزام اليمين التزامًا دينيًّا . فلو ارتفع هذان الامران لانهدم بناء السعادة البشرية من اساسه

ولكن البرهان الذي نريد ان نتوسع بهِ لايضاح لزوم الوحي هو انهُ بدون الوحي لا يمكننا اصلاً ان نعلم كيف يمكن الخاطي ان يحصل على غفران الخطية وخلاص النفس . فاننا لو سلَّمنا بان العقل يرشدنا بايضاحٍ كافٍ في جميع التزاماتنا الادبية وبان الانسان اذا تمم واجباتهِ لا يطلب منهُ اكثر من ذلك بل يحق لهُ ان يستأمن متكلاً على عدل الله وجودتهِ وبانهُ لا يحصل لهُ شرٌّ في هذه الطريق ولا يوخر عنهُ الجزاء الموافق وبان لجميع الناس معرفة ذلك لكان لنا سبيلٌ ان نقول ان كل ذلك لا يجدي نفعًا في امر حالة الانسان التي هو عليها . فان معرفة ديانةٍ تناسب حال انسانٍ بارٍّ شيء ومعرفة طريقةٍ

بها ينال الخاطي مغفرة خطاياهُ شيءٌ اخر. وقد يعرف الانسان انهُ مثلاً اذا خضع لشرايع بلاده يحامي عنهُ كل حاكمٍ عادل. الا انهُ اذا خالفها واستحق عقاباً عظيماً لا تنفعهُ تلك المعرفة شيئاً. والذي يحتاج الى معرفتهِ عند ذلك انما هو كيفية الحصول على المغفرة والخلاص من انتقام تلك الشريعة التي قد تعدَّى عليها. وفي كل حالٍ من ذلك يحتاج اشد الاحتياج الى تعريف من الحكم الاعلى ان لهُ ارادةً ان يعفو عنه بشرطٍ معيَّن. انهُ في جميع الاحكام لا يمكن ان الحاكم يعفو عن ذنب المجرم بكل سهولةٍ او ان يكون ذلك جزءًا من الشريعة لانهُ مغايرٌ لوضع السياسة الحكمية ومنافٍ لالزام الشريعة وسلطانها. واذا تقرر ذلك ياتي حالاً معرض هذا السوال العظيم. وهو هل ان الانسان خاطي وهل تعدَّى جميع الناس شريعة الله. واما الجواب فنعدل عن ذكره هنا ونتركه الى حكم ضمير كل انسان. لانهُ لا يوجد انسانٌ على الارض لا يشعر بانهُ قد خالف شريعة طبيعتهِ سواءٌ كان ذلك بتركهِ ما كان يجب عليهِ ام بارتكابهِ الخطية

فبعد التسليم بان جميع الناس خطاة نسال ماذا يعلمنا نور الطبيعة عن غفران الخطية. فمن جهة هذه القضية العظمى نبين ان العقل لا يخبرنا شيئاً. ولذلك لا تستطيع الديانة الطبيعية ولو عرفها الانسان حق المعرفة ان تاتينا بالفرج

المحتاجين نحن اليهِ . والبرهان الذي نعتمد عليهِ مختصر بسيط . فان العقل السليم يحكم بان الله عادل ويجازي كل احدٍ كاعمالهِ وبانهُ لايجوز مخالفة شريعتهِ بدون عقاب لانها صالحة ومستقيمة . ولا يمكن الكافر بالوحي ان يتصور اعتراضًا على ذلك بل لابد ان هذه الحقيقة تكون بيّنةً من نفسها عند كل معترفٍ بالله وبحكمهِ على خليقتهِ الناطقة . فاذن الامر واضحٌ انهُ من جهة نور العقل لايوجد شيء امام الخاطي الا ان يحتمل القصاص العادل لاجل ذنوبهِ . ثم لو فرضنا ان العقل يخبرنا بان الله يغفر الخطية للزم ان تكون احكامهُ متناقضة . لان الغفران هو عدم القصاص وقد راينا مما تقدم ان حكم العقل هو ان الله عادلٌ ويجازي كل انسان حسب ما يستحق . ولايخفى ان هذين الامرين لايمكن اجتماعهما معًا

وهنا يجب تحذير القاري من براهين فاسدة ووهمياتٍ غير مفيدة في امرٍ جوهري مثل هذا . فاننا لانعرف موضوعًا يستند الناس فيهِ على اقيسةٍ عقيمة وبراهين فاسدة كما في البحث عن مغفرة الخطايا . ولنذكر البعض من تلك البراهين الفاسدة . فنقول زعم كثيرون ان الله من شانهِ الجودة والرحمة حتى لايليق ان يعذب خلقهُ المايلين الى الخطية عذابًا اليمًا . فهذا الزعم مع انهُ يظهر عليهِ تقديم الشرف لله كما يرتاح بهِ ايضًا فكر الخاطي الا انهُ عند التحقيق يكون اهانةً لا شرفًا . لانهُ يستلزم ان ملك الكاينات يخرج عن عدلهِ شفقةً على مخلوقٍ عاصٍ وانهُ يختار تدنيس

شريعتهِ على قصاص الذنوب كما تستحق. فماذا يُظَنُّ لو قيل في قاضٍ من البشر ان جودتهُ ورحمتهُ تمنعانهِ عن الحكم بالقصاص الذي توجبهُ الشريعة. فان كان ديان جميع الارض لايعاقب جميع الخطايا كما تستحق على حسب المبدأ العام فعلى اي مبدا يعتمد. هل يعاقبها نصف ما تستحق. فان ذلك قد يكون عذابًا اليمًا. فتكون النتيجة ان جودة الله تمنعهُ دايمًا عن قصاص الخطية مهما كانت عظيمة. ان كثيرين في ايامنا هذه وهم لايُدعَون كافرين الا انهم اكثر ضررًا من اوليك لانهم يمزجون شيئًا من الحقايق الانجيلية بضلالاتهم يتمسكون بهذا المعتقد اشد التمسك ويعلّمون بهِ بكل غيرةٍ. ولكنه يستلزم ان الله عز وجل يعامل العاصي الخبيث كما يعامل العبد الودود المطيع على حدٍّ سوى. وفي معاملتهِ خلقهُ لايُظهِر غضبًا على الخطية اكثر مما يظهر على احسن الفضايل. فلو وُجِدَت جودةٌ مثل هذه لما كانت في الباري كمالاً ادبيًّا بل نقصًا مبينًا حاشا الله من ذلك. فان صفاتهِ لايشوبها ادنى نقصٍ ولا يوجد فيهِ جودةٌ تمنع استعمال العدل التام. فاذا اراد ان يخلص الخطاة من عاقبة خطاياهم فلا يكون ذلك بخروجهِ عن عدلهِ بل باستيفآيهِ اياهُ استيفآءً تامًّا. ولكن كيفية ذلك امرٌ لايعلم منه مجرد العقل شيئًا. وان قال الكافر ان جميع الصلاح الادبي لايقوم الا بالجودة ولذلك لايعاقب الله احدًا الا لخيرٍ اجيب انه في جميع الاحكام الارضية الجودة

الحقيقية تفضّل خير الجمهور على خير واحدٍ مذنب وخير الجمهور يطلب ان يُخوَّف ويُمنَع المجرمون بواسطة القصاص. واذ ذاك يلزم الاثبات اولاً انه في حكم الباري تعالى بعكس ذلك خير العالم لايطلب قصاص المجرم قبل ان نُستنتَج نتيجةٌ مثل هذه من جودة الله

ومن ثم يظهر ان الزعم الذي كان موضوع كلامنا ولئِن كان موافقًا للعقل المحب للخطية وكان ظاهرهُ مقبولاً لايحتمل الفحص. وعوضًا عن ان يأُول الى شرف الله يسلب منهُ كل ما هو ممدوحٌ في صفاته الادبية ولا يترك له صلاحًا الا جودةً لاتميّز بين خلقهِ ولا تلتفت الى صفاتهم الادبية. فمثل هذا الاله لايمكن ان يكون موضوع الاحترام والاعتبار عند عاقلٍ طاهر. فان الهًا ذا صلاحٍ غير متناهٍ قد يمكنهُ ان يعاقب الخطاة بحسب استحقاق ذنوبهم من دون تعرضٍ لجودته. واما اله قدوس ذو عدلٍ لايُحَدُّ فلابد ان يعاقبهم. أفلا يعدل ديان جميع الارض

وقد ذهب اخرون الى ان نور العقل يحكم بان قصاص خطايا الناس انما هو الشر الحاصل منها بحسب الشريعة الطبيعية ونظام العقل البشري وانهُ لاخوف من عقابٍ اخر اشد منه. ولكنهم لم يقدموا برهانًا لاثبات هذه القضية اذ لا برهان لها. لان من يعلم ما يحكم بهِ ديان الجميع من القصاص للخطاة لاجل اظهار عدلهِ واستيفاء حق شريعتهِ وتخويف الاخرين من

الخطاة. ثم اننا بحسب ما يمكننا من الملاحظة لا نرى الناس يتعذبون في هذه الحيوة بنسبة خطاياهم لان الاشرار كثيرًا ما ينجحون في اعمالهم وعند ما تقسو ضمايرهم وتصير عديمة الحس فقلمَّا يوبخون انفسهم عند ارتكاب اعظم المعاصي. فان الخطاة عند اول دخولهم في الخطية يعذَّبون بعذابٍ شديد من توبيخ الضمير واما المتمرغ في الاثام فيفقد الانزعاج المفرط ولذع الضمير لا يوثر فيهِ. ثم لو سلمنا بان جميع قصاص الخطية هو ما نتج عنها بحسب الطبيعة فمن يعلم بجميع النتايج الحاصلة منها ومتى يكون منتهاها. فان الذنوب لا تاتي دايمًا بأَمَرّ اثمارها حالاً ولكن نرى خطايا النَهِم والزاني والسارق في احيانٍ كثيرة تلحقهم بعواقبها الردية بعد ارتكابها بزمانٍ طويل. فخطايا الشبوبية كثيرًا ما ينتج عنها شيخوخة شقية. ولو نُظِر الى سيرة كثيرين اوصلتهم رذايلهم الى السجن او المارستان لوُجِد ان سبب شقاوتهم يتصل الى خطايا شبابهم الخطايا التي يستخفُّ كثيرون بارتكابها. ومن حيث ان تلك العواقب تتزايد حتى الموت فمن يستطيع ان يحقق للخاطي ان هذه الزيادة الفظيعة لا تدوم بعد الموت. وبما ان الكلام الان ليس مع الكافر بالله فلنا حقٌّ ان نتخذ خلود النفس كقضيةٍ مسلَّمة. فان كانت توجد النفس بعد موت الجسد أَفلا يبقى فيها ما اكتسبتهُ في هذا العالم من الصفات الادبية. أَلا يبقى البخيل بخيلاً والمتكبر متكبرًا والخبيث خبيثًا

عند ما يحلُّ هذا المسكن الترابي . أَلا يبقى ذلك الانسان رديًّا بعد الموت الذي قد بقي رديًّا الى حد موتهِ . أَلا ياخذ معهُ قوة ذاكرتهِ وضميرهُ وشهواتهِ الملتهبة . أيقدر الموت ان يصيّر الانسان الخبيث المذنب ملاكًا . فاذن هذا الراي قلما يعزّي الخاطي . لانهُ سوف يجد دودةً تخرج من فساده لاتموت ابدًا بل تنهش قلبهُ وتعذبهُ عذابًا لايطاق الى غير نهايةٍ . ولو سلمنا ان الضمير هو نار الاخرة وليس نارٌ غيرهُ فمن يعرف عظم الالم الابدي الذي بهِ الضمير يعذب الخاطي . ان الخوف والتبكيت والانزعاج الهايل التي احيانًا تحيط بمضجع الخاطي عند الموت هي اشاراتٌ مخيفة الى ما يُنتظَر لهُ في الاخرة . فلا يستطيع العقل ان يعرف عظم مقدار الشرور الناتجة عن الخطية او مدة دوامها . ولكن بحسب مقدار حكم العقل لانرى نهايةً للتزايد في الرذيلة والشقاوة

والان ناتي الى البحث في رايٍ اخر يتكل عليهِ كثيرًا الكافرون ومن يشاركهم في هذه الامور . وهو ان العقل يعلمنا بان العقاب الذي تستوجبهُ الخطية نفرُّ منه بواسطة توبةٍ صادقة في الزمان المقبول . وقد اتُّخِذ هذا المبدأ ركنًا عند جميع الكافرين بالوحي الذين يقرُّون بوجود الله . وبما ان كثيرين من الذين يريدون ان يُحسَبوا مسيحيين عقلاءَ يتخذونه ايضًا فقد اتسع اشتهارهُ بين الناس . وايضًا من حيث ان المغفرة والتوبة

مرتبطتان على وجهٍ اشد الارتباط بحسب تعليم الانجيل لايميز كثيرون بين الحقيقة المُوحَى بها وبين هذا التعليم المدَّعى به بانه من تعاليم العقل. ومن ثمَّ صار تمييز الحق من الضلال في هذه القضية امرًا عسرًا ومن يقصد ذلك يصادفه كثير من سوء الظن من قبل الكافرين وغيرهم. فنحرِّض القاري ان يميز بين تعليم المغفرة بشرط التوبة كما يوجد ذلك في الانجيل وبين الرايِ المذكور كما يوجد عند الكافرين. لان بينهما فرقًا عظيمًا كما ستعرف

ان الراي الذي نحن في صددهِ هو ان القصاص الذى تستحقهُ الخطية يبطل بمجرد التوبة. ولكن هذا الراي قبل ان يكون مبدا نافعًا في العمل يلزمه شيئان. الاول ان يعرف جميع الناس ماهية تلك التوبة التي بها تحق لنا المغفرة. والثاني ان يكون لكل خاطئٍ استطاعةٌ عليها. ولزوم هذين الشيئين بيّن من نفسهِ. وانما تلحق الراي المذكور صعوبة عظيمة من قبلهما. فنريد ان نسأل الذين يذهبون هذا المذهب عن التوبة التي يعلّم بها العقل هل هي قايمةٌ بمجرد الحزن على الخطية ام هي اكثر من ذلك ومتضمنة اصلاحًا كليًّا في السيرة ليس متصلاً بالاعمال الخارجية فقط بل بعواطف القلب المحركة لها ايضًا. وهل العقل يحدد مقدارًا ما من الحزن ويعيّن مدة دوامه. وهل التوبة تنفع الخاطي الذي يرجع الى طريقهِ الاول في ارتكاب المعاصي. وايضًا نسال عن التوبة الصادرة عن مجرد خوف العقاب هل تكون صحيحة

ولا فعن اي علةٍ يجب ان تصدر. ويجب ايضًا ان نعرف هل يمكن لمن شاخ في الخطية ان يتوب عن خطاياهُ حتى انهُ يبغضها ويتركها. فانه اذ يكون فكرهُ قد صار مملوًّا غلطًا وضميرهُ ميتًا وملكاتهُ محترقة فما الرجاء برجوعهِ وابتدآيهِ حيوةً جديدة. ومن اي طريقٍ نرتجي مثل هذا التغيير في شريرٍ خبيث او سكير فاحش. فان تغيير الزنجي لون جلدهِ اقرب من ان يتعلم الخير من اعتاد على الشر من زمانٍ طويل. ولا فايدة في ان يقال انهُ يستطيع التوبة ان شاء. وان لم يشأ فاللوم على نفسهِ. لان موضوع بحثنا الان هو انهُ هل يمكن العقل ان يعلمنا طريقًا للخلاص مناسبةً لحال الخطاة. فلا اعتبار لكون المانع في مشيَّة الخاطي او غيرها. لان مجرد وجود ما يمنع عن الغاية المقصودة دليلٌ على الاحتياج الى شي اخر. واللوم انما يقع على نفس الخاطي ان كان من قبل عدم التوبة او خطية اخرى. فهو ملومٌ على كل مخالفةٍ والا فلا تحسب مخالفتهُ خطية. وان كان المراد اثبات اللوم على الخاطي فذلك قد تمَّ بدون عرض المغفرة عليهِ بشرط التوبة. لانهُ لو اطاع الناس الله طاعةً كاملة لحصلوا على الحيوة والسعادة بدون توبة. ولا يتعرض مانعٌ لهذه الاطاعة سوى ما يتعرض ايضًا للتوبة الحقيقية. فيكون في المذهب المشار اليهِ خللٌ ظاهرٌ لانهُ لا يكشف عن واسطةٍ يقتاد الخاطي بها الى التوبة. لكن يعرض عليهِ المغفرة على شرط ان يعمل ما ينفر منه

قلبهُ كل النفور. والامر الواقع يوافق ما قد قلناهُ. فايُّ المتمسكين بالتعليم المذكور قد تاب عن خطيتهِ مع بقآيهِ على اعتقادهِ هذا. نعم انهُ يوجد منهم كثيرون قد تابوا وأُصلِحوا بواسطة الانجيل. ولكن لم يصر ذلك مرةً واحدة من تلقآء مبادي الكفر وتعاليمهِ. وان كان المبدأ لاينفع عملاً البتة فما فايدتهُ. ولماذا يتعظم حتى يُؤتَى بهِ برهانًا لعدم لزوم الوحي

ولكن من حيث ان المراد هنا بحث هذا الموضوع على وجه التدقيق والاستقامة. فلنسلّم لاجل المباحثة ان لجميع الناس معرفة بتلك التوبة اللازمة للغفران وان الجميع يقدرون عليها. فيكون المذهب ان جميع الخطاة يخلصون بواسطة التوبة من العقاب الذي يستحقونهُ لاجل خطاياهم وانهم عند الاحتياج الى التوبة يمكنهم استعمالها. فلو كان ذلك صحيحًا ومطابقًا للعقل لالتزمنا بالاقرار بعدم ضرورية الوحي. لانهُ لايمكن ان يوجد طريق للخلاص اسهل وابسط من هذا. ولكننا ننكر ان هذا التعليم هو من تعاليم الديانة الطبيعية او من التعاليم التي يُتوصَّل اليها بمجرد العقل وانما هو مستعارٌ على خللٍ من الانجيل وقد أُدخِل بين ارآء الكافرين مع انهُ منافٍ لنور الطبيعة ومخالفٌ لاعظم مباديها التي منها ان الله لكونهِ عادلاً يجازي كل احدٍ بحسب صفاتهِ الادبية واعمالهِ. انه من عادة الكافرين ان يستعيروا ارآءهم من الكتبات المقدس بدون نسبتها الى اصلها الحقيقي وربما بدون

ان يعلموا من اين اتوا بما قد اتوا بهِ. لان المولودين المتعلمين تحت نور الوحي اذا اتصل بهم الامر الى انكار الكتاب المقدس وجميع رسوم الديانة المسيحية الخارجية لايستطيعون ان يعتزلوا عن جميع المبادي الادبية العظيمة التي استفادوها من هذا المصدر على طرقٍ متنوعة. فان نور الوحي الالهي قد امتد واتسع في جميع البلاد المسيحية وقد ظهر فعلهُ في الشرايع والرسوم وطرق التعليم باسرها. حتى لايستطيع الانسان الان ان يهرب من تاثيرهِ اكثر مما يستطيع الهرب من نور الشمس. وكثيرٌ من الحقايق التي يدعي الكافر بكشفها بواسطة نور العقل انما هي مستعارة من الوحي الالهي. والا فكيف يعلَّل عن فضل مذاهب الكافرين العقلاء في ايامنا على مذاهب سقراط وافلاطون وشيشرون. فمثَلهم مثَل من اضاء مصباحًا من اشعة الشمس ثم ادعى بانهُ قد اوجد ذلك النور بذاتهِ او انهُ قد كان من السراج الحقير الذي بيدهِ

ثم نقول انهُ ان كان يمكن الانسان ان يعرف بالحقيقة بعد ان اخطا انهُ يمكنهُ الخلاص من عقاب خطاياه بواسطة توبةٍ يقدر عليها فيمكن معرفة ذلك قبل ان اخطا. فعند ذلك تكون الشريعة مكتوبةً على قلبهِ مقيدة بعقابٍ على المتعدي ويكون ايضًا لهُ معرفة جلية من العقل بانهُ مهما ارتكب من القبايح واستحق من العقاب فيمكنهُ الخلاص من ذلك العقاب ايَّ وقتٍ

شاء في حيوتهِ بواسطة مجرَّد التوبة . ولا يخفى ان ذلك يبطل شريعة الله من حيث هي قانون واجب ويسمح للانسان ان يفعل مهما اراد . واذ ذاك يمكنهُ ان يعزم متعمدًا ان يعصى خالقهُ حتى اخر نسمةٍ من حيوتهِ ثم يخمد نار نقمتهِ بواسطة التوبة . فانه وان كان العقاب صارمًا في نفسهِ لم يكن ذلك يعيق احدًا عن الطريق التي يميل اليها لانهُ يستطيع ان يتخلص منهُ ايَّ وقتٍ شاء . فهل يطلب اجسر العصاة رخصةً اعظم من هذه . فلو دخل هذا المبدا وحدهُ في حكم الله الادبي لابطل سلطانهُ تعالى بالكلية

فهذه النتايج الناتجة من التعليم المشار اليهِ ضروريةٌ وهي تبرهن ان ذلك التعليم لايمكن ان يكون مبدا عقليًّا ومن مبادي الديانة الطبيعية . وربما يظن البعض ان هذا الاعتراض يطلق ايضًا على تعليم الانجيل الذي يعد بالمغفرة التامة لكل تايبٍ حقيقي . وانما التعليم الانجيلي في التوبة مبني على اساسٍ غير اساس التعليم المذكور وهو في هذا الشان لايضادُّ عدل الله البتة . لان جميع الخطايا المغفورة بشرط التوبة قد احتمل قصاصها نايب الخاطي . وهنا يظهر الاختلاف العظيم بين الديانة المسيحية وبقية الاديان . فان الديانة المسيحية تحافظ على مجد الصفات الالهية ومطابقة بعضها مع بعضٍ . واما الديانات الاخر فتظلم او تبطّل صفةً لكي تقوم صفةٌ اخرى . والنتيجة ان الطريق الانجيلي للعفو عن الخاطي التايب لايتجّه الى ارخاء التزامنا

بالطاعة ولا الى تضعيف الحاسية بشر الخطية. واما المبدأ المذكور فنتيجته تبطيل شريعة حاكم الكاينات وسلطانه كما تقدم واباحة الطاعة والعصيان على حدٍّ سوى. فالاول يوافق عدل الله بالتمام اذ لا يصفح عن خطيَّةٍ لم يُكفَّر عنها واما الثاني فمضادٌّ بالاستقامة لأَحَقّ مطاليب العدل

ثم يُعترَض ايضًا على هذا المذهب اي مغفرة الخطايا بسبب مجرد التوبة على وجهٍ اخر وهو ان ذلك بخلاف ما يظهر من الاختبار ومن مشاهدة الامر الواقع. فقد راينا اصحاب هذا التعليم يحسبون قصاص الخطية انه ليس الا نتيجتها الضرورية حسب قواعد الطبيعة. فهل تتغير هذه القواعد حال ما يتوب الخاطي حتى نرى اللص التايب المسجون والسكير التايب المريض لا يزالان يحتملان عواقب الذنوب التي ارتكباها قبل توبتهما. لان التوبة لا تعيد الصحة المفقودة ولا الصيت الحسن ولا المال المبدَّد ولا الاصدقاء النافرين. فكيف يقولون حسب مباديهم ان عقاب الخطية يرتفع عند التوبة. وان قالوا مرادنا ان القصاص يُترَك في الاخرة يقال لهم من اين لكم معرفة ذلك. لان العقل لا يستطيع ان يحكم بما في المستقبل الا قياسًا على ما يحدث في هذه الحيوة. فالحكم المبني على ما يُشاهَد الان يضاد مذهب كون النتايج الشريرة الحاصلة من الخطية تنتهي عند الموت

ثم نقول ايضًا انهُ ان كان يُعفَى عن التايب فقط ويُعاقَب

الغير التايب بحسب استحقاق ذنوبهِ فيمكن ان يوجد الخاطي على حالٍ يليق بها قصاص الخطية بصرامةٍ حسب استحقاقها. واذ ذاك لايُتخَّذ من جودة الله ورحمتهِ برهانٌ ينافي قصاص الخطاة مطلقًا. ثم لماذا يُظَن ان عدم التوبة وحدهُ يرمي الخاطي في خطرٍ من غضب الله وان التايبين وحدهم يخلصون من قصاص الشريعة. انه لايجاب عن ذلك الا بان خطية عدم التوبة هي عظيمةٌ بهذا المقدار حتى انها تستحق هذا العقاب الشديد. او ان فضيلة التوبة هي عظيمةٌ بهذا المقدار حتي انها تكفّر عن اعظم الخطايا. ولكن لو فرضنا ان خطية عدم التوبة اعظم جرمًا من ساير الخطايا فلا يبان من ذلك انها وحدها تستوجب قصاصًا بل انها تستوجب قصاصًا اشد من غيرها. لانه ان وُجِد مبدا صريحٌ في الشريعة فهو هذا ان كل خطيةٍ يجب ان يُعاقَب عنها بحسب استحقاقها تمامًا. ولا يوجد سبب لابطال عقاب خطيةٍ صغيرة وقيام بعقاب كبيرة. ولاجل ذلك لايكون عظم خطية عدم التوبة سببًا لعقاب الغير التايبين وحدهم. ولا يصح ان يكون هذا الفرق العظيم في معاملة الخطاة متوقفًا على فضيلة التوبة اذ يعسر تبيين ما تقوم بهِ فضيلتها الفايقة. لانهُ لابد من ان تقوم فضيلتها اما بالطاعة واما بالالم المتضمنين ضرورةً في ممارسة التوبة. ولكنها لاتقوم بالطاعة اذ لوكانت الطاعة تامةً لماكانت اكثر مما تطلبهُ الشريعة الادبية في الزمن

الحاضر فلا تفي شيئاً عن ذنوبٍ قد ارتُكِبَت سالفاً. فانها لحقيقةٌ ظاهرةٌ من نفسها ان الطاعة حالاً لاتستطيع اصلاً ان تفي عمّا ارتُكِب من المعاصي في ما مضى لان تلك الطاعة انما هي ذات المطلوب الان فلا فضل فيها. واذ ذاك فكيف تكفّر الطاعة المتضمنة في التوبة مهما كانت عظيمةً عن جميع الخطايا السالفة حال كونها ناقصة عما يجب ان تكون فضلاً عن خلوها من كل ما يزيدها قيمةً على بقية انواع الطاعة. ولايمكن ان يُكفَّر عن الخطايا السالفة بآلام التوبة لان فضيلة هذه الآلام ناتجة عن الطاعة التي هي متعلقة بها والتي بدونها لاتكون حقيقتها ادبية. مالم يقل احدٌ ان هذه الآلام يجب ان تحسب مساويةً لقصاص الشريعة. ولكن ذلك لايقال بالحق لان ما يساوي قصاص الشريعة هو ما يساوي العذاب الذي تقضي بهِ الشريعة في مقداره ومدة دوامه. نعم ان كان يسمح لاحدٍ ذي مقام اعلى وقيمةٍ افضل بان يعذب مكان اخر فقد يُنقَّص العذاب بالنسبة الى الفرق بين شان النايب والمنوب عنهُ. مع ان قبول النيابة او رفضها يكون بحسب ارادة القاضي الاعلى. ولكن في ما نحن في صددهِ نرى المستحق العذاب هو المتالم باوجاع التوبة. فكيف يصح ان يكون حزن بعض ساعات او بعض ايام مساوياً لعقاب اقبح المعاصي. وناهيك عن شعور الخاطي التايب واقرارهِ بانهُ لم يزل مستحقَّ عذابٍ. لانهُ لم يتب احدٌ قط توبةً حقيقية وهو

يظن انهُ قد كفَّر بها عن ذنوبهِ تكفيرًا تامًّا. بل يعرف حق المعرفة ان هذه الاقذار لا تُغسَل ببعض دموع ندمية. ولا شيء يضاد المذهب المشار اليهِ اكثر من حاسيات التايب توبة حقيقية. فان كل تايبٍ مثل هذا يتحقق انهُ مستحقٌّ قصاصًا اعظم من الاحزان التي قد حدثت عليهِ بالتوبة

وانما للكافرين برهانٌ اخر ربما يكون احسن مما سواهُ لاثبات وجود تعلُّق موافق للعقل بين التوبة والغفران. وهو ان جميع الصالحين يقرُّون بان العفو عن المذنبين الينا عند التوبة هو فضيلة. ولا يستطيع المسيحيون ان ينكروا ان ذلك من الواجبات الادبية لان العهد الجديد يامر به بتكرارٍ وتدقيق على انهُ امرٌ جوهري. فهذا جميعهُ مسلَّمٌ بل فضلاً عن ذلك نقرُّ بانهُ واجبٌ على المسيحيين ان يسامحوا كل من يوذيهم تابوا ام لم يتوبوا. لانهُ يُطلَب منهم ان يحبوا اعداءهم ويحسنوا الى من يبغضهم ويباركوا من يلعنهم ويصلُّوا لاجل من يضطهدهم. ولكن ذلك مباين جدًّا لما نحن نتكلم فيهِ الان ومبني على مبادي اخر. فانهُ ليس من واجبات المسيحيين ان يعاقبوا من يخطي اليهم بما يستحقهُ ولو وقع عليهم الضرر. بل قد نهاهم الله عن الانتقام وعن مجازاة الخطاة بحسب خطاياهم. وذلك لا لان قصاص الخطاة بما يستحقونهُ مُغايرٌ للجودة الادبية بل لانهُ حقٌّ مختص بسلطان رب الكاينات وباريها. حتى ان الكتب المقدسة في

تلك الايات نفسها التي تنهي المخلوق عن الانتقام تنسبهُ بكلامٍ صريح لايقبل الشبهة الى الاله الضابط الكل بقولها لي النقمة انا اجازي يقول الرب . ولذلك ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقهِ لانك بذلك تجمع على راسهِ نارًا . فان كان التزام المسيحي بالعفو عمن اساءَ اليه يثبت شيئًا فهو يثبت ان الله لايعفو للتايب فقط بل لكل خاطي في اي درجة كان من العصيان والتمرد . ولكن هذه النتيجة مغايرةٌ لما نحن فيهِ ولايعتقد بها الكافرون بالوحي انفسهم

ثم انهُ يحتجُّ ايضًا بان التوبة متعلقة بالغفران طبعًا من عادة الحكام الارضيين بالعفو عن المجرمين . ولكن لامشابهة بين الامرين في الحقيقة لانهُ وان كان مناسبًا في الاحكام البشرية ان يوجد فيها من يستطيع العفو لم توجد دولةٌ قط تعفو عن كل الذنوب بشرط التوبة . ولا يتعلق استعمال الرحمة نحو بعض المذنبين بهذا المبدا اصلاً . فان سبب العفو هو اما كون اجراءِ حكم الشريعة في بعض الاحوال غير مطابق للعدل المنصف واما طلب حسن السياسة حين يكون عدد المذنبين كثيرًا ان يُعاقَب منهم من هو اكثر جرمًا فقط عبرةً للاخرين . واذ ذاك يبان ان ضعف الاحكام البشرية انما هو السبب لدفع عقاب الشريعة . وحاشا ان يدخل ذلك في الحكم الالهي . ثم ان في اجراءِ حكم الشرايع البشرية لايُسال ابدًا هل المذنب تايب

او غير تايبٍ حتى انهُ ولو تحققت توبتهُ لايُرفَع بذلك عنهُ العقاب البتة. فالشريعة تعاقب اللص والقاتل التايبين كما انها تعاقب الغير التايب. وان عمل فى بعض الاحوال الحكام القادرون على العفو بحسب هذا المبدا اي مسامحة المذنبين عند ما تظهر عليهم علامات التوبة فذلك لايبرهن الا ان اصحاب السلطان يسهون احيانًا. لان لاريب ان اجراء هذا المبدا في كل الاحوال يبطل كل شريعةٍ لامحالة. نعم يصح ذلك لو كانت غاية القصاص هي خير المجرم. ولكن طالما كان خير الجمهور هو الغاية العظمى في القصاص لايصح عرض الغفران على الذين يتوبون حتى ولو اصلحوا سيرتهم

فقد ظهر مما تقدم ان التعليم بعلاقةٍ بين التوبة والغفران في حكم الله الادبي لم يصدر من نور الطبيعة بل هو من الانجيل. ومن ثمَّ ان كان في ذلك سبيل للعفو يكون بواسطة كفارة المسيح لا بواسطة فضيلة التوبة او مكنتها في رفع جرم الخطية. وان صح ما قيل فنكون في اشد الاحتياج الى وحي الهي يعلمنا بانهُ تعالى قد شاء ان يقبل التايب اليهِ ويهدينا الى شروط الحصول على ذلك. ومن ثمَّ نتعلم معرفة حال جميع جنسنا الشقية والمنة التي لله علينا لاجل الانجيل. اذ جعلنا مديونين لرحمته المجانية لاجل الكفارة العظيمة بموت المسيح بدلًا عن العالم التي بها يعفو الله عن الخطاة التايبين

الفصل الخامس

في ان اعلان الوحي من الله ليس امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافق للعقل. ولذلك لايكون ظهور فعلٍ الهي بالمعجزات لاثبات الوحي امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافقٍ للعقل

ان كل من يومن بوجود الله لاينكر امكان اعلان وحي من الله. ولا يُعتقَد ايضًا بان الوحي من حيث هو وحيٌ مضاد لصفات الله الادبية. لان افادة خليقة الله العاقلين زيادة معرفةٍ ليس بمغايرٍ لحكمتهِ تعالي او لجودته او لقداستهِ. وغاية الوحي الوحيدة انما هي زيادة الانسان في الحكمة والقداسة والسعادة. فماذا يوافق ما نعرفه من صفات الله اكثر من ذلك

ثم ان امكان الانسان ان يستفيد من الوحي حقيقةٌ ظاهرة لاحتياج الى اثباتها. لان مهما ظن البعض في كفاية الديانة الطبيعية عند ما تُفهَم جيدًا ويُعمَل بموجبها فالجميع يلزمهم الاقرار بان اكثر الناس في الواقع لم يكن لهم اطلاعٌ كافٍ في امر الدين. وذلك لما ذكرنا في الفصل السابق ان تاريخ العالم في كل عصرٍ ودهرٍ يثبت الجهل لاكثر الجنس البشري حتى في تلك الامور

نفسها التي اصحاب الديانة الطبيعية يقرُّون انها من اهمّ الامور الدينية واعظمها

ثم انهُ لايبعد عن العقل ان الله لما خلق ابوينا الاولين اعطاهما من المعرفة ماكان لازمًا ليس لراحتهما فقط بل لحفظهما ايضًا . وكذلك اذ كانا بدون خبرةٍ ولم يكن على الارض من يعلمها شيئًا يقرب الى الظنّ ان الخالق الجوّاد اعلن لهما ماكان لازمًا من المعرفة لقضاء حوايج الحيوة . واما راي البعض ان الانسان كان اولاً حيوانًا اصمّ غير ناطق يفرق قليلاً عن الوحوش البرية ثم استنبط النطق والصناعات بدون مساعدةٍ او وحي من الله فقد رددنا عليهِ واظهرنا فسادهُ

ثم ان قبل الانسان من الله في البداية شيئًا من المعرفة اللازمة لحالتهِ فما ذلك الا وحيٌ . وان احتاج بعد ذلك الى معرفةٍ اكثر في امرٍ متعلق بسعادتهِ فما المانع من اعلان تلك المعرفة لهُ ايضًا من قِبَل الخالق الجواد الذي لايهمل خليقتهُ . ووقوع هذا الاحتياج الكافرون بالوحي انفسهم لاينكرونه . لانهم يعرفون ان عموم الناس سقطوا زمانًا في عبادة الوثن وفقدوا معرفة الاله الحقيقي فاخذوا في عبادة انوار السماء والوحوش ونحوها مما لايعقل واستنبطوا طقوسًا باطلة غير موافقة للعقل بل فاحشة ونجسة . ثم انتقلت هذه العبادة من جيلٍ الى جيل وغاص البنون في الجهل اكثر من الاباء .

وكونه من الممكن ان حاكم البرية العادل يترك الناس في التمسك بما استنبطوه واحتمال عواقب جهلهم هو امر لاننكره. ولكن يا ترى الا يوافق حكمتهُ وجودته ان يستعمل وسايط غير اعتيادية لانتشالهم من هذه الحالة الدنية الشقية. أولا يسلّم كل عاقلٍ من المقرّين بوجود الله بان ايجاد مثل هذه الوسايط لترجيعهم الى الديانة الصحيحة هو امرٌ مشتهىً. فان كان سقوط الانسان من رضى خالقهِ يحوج الى وحي اخر أفلا يكون ايضًا اعلان المعرفة المحتاج اليها جودًا عظيمًا. لماذا يُظَن خروج الله عن طريق اعمالهِ الاعتيادية لاتمام غاياتٍ جليلة وثمينة امرًا لايوافق العقل. واي شي في قوة الطبيعة محرَّم بهذا المقدار حتى انهُ لايجوز ان يتغير مرةً واحدة لاجل اي غرضٍ كان. ان السبب الموجب لدوام الشرايع الطبيعية على حالٍ واحدة انما هو كون ذلك لخير الانسان. فاذا كان خيرهُ يطلب تغييرًا في النظام الواقع فماذا يجعل ذلك غير موافقٍ للعقل. ان خالق البرية في حكمهِ على العالم لم يقيد نفسهُ باتباع نظامٍ غير متغيرٍ. وربما ياتي وقتٌ بهِ يرى مناسبًا ان يغير النظام الحاضر باسرهِ وكما اعطاهُ بدايةً ممكن ان يجعل لهُ نهايةً. نعم ان الدوام على حالٍ واحدة مناسب لكي يعلم الناس ماذا يجب ان ينتظروهُ ولكي يثقوا باستعمال الوسايط لتحصيل حوايجهم. ولكن التغيير احيانًا عن هذه الحال الدايمة لايتعرض اصلاً للخير الناتج منها. وهذه الحقيقة

ظاهرةٌ حتى انها كانت تستغني عن هذا الشرح الطويل لولم يكن الكافرون قد القوا بسفسطتهم غشاوةً مظلمةً عليها حتى صار البعض يحسبون تغيير شرايع الطبيعة امارة السوءِ والجهل وعدم الثبات بخلاف الحق الذي نحن قاصدون اظهارهُ الان. وهو ليس اثبات لزوم الوحي بل اثبات كون الوحي ليس بمضادٍ لمقتضى العقل وايضًا انهُ امرٌ مُشتهًى للانسان جدًّا وموافق لصفات الله الكاملة وللاصول التي بها يسوس الله العالم

ثم اذا فرضنا ان الله قصد اعلان ارادتهِ للانسان فكيف يتم ذلك على احسن منوال. لاشك انهُ يتم على احدى طريقين. اما بالهام كل انسان بما يحتاج اليه من المعرفة واما بالهام بعض الاشخاص مع الامر بان يعلموا الغير ما أُنزِل عليهم. فربما كان الوجه الاول اكثر تاثيرًا واما الثاني فهو اكثر موافقةً لباقي اعمال الباري تعالى. نعم قد كان يمكن ان الله يهب الانسان عقلاً تامًّا عند ما خلقهُ اولاً ولا يتركهُ محتاجًا الى تعليمٍ وبالنتيجة لايدعهُ معرضًا للغلط. ولكن لم يفعل ذلك ولو فعله لم يكن من باب الوحي الذي نحن في صدده. فقد قضى الله بان العقل لايبلغ الى ما يبلغ اليهِ الارويدًا رويدًا بعد تهذيبٍ طويل. واذا تُرِك لايبلغ اصلاً الى درجةٍ عالية. واما الوحي فلا نقدر ان نحكم حكمًا قاطعًا على الوجه الاوفق لانزاله ولكن نتيقن ان الله اذا اراد ان ينزل وحيًا للانسان كان يثبتهُ ببيناتٍ يعرف منها كل

طالبٍ للخلاص انهُ منهُ تعالى والا لما افاد شيئًا. فما هي البينة الكافية لكون الوحي منه تعالى. انه لابد ان تكون شيئًا لايمكن تزويرهُ بل يظهر بهِ الله نفسهُ. ولا يتم ذلك الا باستعمال قوتهِ الالهية او باظهار معرفتهِ الفايقة اي بالمعجزات او بالنبوات التي هي نوع من المعجزات او بهما جميعًا. فاذن وقوع المعجزات ليس بابعد من انزال الوحي. واجتماع هذين الامرين موافقٌ للعقل واذا وجدنا الواحد فلا يبعد وجود الاخر

لاينكر انه لابد في وحي من الله من وجود بيناتٍ في نفس مضمون الوحي لكونهِ منهُ تعالى. وهذه البينات تسمى البينات الداخلية. وانما ذلك لايشعر به حالاً الواقف عليه بل يحتاج الى اطّلاعٍ كافٍ. والحال انه عند نزول الوحي اولاً يحتاج الى بينةٍ ظاهرة للحواس ومفهومةٍ لجميع العقول مثل المعجزات. وايضًا ان البينة الداخلية لكي تلحظ وتفهم تحتاج الى حالةٍ من الحواس الادبية في مَن يقف عليه مناسبة لقبول تلك البينة وبدونها لاتظهر ولا تقنع احدًا. والبينة الخارجية ليس فقط يفهمها كل عاقلٍ بل هي مناسبة لاقناع كل انسانٍ سواءٌ كان شريرًا ام صالحًا

واذ ذاك تكون المعجزات اعظم برهانٍ لاثبات الوحي وهي ختمهُ الحقيقي اذ هي شهادة الله لهُ. لاننا لانستطيع ان نتصور شيئًا يشير الى قدرتهِ وحضورهِ كتوقيف الشرايع الطبيعية وهو شي لايستطيع على عملهِ اخر. ولهذا عند ما يدعي احدٌ بنزول

وحي عليهِ منهُ تعالى ويصحب كلامهُ بمعجزات من القدرة الالهية
الفايقة يتحقق الجميع ان الله معهُ وانهُ معلم مرسل من الله . والا
لما استطاع على عمل المعجزة مالم يرسل الله يمينهُ
بالمعجزات لاثبات تعليم كاذب .
نعوذ بالله من هذا
الكفر الشنيع

الفصل السادس

في امكان اثبات وقوع المعجزات بواسطة الشهادة

المعجزة حادث محسوس يقع مخالفًا لمجرى شرايع الطبيعة المعهودة. وهي من فعل الله مصحوبةً بتعريفٍ سابق ان صنيعها بواسطة قدرتهِ لتكون بينةً لتعليمٍ او لسلطان انسانٍ مثبتةً بانها منهُ تعالى. والطبيعة مجموع خلايق تفعل بعضها في بعضٍ بحسب قواعد معلومة قد شاءت الحكمة الغير المتناهية ان تجري بها عملها. وقد سمى الفلاسفة هذه القواعد شرايع الطبيعة. وفي الكتب المقدسة يُعبَّر عنها برسوم السمآء والارض. وما يحدث بموجب هذه الشرايع موافقًا لنظام الامور الاعتيادي يسمى حادثًا طبيعيًّا. واما توقيف هذه الشرايع او حجزها او الخروج عنها ظاهرًا مصحوبًا بتعريف سابق بان ذلك موافق لارادتهِ تعالى ومصنوعٌ بقدرتهِ فهو معجزة. فابراز الحبوب مثلاً بطريقة النبت انما هو بحسب الشرايع الطبيعية ولكن لو وقعت من السمآء مثل المطر لكان ذلك معجزة. وكذلك من شرايع الطبيعة ان الميت لا يرجع الى الحيوة فلو رجع لكان ذلك معجزةً. وعلى ذلك يجب الاحتراز في التمييز بين المعجزة وبين الباهر في العظمة او النادر

وقوعهُ. نعم ان المعجزة لابد ان تكون نادرة الوقوع ولكن قد تحدث وقايع نادرة الوقوع وباهرة ولا تكون معجزاتٍ. فظهور نجمٍ ذي ذنبٍ مثلاً نادرٌ وكذلك زعازع الرياح العاصفة. ولكن لاتوجد في هذه ولا في تلك مخالفةٌ لشريعةٍ من الشرايع الطبيعية. ولا يخفى اننا لانعلم بكل ما يمكن حدوثهُ حسب تلك الشرايع ولكن حدوث حادث يقاس على قانونٍ مهما كان نادرًا وكيفيته غير معروفة شيءٌ ومخالفة القانون ظاهرةً شي اخر. فبواسطة هذه المخالفة لما نعلم انهُ شريعة طبيعية نميز المعجزة عن الحوادث الطبيعية. وهذه الشرايع نتعلمها من اختبار متّسع ومطّرد بهذا المقدار حتى يحصل منهُ يقينٌ بثبات نظامها كاليقين الحاصل من شهادة حواسنا. ونتصرف بموجب هذا اليقين في حوايجنا اليومية وتُبنَى عليهِ جميع استنباطات الصنايع واكتشافات العلوم الطبيعية. ويلزم ايضًا بالضرورة للمعجزة ان تُصحَب باعلامٍ سابق بانها تُعمَل بحسب ارادة الله وبواسطة قدرتهِ لاثبات تعليمٍ او للشهادة على سلطان احدٍ بانه مرسل منهُ تعالى. وهذا الاعلام لازمٌ لكي لايلوح عليها انها حسب مجرى العادة. ويجب ايضًا ان تكون فوق حساب البشر وقدرتهم لكي لايظن انها نتيجة نظرٍ سابق او علمٍ كالكسوف والخسوف ولا انها من استنباط الحذاقة او الفراسة البشرية كاعمال اللاعبين الماكرين

ولا يُلتفَت الى ما يقال كثيرًا ان المعجزة فايقة ادراكنا وانها لذلك مضادة للعقل. فان امكان وقوع المعجزات بحسبما وصفنا ليس بمضاد للعقل ولذلك يحتمل تثبيته بالبرهان العقلي. ومع انهُ لا يمكننا ان نشرح بالتدقيق عن كيفية عملها لكونها صادرة من فاعلٍ غير منظور يفوقنا في الحكمة والقدرة لا يجب ان ننكر وقوعها اذا شهدت بهِ حواسنا. فان كل ما نراهُ انما هو على نوعٍ يفوق ادراكنا. كما اذا غرسنا غصنًا في الارض فاننا نراه بعد سنين قليلة قد صار شجرة ولكننا لا نعلم طريقة اخذهِ الغذآء من الارض ولا كيفية نموهِ. واذا نظرنا حولنا نرى الغاب احيانًا يهتز بالعواصف واخرى يلاعبهُ النسيم وتارةً نراهُ مورقًا وتارةً عاريًا. ونعلم ان هذه الاحوال تابعة لاختلاف الفصول والفلاسفة قد اكتشفوا بعض عللها القريبة. ولكن لا يعلم احدٌ منهم باي طريقةٍ تجري هذه العلل حتى تُحدِث هذه الحركات الطبيعية. وعند ما تقوم العاصفة فلماذا لا تدوم وعند سكون الريح ماذا يحرك العاصفة لا علم لنا بذلك. فاننا بعد اعمق ابحاثنا في الاسباب الاولى نلتزم بان نكتفي بنسبة الجميع الى قدرتهِ تعالى. ولكن مع اننا لا ندرك ابسط هذه الامور لا تؤثر فينا لكثرة الالفة عليها ولانها تجري مجرًى اعتياديًّا ونراها كل يومٍ. والحال انه لو كانت مخالفةً لمجرى الطبيعة المالوف مع كون فهمها ليس باعسر من فهم ما يجري بحسب المالوف من الطبيعة لاندهشنا منها

ونسبناها حالاً الى فعل الله . مثلاً عند ما نرى صبيًّا يصير رجلاً ثم عند خروج الروح من البدن يتحول الى الفساد لانعجب من ذلك لاننا نراهُ كل يومٍ . ولكن لو راينا رجلاً انتقل من المرض الى الصحة بواسطة كلمة او ميتًا رجع الى الحيوة بمجرد قول قايلٍ لسمَّينا ذلك الامر الغريب معجزةً لخروجهِ عن طريق العادة . مع ان لاهذا ولاذاك في حيّز ادراكنا وكلاهما من الله لانهُ ليس اخر يستطيع فعلهما

فهذه حقيقة البينة الناتجة عن المعجزات . وعند ما يُشهَد بها شهادةً كافية لاوجه لنا لانكارها لمجرد كونها قد صُنِعَت منذ دهورٍ عديدة اكثر من انكارنا حوادث العناية الالهية المعتادة التي حدثت قبل زماننا لان هذه الحوادث نفسها ربما لاتحدث ايضًا الان . فمجرى الطبيعة الاعتيادي يثبت وجود الله وعنايتهُ واما هذه الاعمال الغير الاعتيادية فتثبت رسولية صانعها من قبلهِ تعالى وصحة تعليمه

ثم انهُ قبل ان نحكم على حادثةٍ بانها معجزة حقيقية يجب ان نعرف ظروفها مع شيءٍ كافٍ من احكام الطبيعة الاعتيادية . لاننا لانستطيع الحكم على ما يتعلق بامورٍ طبيعية مجهولة هل هو حسب الطبيعة ام مخالفٌ لها . واذ ذاك لايتعلق تصديق المعجزات بجهالتنا كما قال البعض . بل هو يطلب علماً سابقًا بطور الطبيعة لايصح الحكم عليها بدونهِ وبهِ تظهر صحة وقوعها

ظهورًا لا يقبل الريب. مثلاً لو شفى طبيبٌ اعمى حالما طلى عينيهِ باستحضار كيماوي لم نرَهُ قبلاً ولا علم لنا البتة بماهيتهِ وخاصياتهِ لكان الشفاءُ عندنا معجبًا. غير اننا لا نستطيع الحكم بانه معجزة لانهُ قد يكون من تاثير العلاج بحسب الطبيعة. ولكن لو شفاهُ بمجرد امرهِ لهُ ان يبصر او بطلي عينيهِ بتفلهِ لقلنا ان ذلك معجزةٌ عن يقين لعلمنا الاكيد بانهُ ليس للصوت البشري ولا للتفل البشري قوة مثل هذه بحسب مجرى الطبيعة في امراض العين. وكذلك لو بلغ امر مريض الى ان اشرف على الموت فحضر طبيبٌ وشفي على يدهِ بعد العلاج لم يُحسَب ذلك معجزةً بخلاف ما لو اخذ الطبيب بيدهِ فاقامهُ صحيحًا بدون واسطة العلاج

واذ كانت المعجزات حوادث مخالفة لمجرى الطبيعة المعهود فهي بالضرورة لا تصنع لاجل امرٍ يسير. لانهُ اذ كانت الشرايع التي بحسبها تتصرف المخلوقات ناتجة عن حقيقة هذه المخلوقات وتعلُّق بعضها ببعض فلا تتغير من تلقاءِ ذواتها. واذ كان الله يحكم على العالم بموجبها وهو الذي وضعها فهو وحدهُ يستطيع ابطالها. ولا يغيرها الا الله او رسولٌ منه

ثم المعجزة انما تكون برهانًا لسلطان فاعلها او لصحة تعليمه عند ما يُقصَد بها اثبات ذلك قصدًا ظاهرًا. فان المعجزة انما هي شهادة الله وبما انهُ لا يمكنهُ تعالى تقديم شهادةٍ لغير الحق ولا يجوز لنا تصوُّر ذلك البتة فعند ما تُصنَع معجزة حقيقية لاثبات

امرٍ نعلم ان ذلك الامر حقٌّ لان الله قد شهد لهُ . فاذ كانت معجزات موسى والمسيح قد صُنِعَت لاثبات كون رسوليتهما وتعاليمهما من الله نوقن بانها كانت من الله بالحقيقة

ولكنه قد اعتُرِض على هذا القول اولاً بان المومنين بالكتاب المقدس يحكمون بالدور الملتوي على انهم يثبتون التعليم بالمعجزة والمعجزة بالتعليم . ثانيًا بان الكتاب المقدس نفسهُ يشهد بعمل المعجزات لاثبات الكذب

فعلى الاعتراض الاول نقول اننا لو زعمنا عن جميع تعاليم الديانة انه لايمكن اثبات كونها من الله الا بالمعجزة ثم اتخذنا تلك التعاليم برهانًا لكون المعجزة من الله لكان الاعتراض صحيحًا . ولكنه قد غلط المعترض غلطاً عظيمًا بانه لم يميز بين التعاليم التى نثبتها بالمعجزات والتعاليم التي بها نمتحن المعجزات . والحال ان بينهما فرقًا عظيمًا . فان تعاليم الديانة الطبيعية العظمى تشهد لها اعمال الطبيعة ذاتها ولاتحتاج الى شهادة المعجزات . ولم يصنع الله معجزاتٍ مثلاً لاثبات الفرق بين الحرام والحلال فلو اراد انسانٌ ان يثبت وجوب العدل والعفة على البشر وجُرم القتل والزنآء لما استعان بمعجزاتٍ . وقد كانت هذه الواجبات ونظيرها مما يحتم بهِ الانجيل واجباتٍ قبل مجيء السيد المسيح وكنا قد حصلنا على معرفتها بدون مساعدة المعجزات او الوحي . فاننا بمثل هذه التعاليم نمتحن المعجزات ولكن التعاليم التي تثبتها المعجزات

هي تعاليم النصرانية الموحى بها حديثًا التي لم تكن معروفةً ولا يمكن ان يتعلمها العقل البشري من اعمال الطبيعة فقط. ومن هذه التعاليم الفداء والخلاص بالمسيح وتجديد القلب وتطهيرهُ بروح الله. فلا نأتي بهذه التعاليم لاثبات صحة المعجزات ومصدرها الالهي. فكيف يتهمنا الخصم باثبات التعاليم بالمعجزات ثم المعجزات بالتعاليم

اما الاعتراض الثاني ان الكتب المقدسة نفسها تقول انه قد صُنِع بعض معجزات لاثبات الكذب كالتي صنعتها السحرة بمصر وساحرة عين دور والشيطان الذي جرَّب المسيح فنقول عليه اننا لو سلمنا بان سحرة مصر عملوا معجزاتٍ فانما كان ذلك باذن الله ليكون نجاح امرهِ اخيرًا على يد موسى اعظم في اذهان الجمهور واعجب لاعين البشر. ونرى ان ذلك قد تمَّ بالفعل حينما السحرة صمتوا والتزموا ان يعترفوا بان اعمال موسى انما كانت اعمال اصبع الله. ولكن الحق انهم لم يعملوا شيئًا من المعجزات لان جميع ما عملوهُ بحسب قول موسى قد كان بسحرهم. والجميع يعلمون الان انهُ ولئن كان الضعفاء العقول والجهلاء ينغشُّون فبالسحر لا تُعمَل معجزاتٌ

واما ساحرة عين دور فلم تعمل ولم تنتظر معجزةً. وهذا ظاهرٌ من اندهاشها وخوفها عند ظهور صموئيل. فان شاول اذ كان منتظرًا معجزةً نظر الى صموئيل بدون تحيُّرٍ واما الساحرة

فاذ لم تنتظر شيئاً تحيرت وخافت. فلا يبان من خبر الكتاب ان هذه المراة كان لها قدرةٌ على احضار صموئيل الذي اراد شاول مشورته. لكن قبل ان استعدت لتمكر بشاول بسحرها ظهر صموئيل مرسلاً من الله وحكم على شاول بالموت فتحيرت المراة وانذهلت. ولا ريب ان صموئيل كان مرسلاً من الله اذ كان ما بلَّغهُ لشاول متعلقًا بامرٍ مستقبل وذلك مختصٌّ بالله

واما امر الشيطان الذي قال الانجيليون انهُ اصعد يسوع المسيح الى جبلٍ عالٍ جدًّا واراهُ جميع ممالك العالم ومجدها بلحظةٍ من الزمان فقد سماهُ احد المستهزئين بالكتب المقدسة اعجب المعجزات. ولكنه ليس بمعجزةٍ اصلاً اذ لم يُقَل ان ذلك لم يكن من القدرة الطبيعية او انهُ كان بدون رضى المسيح واختيارهِ. فان الكلمة المترجمة بالعالم كثيرًا ما تعني في اليونانية بلادًا او اقليمًا والمعنى انما هو ان الشيطان اراه يسوع المسيح ممالك اليهودية وعلى ذلك لايكون شي من المعجزة

فينتج مما سبق ان غاية المعجزات الحقيقية انما هي الدلالة الصريحة على امرٍ انه من الله. والكتب المقدسة نفسها تشير الى ان هذه هي غاية المعجزة اذ قد احتج بها موسى والانبياء والمسيح ورسلهُ شهادةً على ان رسوليتهم منهُ تعالى. ومن ثمَّ نستنتج ان فاعل المعجزة هو رسولٌ من الله

ثم ان المعجزات على الاطلاق وقايع في الخارج وهي تحتمل

البرهان بالبينات الصادقة كغيرها من الحوادث المحسوسة . فالذين شاهدوا معجزات موسى ويسوع المسيح مثلاً كانت مشاهدتهم برهانًا كافيًا لهم على نزول الوحي على موسى والسيد المسيح . وان قيل يجب ان يكون الشهود مطّلعين على نظام الطبيعة لكي يمكنهم الحكم بان الامر الواقع مخالفٌ لهُ فلا ريب ان الامر كان كذلك من جهة مَن شاهد المعجزات المذكورة في الكتب المقدسة . لان كل ذي فهم اعتيادي لايمكنهُ الغلط في معرفة انهُ عند ما شقَّ موسى البحر الاحمر ويشوع نهر الاردن ومرَّ بنو اسرائيل فيهما والماء متعرمٌ على الجانبين كان ذلك مخالفًا لنظام الطبيعة . وكذلك شفاء الامراض واعطاء الاعمى البصر والاصمّ السمع والاخرس النطق ولاسيما احياء الجثة المنتنة بمجرد الامر من غير استعمال واسطة من الوسايط

واما الذين لم يشاهدوا المعجزات باعينهم فتحتمل عندهم ايضًا البرهان بالشهادة كغيرها من الحوادث . فبعد ان تحققنا كفاية الشهود بمعرفة الواقع لم يبقَ علينا الا النظر في صدق اخبارهم . ومعرفة ذلك انما هي بحسب المبادي التي يتوقف عليها تصديق الشهادة على وجه العموم . وبما ان اصحاب الكفر قد استندوا على هذا الباب لانكار حقيقة المعجزات المذكورة في الكتب المقدسة راينا ان نضع شيئًا من الوسايط للحصول على معرفة قيمة الشهادة البشرية

فلاجل معرفة قيمة شهادةٍ قد وُضِعَت هاتان القاعدتان البسيطتان . الاولى ان الشهادة يحق لها التصديق بحسبما يمتلك الشاهد فرصةً لتحقيق ما يشهد بهِ ويكون خاليًا من غرضٍ يميلهُ الى ان يغشَّ الاخرين . فان كان المخبر على احسن حالٍ للوقوف على صحة الامر ولم يظهر عليهِ الغرض للمكر بنا فعلينا تصديق خبرهِ . والا فنتاخر عن التصديق بحسب ما يداخلنا من الريب في استيفآيهِ هذه الشروط . والثانية ان برهان الشهادة يقوى كلما كثر عدد الشهود في قضيةٍ واحدة وكانوا ممن يُوثَق بشهادتهم . وان برهان الشهادة يضعف كلما كثر عدد الذين تسلسل الينا ذلك الخبر بواسطتهم . ويقال للنوع الاول شهادة مستقلَّة وللثاني شهادة منقولة . وايضًا مهما كان من النقص فى فردٍ من افراد الشهود المستقلّين بانفسهم فشهادة الاخرين تجبرهُ . واما الشهود الناقلين فالنقص في شهادتهم يزيد بالنسبة الى كثرة عدد الذين تسلسل الينا الخبر بواسطتهم

ثم العلامة التي بها تُعرَف صحة خبرٍ اخبر بهِ شهودٌ مستقلُّون بانفسهم يوثق بشهادتهم هي اتفاقهم في الامور الكلية واختلافهم في الامور الجزئية او اقلهُ تخبيرهم بها على طرقٍ متنوعة . وسبب ذلك انهم يلتفتون سويةً الى الامور الكبرى فتوثر في كل فردٍ منهم على حدٍّ سوى واما الامور الجزئية فلا يلتفت اليها جميع افرادهم التفاتًا واحدًا ولهذا تضطرب اخبارهم فيها . واما اذا اتفق

شهودٌ في جميع قضايا خبرٍ ما كلية كانت ام جزئية وفي ترتيب الخبر وطريق التعبير عنهُ فذلك دليلٌ على اتفاقهم السابق في الاخبار بذلك الخبر عينهِ فتقع عليهم الشبهة بانهم قد تحركوا الى تأدية الشهادة بامرٍ ينقّص من قيمتها . وايضًا اذا تعلموا ظروفًا بعضهم من بعضٍ فلا يُحسَبون شهودًا مستقلّين بانفسهم . ولا يخفى ان كل التواريخ التي كتبها المورخون الذين يوثق بصدقهم تتفق في الامور الكلية على حدٍّ سوى ولكنها لابد من ان تختلف في الامور الجزئية

ثم تُعتبَر ايضًا حقيقة الامر المطلوب منا تصديقهُ . فاننا نطلب اكثر او اقل من البينات بحسب ابتعاد وقوعه من دايرة اختبارنا والمشابهة بما نعرفه . ففي مقدار البينات المطلوبة تختلف الامور اختلافًا كليًّا فمنها ما يُحتمَل وقوعهُ بكل سهولةٍ ولا يحتاج برهانًا قويًّا ومنها ما لا يمكن تصديقه مهما كانت الشهادة بهِ قوية لمخالفته ما نعهدهُ من اطوار الطبيعة مخالفةً تنفي التصديق . مثلاً لو اخبرني غلامي انهُ اذ كان مجتازًا ببعض الامكنة راى احد اصحابي وكنت عارفًا بان لذلك الصاحب عملاً في تلك الناحية وكنت واثقًا بصدق غلامي لصدقتهُ حالاً حتى لو كان يعنيني ذهاب صاحبي الى تلك الناحية لكنت اتصرف من غير تاخيرٍ بمقتضى خبر غلامي . ولكن لو اخبرني ذلك الغلام نفسهُ انهُ اذ كان مجتازًا بذلك المكان راى صاحبًا اخر من اصحابي

وكنت عارفًا بانهُ قد توفي لما صدقتهُ ولئن كان الامر في نفسهِ ليس مستحيلاً . ولكن لو اخبرني هذا الخبر عشرة انفار من معارفي ومعارف المُخبَر عنهُ وكانت اخبارهم غير متعلقة برواية بعضهم عن البعض وكانوا من ذوي الصدق والمعرفة لامكنني تصديقهُ . فينتج من ذلك ان المعجزات تحتاج الى شهادةٍ اقوى مما يُطلَب للامور الدارجة . واما معجزات الانجيل

فسوف ترى في ما ياتي

ان لها مثل هذه

الشهادة

الفصل السابع

في صدق المعجزات المذكورة في الانجيل

بعد ان راينا في الفصل السابق امكان وجود بيناتٍ للمعجزات تجعلها محلاً للتصديق اتينا الان لنفحص البينات التي بها تُبرهَن صحة وقوع المعجزات المذكورة في الانجيل. ولا يخفى ان ذلك اعظم مقاصدنا في هذا البحث. لانهُ بدون بيناتٍ كافية لصحة الديانة المسيحية لا يمكننا الايمان بها. فقبل الدخول في هذا البحث وتمهيدًا لهُ نضع بعض مبادي يسلّم بها كل من لهُ اطلاعٌ على هذا الموضوع

فنقول ان البرهان ببينات الشهادة يحتمل جميع الدرجات من رجحان ضعيفٍ الى اليقين التام. حتى اننا ما نقبل بعض اخبارٍ الا باضعف التسليم ونتيقن بعضًا كما نتيقن ما نشاهده بحواسنا او يُبرهَن عليهِ بقواعد تعليمية

ثم ان مقدار قوة الشهادة لا يُحسَب بحسب قاعدة معلومة ولا يُقاس بالحساب العقلي. بل انما يُعرَف بالاختبار. فنُصَدّق بعض اخبارٍ غاية التصديق من دون ان نقدر ان نعيّن ماذا يُبنَى عليه هذا اليقين. وذلك على ان اصول معرفتنا قد تكون

متعددة ووصول الاخبار الينا يكون على طرق متنوعة حتى انهُ لايمكننا ان ننسب الى كل واحدٍ من هذه الاشياء مقدارهُ الحقيقي من مجموع تاثيرها فينا . فلو سُئلنا مثلاً على اي شهادةٍ نصدّق بوجود مدينة رومية او بما فعل الجنرال بونابارته فى اوروبا لأجبنا على العموم بانهُ قد ورد الينا شهادات متكاثرة على ذلك حتى انه لم يبقَ لنا سبيلٌ للارتياب . وهذا التصديق نفسه المبني على مثل تلك الاسباب نصدّق بهِ في امورٍ مضت من اجيالٍ عديدة . فمن الذي يمكنهُ الارتياب مثلاً بانهُ في الايام الماضية كان يوليوس قيصر او بولس الرسول او هرون الرشيد او كولومبوس او لوثاروس

ثم انهُ بعد ما نحصل على مقدارٍ كافٍ من البينات لاتنفعنا الزيادة شيئًا اذ قد وصلنا بدونها الى الغاية القصوى من الاقناع . كما في علم الهندسة ان برهانًا صحيحًا على قضيةٍ يقوم مقام مائة برهان . وبعض شهودٍ عادلين متفقين لاتناقض بينهم يوقعون الاقناع كشهودٍ لاعددَ لهم . وفي التفتيش على قاتل نفسٍ لو وُجِد الف شاهدٍ لاثبات الجرم على شخصٍ ما لايرى مجلس القضاء لزومًا لطلب اكثر من خمسة او عشرة انفار بشرط اتفاقهم في الشهادة

ثم انه وان لم يعلّمنا الا الاختبار مقدار البينة اللازمة للاقناع التام نعلم من الاختبار السابق ماذا يكون تاثير بينةٍ من البينات

في المستقبل ومما أثّرتْ فينا نستدل على تاثيرها في الاخرين

ثم ان الشهادة الضعيفة قد ياتيها احيانًا ظروفٌ تقويها او تبقى للمشهود بهِ نتايج تستلزم وقوعهُ حتى تصير الشهادة مقنعة فنصدّقها ضرورةً . مثلاً لو اخبر مؤرّخٌ يُشَكُّ بصدق قولهِ بكسوف الشمس في يومٍ معلوم في مكانٍ معلوم فان لم تكن لنا بينةٌ اخرى لصحة ذلك لترددنا بين تصديق الخبر وتكذيبهِ . ولكن لو وُجِد من حساب علم الفلك ان الشمس قد انكسفت في ذلك الزمان انكسافًا يُرَى في ذلك المكان لكان يُصدَّق خبر المورخ من دون شبهة . او لو وجدنا في كتابٍ لا يُعرَف مولفهُ ان زلزلةً قد اخربت مدينةً في زمنٍ ما ولم تكن لنا بينةٌ اخرى لصحة ذلك لترددنا في التصديق . ولكن لو وجدنا من المشاهدة او من اخبار اهل السياحة الصادقين اثار مدينةٍ قديمة في ذلك المكان لتحققنا صدق الخبر

ثم ان بينات الديانة المسيحية قد تكون كافية للاقناع بصحتها من دون ان تزيل كل محل للشبهة وتجعل الانكار غير ممكن . وربما قصد خالقنا ان تكون كيفية تصرفنا في الفحص عن الحق وقبولهِ جزءًا عظيمًا من امتحانهِ ايانا في هذه الحيوة . واذ ذاك لم يجعل للوحي من البينات ما لا يمكن رفضهُ . بل ما لا يغلط فيها كل طالبٍ مخلص النية غلطًا مهلكًا مع ان ذوي الافتخار والغرض الذين يفضلون الظلمة على النور لا يكادون

ينجون من الغلط فيه

ثم ان الناس طبعًا يتكلمون بالصدق . واما الكذب فيتكلفونهُ على غير الطبع . والاشرار لا يكذبون الا لغايةٍ تعود الى مصلحة انفسهم . فالاتفاق بين اشخاصٍ على الغش لا يكون الا عند ما يرون العمل راجعًا الى افادتهم . ولذلك لا ترى جماعةً يشتغلون في اختراع اكذوبةٍ ونشرها بين الناس وهم لا يرجون منها نفعًا . ومن بابٍ اولى لا يتداخلون في الكذب بما يجلب الشر عليهم وهم يعلمون انه لا يكون لهم الا سببًا للاذى والعار

ثم بين الحق والكذب اختلافٌ عظيم حتى انهُ من اصعب الامور ان يتزيَّى هذا بلباس ذاك على نوع يمنع كشف الفرق بينهما بواسطة الفحص الكافي . فان الكذب مهما كان عميقًا لا يحتمل الفحص المدقق . واسلوب الحق وطريقة التعبير عنهُ يختلفان جدًّا عما للكذب . فالحق يتبع طريقًا مستقيمًا مكشوفًا لا تصنُّع فيهِ . واما الكذب فطريقهُ منحرف متلبسٌ مزوَّر متناقض وكثيرًا ما يفتضح بما يُستعمَل لسترهِ

ثم انهُ عند ما تتعلق صعوباتٌ بطرفَي مسيئلةٍ يرشدنا العقل الى ان نختار اقلهما صعوبةً . والحال ان محاربي الديانة المسيحية كثيرًا ما لا يلتفتون الى صعوبات اوهامهم . فان لكل مسيئلةٍ طرفين ان انكرنا الايجاب نقبل السلب بالضرورة مع كل ما يتعلق بهِ من النتايج . فاذا رفضنا بينات الديانة المسيحية

وانكرنا وقوع المعجزات نلتزم بتقديم سببٍ لوجود الكنيسة المسيحية وسيرة معلميها والمومنين بها الاولين على وجهٍ اخر. ومن ياخذ على نفسهِ ذلك يجدهُ حملاً ثقيلاً. وبعضهم قد افرغوا قوتهم في ذلك عبثًا فاصبح تعليلهم عن اصل الديانة المسيحية لا يشفي غليلاً وهو ناقص في البينات التاريخية نقصًا كليًّا

ثم ان تعادلت بينات الطرفين تطلب الحكمة ان نميل الى الطرف الاسلم. وهو في هذه المسئلة طرف الديانة. لاننا ان غلطنا بميلنا اليها لانخسر شيئًا بل نحصل على شي من الصلاح. واما الغلط بالميل الى الكفر فمهلكٌ الى الابد

ثم ان القضية المثبتة بالبينات الكافية اللايقة لا يجب ان يتزعزع ايماننا بها من جرى كل اعتراضٍ لا يمكننا حلُّهُ. والاَّ لغرقنا في ريبٍ من الاشياء كلها اذ لا توجد حقيقة لا يتكلف الاعتراض عليها بشيءٍ يعسر حلُّهُ تمامًا. حتى ان اجلى الحقايق في العلوم لا تخلو من مثل ذلك. وهذه الحال لابد منها طالما عقولنا منحصرة واتساع العلم البشري ضيق. فلهذا يغلط كل من يظن انهُ انتصر على الديانة المسيحية عند ما يجد اعتراضًا عليها يعسر حله. نعم انهُ يوجد من الاعتراضات ما يتعلق بجوهريات القضايا التي ان ثبتت ابطلت البينات. ولكن كثيرٌ منها عرضيٌّ لا يتعرض لصحة البينات. والى هذه يتجَّه قولنا انهُ لا يجب ان يتزعزع ايماننا من جرى كل اعتراضٍ لا يمكننا حلهُ

ولناتِ الان الى فحص الشهادات على المعجزات المذكورة في الانجيل . وكلامنا في هذا البحث انما هو مع الذين يسلّمون بانهُ قد كان انسانٌ اسمهُ يسوع المسيح في بلاد اليهودية في الزمان الذي ذكرهُ الانجيليون . وبأنه قد علَّم آدابًا نقية جليلة وعاش عيشةً طاهرة فاضلة ثم قتلهُ بيلاطس مراعاةً لخواطر اليهود . وبأن تلاميذهُ خرجوا بعد ذلك الى بلاد كثيرة يكرزون ان يسوع المصلوب هذا كان قد أُرسِل من الله لخلاص العالم . وبأن كثيرين من الناس تحركوا الى الدخول في الكنيسة المسيحية . ولان هذه القضايا ليست بمعجزاتٍ ومن الضرورة ان يُسلَّم بمثلها قد اقرَّ بصحتها اكثر الكافرين بنزول الوحي

واما اول ما يُبرهَن عليه في فحص الشهادات المكتتبة فيجب بالضرورة ان يكون صدق الكتاب الذي يتضمنها . فالكتاب الذي توجد فيه البينات على صحة وقوع المعجزات التي صنعها يسوع المسيح ورسلهُ هو الانجيل . ولنا فيهِ اربع قصص عن حيوة يسوع الناصري ومعجزاتهِ وموتهِ وقيامتهِ وصعودهِ الى السماء . وايضًا يوجد فيهِ تاريخ اعمال الرسل وما كابدوهُ في التبشير بالانجيل ووضع اساس الكنايس المسيحية الاولى بعد قيامة معلمهم وصعودهِ . ولنا ايضًا في هذا المجموع جملة رسايل منها الى المومنين على العموم ومنها الى كنايس مخصوصة ومنها الى اشخاص مفردة . ثم زِيد على هذا كتابٌ اخر ليوحنا في النبوة . فصار المجموع

يُعرَف بالعهد الجديد

ثم نقول ان هذه الاسفار ليست بحديثة الاصل لانها توجد منها الان نسخ في اللغة اليونانية قد كُتِبت اقل ما يكون من الف ومايتي سنة . وقبل ان تكتب هذه النسخ القديمة باجيال لنا شهادات عديدة من كتبٍ اخرى على وجود الكتب المسيحية . وهي لاتذكر وجودها فقط بل تورد منها عبارات عديدة وكثيرًا ما تشرحها . حتى انهُ لو فقدت جميع نسخ العهد الجديد لامكن الحصول على جانبٍ معتبر منهُ من كتب هولآءِ المعلمين القدمآء . وايضًا يوجد في هذه الايام ترجمات قد اشتقت عنها الى لغاتٍ مختلفة في الاجيال الاولى . فبهذه الوسايل يمكننا الحاق هذه الاسفار بزمان الرسل

ثم لنا ايضًا برهان قاطع ليس من مولفين مسيحيين فقط بل من الوثنيين ايضًا انهُ كانت جماعةٌ يسمُّون انفسهم مسيحيين في زمن نيرون قيصر الروماني الذي كان معاصرًا للرسل . فمن اللازم في نفس الامر ان اخبارًا مثل ما ذُكِر في الانجيل كانت مصدقة ومقبولة عند الكنيسة المسيحية في بداية وجودها . اذ لو لم يُكرَز بان المسيح كان قد أُرسِل من الله وعمل عجايب للشهادة على رسوليتهِ وآمن بعض الناس بذلك فكيف كان يمكن انتظام مثل هذه الجماعة . فان التصديق بذلك يكون كالتصديق بوجود بنيانٍ بلا اساس . ثم انهُ لابد ان

قيامة المسيح من الموت كانت من اعتقادات المسيحيين الاولين لانها ركن البناء جميعهِ اذ لو نُزِعَت هذه القضية من الاعتقاد المسيحي لهبط ولم يبقَ منهُ شي. وايضًا يجب بالضرورة ان بعض رسوم خارجية مختصة بالديانة المسيحية تكون قد وجدت منذ انتظام الجماعة المدعوين بالمسيحيين اولاً. لانها هي علامات الاقرار المسيحي وجزء من عبادتهم. والاشارة هنا الى المعمودية والعشاء السري. ولا يُسلَّم انهُ قد وجدت الديانة المسيحية اولاً ثم قبلت هذه الاعتقادات والرسوم في العبادة. لان ذلك يكون كالظن ان جماعةً دينية قد قاموا بدون معتقد وطقوس ثم اتخذوها واقنعهم الذين علموهم اياها انها قد كانت عندهم من البداية. ولا يخفى ان هذا مما لا يُحتمل وقوعهُ. بل من المحال انهُ قبل اشتهار الانجيل لم يكن للكنيسة المسيحية علمٌ بالمعجزات والرسوم المذكورة فيه ثم عند ما اشتهر صدقوا ان جمعيتهم مبنية على الايمان بقيامة يسوع وبانهُ وضع المعمودية والعشاء السري قبلما ترك العالم. فلا شي اوضح من ان المسيحيين كانوا يومنون ويعملون بموجب خلاصة الانجيل حالما انتظموا جماعةً

ثم كما ان هذه الكتب قد اتت الينا منسوبة الى بعض رسل يسوع المسيح وتلاميذهِ كذلك كانت تُنسَب الى هولاء الاشخاص ممن ذكروها اولاً. ويشهد بذلك الاباء القدماء كقضيةٍ لا ريب فيها عند الجميع. ولا يُظَنّ انهُ في اوايل الديانة المسيحية

لم يُفحَص بالتدقيق عن الذين صنفوا هذه الكتب وعن صفاتها ايضًا. لان الامر كان بالعكس وقد فُحِص بكل اجتهادٍ عن مثل هذه الامور. فانه انتشرت كتبٌ اخرى باسماء الرسل غير صحيحة النسبة تدَّعي بالاخبار عن يسوع المسيح وكان الفرق بين هذه الكتب من كل نوعٍ وكتب العهد الجديد صريحًا في تلك الايام كما كان بعدها. فكانت كتابات الرسل مكرمة عند الجميع ومقبولةً عند الكنايس في كل العالم كدستورٍ لايمانهم وسيرتهم وكانت تُقرأ في اجتماعاتهم لاجل تعليم الشعب. وعند ما حدثت اختلافاتٌ بينهم كانوا يستشهدونها لاثبات دعاويهم على انها قاعدة يجب الحكم بموجبها. ومن حين انتشرت تفرقت نسخها على وجه الارض واحتُفِظ عليها كل الاحتفاظ حتى انهُ لم يبقَ لاحدٍ قدرةٌ على تحريفها او تغيير شي منها خلافًا لزعم الذين يعتقدون انها قد فسدت وتحرفت

ثم ان اسلوب كتابتها ولغتها برهانٌ خصوصي على حقيقة نسبتها. نعم ان ذلك لايدلُّ على اشخاص الكاتبين ولكن يدل على انهم كانوا في تلك الظروف عينها التي كان فيها الذين انتسبت الكتب اليهم. فان الكلمات في اصل الانجيل يونانية واما اسلوب الكلام فهو عبرانيٌّ او بالحري ممزوجٌ من السريانية والكلدانية. وكانت هذه اللغة لغة بلاد اليهودية في ايام المسيح ورسلهِ خاصةً. ولايخفى ان هذا مما لايسهل تزويرهُ لسبب غرابته.

فيكون ذلك برهانًا على ان العهد الجديد كتبهُ اناسٌ من بلاد اليهودية وفي الزمان الذي كان فيه المسيح ورسلهُ. ثم انهُ كثيرًا ما يشار في العهد الجديد الى انهارٍ وجبالٍ وابحرٍ ومدن وبلاد لا يشير اليها على منوال الانجيل مَن ليس لهُ خبرةٌ جيدةٌ في بلاد اليهودية وما يليها من غير ان يقع في غلطٍ عظيم. والاشارات ايضًا الى طرايق اليهود والعوايد المختصة بهم هي كثيرة جدًّا. ويشار ايضًا بطريق العرض الى اشخاصٍ وامورٍ نعلم حقيقة وجودها من كتبٍ اخرى

فبناءً على ما تقدم يجب التسليم بان هذه الكتابات انما هي كتابات الذين هي منسوبةٌ اليهم من الرسل وغيرهم. حتى ولو كتبها اناسٌ اخرون لبقي تصديقها واجبًا اذ لا ريب في انها كُتبت في ذلك العصر وقَبِلها جمهور المسيحيين في ذلك الوقت. ولكن ما الداعي الى الارتياب في صحة نسبة هذه الكتب. مَن هو اجدر من الرسل بكتابة اسفارٍ مثل هذه لارشاد ايمان الكنيسة. وان كان لم يكتبها هولاءِ فمَن كتبها. ثم ان قبولها عند الجميع بدون خلافٍ يجب ان يسكّت كل مماحكٍ اذ كان الذين عاشوا في تلك الايام يعرفون الرسل ولهم تعلقٌ كثيرٌ بهذه الامور ولهم حق الحكم في هذه القضية. فقد حكموا بصوتٍ واحد لصحة نسبة كتب العهد الجديد التاريخية اي الاناجيل الاربعة والابركسيس وتسلسلت الينا شهادتهم بدون انقطاع حتى ان مولفي الامم

والارائقة يشهدون بصحة نسبة الاناجيل الى الذين هي حاملةٌ اسماءهم

واما الكتابات القديمة الاخرى فمن جهة حقيقة نسبة افضلها ليس لنا في الغالب من البينات الا راي المعاصرين متسلسلاً الينا بواسطة تقليدٍ غير مناقض. فلو طُلِب لتاليفات هوميروس مثلاً ما يُطلَب لاثبات صحة انتساب العهد الجديد لطُرِحَت بمعزلٍ حالاً كما لاصحة لهُ. ولا توجد بيناتٌ لسايركتب المورخين والشعراء اليونانيين واللاتينيين على انها مصنفات الاشخاص المنسوبة اليهم كالتي توجد لكتب متى ومرقس ولوقا ويوحنا. اذ ليس لنا فيها شهادة افرادٍ فقط بل شهادة جماعات مختلفة ايضًا متفرقة في العالم. ولنا ايضًا براهين داخلية لايمكن تزويرها. وبالاجمال لنا كل نوعٍ من البينات مما تحتملهُ القضية. واذ ذاك تكون القضية مثبتة ان كتب العهد الجديد انما هي مكتوبةٌ من الرسل. فهي اذن تحتوي على شهادتهم لمعجزات يسوع المسيح ولما فعلوهُ من المعجزات باسمهِ بعد صعودهِ

وانهُ لمن المحقق ايضًا انهُ لم يدخل على كتب العهد الجديد تغييرٌ كليٌّ بعد ما كتبت. لانهُ يوجد اتفاق في جميع النسخ والترجمات القديمة وما نُقِل عنها. نعم يوجد اختلافات يسيرة وقعت من جهل النساخ او غفلتهم. ولكن ليس باكثر مما يُنتظَر وقوعهُ طبعًا. ولم يصل الينا كتابٌ صحيحًا او مصحوبًا

بوسايط لاصلاح غلط الخط كالكتب المقدسة . والاختلافات التي وجدها المعلمون في مقابلة النسخ القديمة ليس واحدة من الالف منها تستحق الاعتبار . لانها طفيفةٌ جدًّا من حيث ان اكثرها يكون اما من جهة الهجآء او في ترتيب الكلمات او في استعمال الالفاظ المترادفة . فلا يختلُّ المعنى بذلك اصلاً

وبعد ان اثبتنا حقيقة نسبة الكتب التي تتضمن الشهادة اي ان قد كتبها الذين هي منسوبةٌ اليهم اتينا الان الى الكلام في تصديقها . فنقول اولاً انهُ لا ريب في ان كثيرًا من الوقايع المذكورة في الانجيل معجزاتٌ حقيقية . فانهُ يُخبَر فيهِ عن اقامة يسوع المسيح الموتى مرارًا منها مرةٌ كان للميت اربعة ايام وكان قد انتن . وفي جميع هذه المرار فعل المعجزة حالاً بدون واسطةٍ غير قولهِ كلمةً . وفيهِ يُخبَر ايضًا عن ابرآيهِ كثيرًا من الامراض المزمنة التي لا دواءَ لها كالعمى والطرش والخرس والعرج . وعن اخراجهِ الشياطين من المجانين واشباعهِ الوفًا من الناس بقليلٍ من الخبز والسمك وبعد ما شبعوا تبقَّى من الكسر اكثر مما كان اصلها . وعن مشيهِ على البحر وتسكينهِ العواصف بكلمتهِ . واخيرًا يخبر فيهِ مكررًا عن ألسنة الشهود بان يسوع المسيح بعد ان صُلِب ومكث في القبر ثلثة ايامٍ قام من الموت وبعد ان ارى نفسهُ لتلاميذهِ مرارًا عديدة صعد الى السمآء امامهم . ولا ريب ان هذه جميعها معجزات حقيقية . نعم اننا

لا نعلم جميع قوى الطبيعة ولكن نعلم بكل تحقيقٍ ان مثل هذه الاعمال لا تُعمَل الا بقدرة الله الخاصة . ويصدق هذا القول ايضًا على المعجزات التي صنعها الرسل باسم الرب يسوع وبالخصوص على تلك المعجزة الفايقة يوم العنصرة عند ما حلَّ الروح القدس على الرسل بصورةٍ ظاهرة واعطاهم موهبة النطق بالالسنة الغريبة وغيرها من المواهب الفايقة الطبيعة . فيلزم الجميع التسليم بان هذه الاعمال ان كانت قد وقعت فهي معجزاتٌ لا محالة

ثانيًا كان يسوع يصنع ما صنعهُ من المعجزات غالبًا على طريقٍ ظاهرة بحضرة شهودٍ كثيرين على نظر اعداءٍ علماءَ خبثاءَ في ظروفٍ كثيرة الانواع وذلك على سنين متوالية . فلم يبقَ وجهٌ للحيلة او لصناعة اليد او لغش الحواس او غير ذلك مما يخدع الناظرين . ولا يخفى ان هذا الامر مهمٌ لانهُ يُثبِت اثباتًا بيّنًا ان الرسل انفسهم لم ينخدعوا بما قد شهدوا لهُ . والقول بانهم كانوا يعتقدون ان مثل هذه الاعمال التي عاينوها كل يومٍ على سنين كانت معجزاتٍ لكنهم انغشُّوا بذلك ليس بابعد من القول باننا قد انخدعنا في كل ما ورد علينا مدة حيوتنا

ثالثًا يجب الالتفات الكلي الى صفات المعجزات المذكورة في الانجيل . فانها كانت لايقةً بعظمة ابن الله وعدلهِ وجودتهِ متصفة بالسمو واللياقة واللطف بل ان اكثرها كانت اعمال شفقة نحو البايسين . ومع كثرة عددها واختلاف ظروفها لم يكن

في واحدة منها شيءٌ من الهزء او الركاكة او نية الانتقام من اعدآيهِ . ولم يستعمل المسيح قط قدرتهُ للفرجة او للقيام بحاجاتهِ او لاكتساب المال والسطوة . ومع انهُ اطعم جموعًا جايعين واشبعهم بواسطة المعجزة ارتضى ان يجوع هو ويحتاج . ومع ان الطبيعة كانت تحت امرهِ عاش في الفقر اذ لم يكن لهُ مأوى لراحتهِ . ومع ان اليهود رفضوهُ وعاملوهُ بالشرّ لم يردَّ احدًا اذا طلب منه شيئًا يساعدهُ بهِ . ومع ان حيوتهُ كانت من جرى الجموع التي اجتمعت اليهِ متعبةً وغير مرضية لم يملَّ من عمل الخير اصلاً . وكل من يطَّلع على اخبار معجزات المسيح المذكورة في الاناجيل الاربعة الصحيحة والخرافات المذكورة في الاناجيل الغير القانونية المزوَّرة يندهش لامحالة من الفرق بينهما . وهكذا معجزات المسيح مع معجزات كل من ادَّعى بها كاذبًا من قبلهِ ومن بعدهِ . ولا نرى كيف ان انسانًا خاليًا من الغرض عند قرآءتهِ المعجزات المذكورة في الانجيل لايقتنع بصحة وقوعها من مجرد النظر الى نفس هذه المعجزات وظروفها

رابعًا لاتوجد علامات مكرٍ ولا تزويرٍ في الشهادة ذاتها بل بالعكس توجد علامات الحق والصدق والنية الصالحة في اصحابها . ومع انهم يختلفون في اسلوب الكتابة وطريقة الكلام بحيث يظهر انهُ لم يكتب الاناجيل الاربعة انسانٌ واحد ولكن لهم اسلوبٌ مشترك بينهم جميعهم على سبيلٍ لانظير لهُ الا بين

كتبة الاسفار المقدسة. كأنَّ ذلك صادرٌ من اعتصامهم على نوعٍ خصوصي عن انفعالات الطبيعة البشرية وضعفها. لانهُ في اخبارهم عن اعظم المعجزات لايظهر العُجب في الكاتب ولا يُطلَب ذلك من القاري. فلا يخبرون عن صفات المسيح الا بمجرد الخبر البسيط بما عمل او تكلم ولا يشرحونها شرحًا عموميًّا ولا يستعملون القاب المديح لاجل اظهارهِ. وربما لاتوجد عبارة واحدة من اصحاب الاناجيل مديحًا في احدى خطاباتهِ او اعمالهِ. وذكرهم شيئًا من ذلك ان وُجِد انما هو حكايةٌ عن اخرين رأَوا ان يضعوها كمورخين امناء. وعند ما يخبرون عن آلام المسيح لايتأَوَّهون على ذلك بحسب عادة البشر ولا تميلهم محبتهم لهُ عن الخبر البسيط. بل انهم يخبرون عما حصل كانهم لايشعرون الا بعزمٍ ثابتٍ على اعلان الحق بدون تحريف القضايا في ادنى شيءٍ. ولا نراهم يتفوهون بكلام الحنق والغضب على اعداء المسيح بحسبما ننتظره طبعًا. ولا ينطقون بكلمةٍ قاسية غليظة على احد. حتى انهم يخبرون عن نفس خيانة يهوذا بتلك البساطة عينها كانهم لايشعرون بقبح عملهِ

ثم يوجد امرٌ اخر تظهر منه صفات اصحاب الاناجيل على وجهٍ اوضح واجلى. وهو كيفية تكلمهم عن انفسهم بدون اظهار قوة محبة الذات. وذلك نادرٌ في الناس حتى ان البسطاء يتكلمون بالمديح عن انفسهم في الغالب كلامًا مكروهًا. والذين يرضون

باظهار الحق يميلون غالبًا الى طلب ما يتعوضون بهِ عمَّا يخبرون من زللهم. واما اصحاب الاناجيل فلا يوجد مَثَل واحد على ادنى ميلٍ فيهم الى هذا الضعف. فانهم يتكلمون عن انفسهم وعن اصحابهم بتلك البساطة عينها الموجودة في اخبارهم عن غيرهم. فيذكرون بكل وضوحٍ دناءة نسبهم وصنايعهم وغلاظة جهلهم وشدة انحرافهم وخصامهم على الرياسة وخوفهم وقت الخطر وسقوط احدهم سقوطاً مهلكاً وانكار اخر منهم معرفة سيدهِ برهةً ما. وان ظنَّ احدٌ ان انشاء كتب على اسلوب الاناجيل امرٌ سهل فذلك من قلة التفاتهِ الى ما نحن فيهِ. فانه من العجب ان يستطيع هولاء الاميّون كتابة كتب صحيحة ولو على الاسلوب الاعتيادي. اذ قلَّ ما يوجد من الصيادين والصنَّاع الذين اصرفوا حيوتهم في الاعمال المزعجة ولم يتعلموا صناعة الانشاء اناسٌ يمكنهم ان يكتبوا خبر حيوتهم من غير ان تقع في كلامهم عيوبٌ عظيمة. واما ما يظهر من هولاء الاميّين من عدم الميل والغرض بحسب الظروف التي تقدم ذكرها فهو امرٌ لا تكشف عنه المبادي الاعتيادية

واما ما يستحق الاعتبار الخصوصي فهو عدم لوايح النيَّة الردية في جميع ما كتبوهُ. فان طلبنا من الكافر ان يرينا من الانجيل امرًا او كلامًا يلوح عليهِ سوء نية اصحابهِ لما وجد فيهِ شيئًا من ذلك ولو قرأهُ حرفًا حرفًا. فيلتزم بالاقرار انهُ لا شيء

من النية الشريرة او الغاية الردية في اربعة كتبٍ كتبها على زعمهِ اناسٌ خدَّاعون قد خدعوا غيرهم بمكرهم واكاذيبهم الكثيرة. وذلك شيءٌ لا يوجد في جميع الكتب التي كتبها اناسٌ كذابون لانها لا تخلو من ان تلوح عليها النية الردية

نعم انهُ يوجد من ذوي العلم والتقوى من ظهر عليهم خلوصٌ غير اعتيادي في ما اظهروه من اخبار ضلالهم واغراضهم وخطاياهم. غير انها لا تخلو من لوايح الضعف البشري. وبعض الكافرين ايضًا قد اشهروا اخبارهم عن حيوتهم وذنوبهم الخفية. منهم المعلم روسو وهو الذي اشتهر اكثر ما يكون في ذلك. فانه يدَّعي بانهُ اعترف للناس بجميع ذنوبهِ التي ارتكبها مدة سنين كثيرة في كتابٍ طبعهُ ونشرهُ في العالم. وحقًّا قد اخبر فيهِ عن شرورٍ يخجل منها الشيطان نفسه. ولكن هذا الرجل المولع بالخطية قد افتخر بما يستحق الخجل وقال انهُ عازمٌ عند ما يقف قدام كرسي الدينونة ان يحضر بكتابه في يدهِ ليسلمهُ بيد الديان على انهُ اعترافهُ واعتذارهُ. فمن شفافة رداء التصنع نرى فيه اعظم الكبرياء والغرور. لانه مع ان هذا الاعتراف الفضولي يتعدى على مقتضى الضمير واللياقة باشهار ما لا يجوز التلفظ بهِ لا يُري المعترف شيئًا من الحزن والتوبة. بل ان ظاهرهُ يدلُّ على الاعتذار عن الخبث والقباحة. ومرادهُ بذلك انما كان طلبًا لشهرةٍ جديدة ومجدٍ لم يعرفهُ الغير. وربما لا يوجد كتابٌ في اي لغةٍ كانت مملوءٌ من الكبرياء

والافتراء مثل هذا. والظاهر ان سبب اعترافه هكذا كان ثقته بفساد الناس فانتظر منهم مديحًا كثيرًا لاجل خلوص اقراره وذمًّا قليلاً لاجل سوء عملهِ. ولكن بما انهُ قد رفع دعواهُ الى حكم ديوانٍ اخر فلنا ان نشكَّ بقبولهِ هنا ك من المدح الكثير والذم القليل ما كان ينتظرهُ. فبين مثل هذا الاعتراف القبيح وبين التقرير البسيط الوديع الذي قرَّرهُ اصحاب الاناجيل فرقٌ لا يوصف

ثم لانتعرض الى ذكر غير امرٍ واحدٍ ايضًا يجب الالتفات اليهِ في كتابة الرسل. وهو انهُ في اخبارهم عن يسوع المسيح بالتفصيل لايشار البتة الى صورة شخصهِ. فاننا جاهلون بقامتهِ وهيئتهِ وصورة وجههِ ولونهِ الى غير ذلك من صفاتهِ الشخصية كما لو لم يكتب الانجيل. وفي السكوت عن هذه الاشياء حكمةٌ كلية مع انه لو اتبع الكتبة حركات قلوبهم لكُنَّا نجد اقلهُ شيئًا من الاشارة اليها

خامسًا ان الاعتراض على الشهادة من حيث قلة عدد الشهود لااعتبار لهُ. لان اكثر القضايا التي وصلت الينا بواسطة التاريخ الثابت لا يشهد لها اكثر من مؤرخَين او ثلثة الاَّ نادرًا. وكثيرًا ما نقبل شهادة واحدٍ اذا كانت جميع ظروف القضية المشهود لها توافق خبرهُ. واما هنا فلنا اربعة شهود مستقلُّون لهم معرفة تامة بما يشهدون لهُ كان اثنان منهم وهما متى ويوحنا من

الاثني عشر الذين رافقوا يسوع حيثما ذهب وراوا كل اعمالهِ والاثنان الاخران وهما مرقس ولوقا قد يمكن ان يكونا من الذين عاينوا اياتهِ ايضًا اذ كثيرون يظنون انهما كانا من السبعين تلميذًا الذين ارسلهم المسيح للتبشير حتى وان لم يكونا منهم فقد يمكن انهما كانا من اتباعهِ او كانا حاضرين في اورشليم وفي اماكن اخرى حيث صنع اياتهِ ومعجزاتهِ . ولكن لا احتياج الى فرض احد هذين المذهبين لانهما كانا في عصر من يشهدان لهُ وكانا من المومنين الاولين ومن اصحاب الرسل الملتزمين بهم وترددوا كثيرًا بين الكنايس . اذ كان مرقس اولاً رفيق بولس وبرنابا ثم التصق ببطرس الذي من وعظهِ جمع انجيلهُ بحسب تقليدٍ عمومي عن الاباء الاولين . ولوقا انتخبته الكنايس لمرافقة بولس في اتعابه وكان لا يكاد يفارقه حتى حُبِس اولاً في رومية وعند ذلك ختم خبره عن حيوة الرسول واتعابه

وما خلا هولاءِ الانجيليين الاربعة الذين كتبوا خبر معجزات يسوع المسيح على الخصوص لنا ايضًا على سبيل العرض شهادة الرسل الذين كتبوا الرسايل ولا سيما بولس . نعم ان بولس لم يكن من الاثني عشر رسولاً الذين صحبوا المسيح على الارض ولكنه صار رسولاً تحت ظروفٍ صيَّرت شهادتهُ ثابتة كشهادة غيرهِ . فانه اخبرنا ان يسوع التقاهُ بالقرب من دمشق وظهر لهُ ضمن نورٍ ساطع وكلَّمهُ اذ كان يتهدد بالحنق والقتل على تلاميذ

المسيح . فمن تلك الساعة ترك جميع ما يُغرِي بهِ العالم شابًّا يهوديًّا اذ كان ذا فطنةٍ وعلمٍ وسيرةٍ غير معيبة في ديانته ونعمةٍ من روسآء طايفتهِ واكثر غيرةً من غيرهِ على خراب الديانة المسيحية فصار تابعًا للمسيح غيورًا حتى انه لم يلحقهُ احدٌ في الغيرة والنجاح في تبشير الانجيل . فباي شيءٍ يُعَلَّل عن صيرورتهِ مسيحيًّا حالاً لولم ينظر بالحقيقة يسوع الذي قام من الموت كما اخبر . فانه عوضًا عن انتظار النجاح العالمي الذي كان لهُ قبلاً صار مضطهَدًا ومرذولاً حيثما ذهب حتى ان ما ذكرهُ في احدى رسايلهِ مما احتملهُ من الشدايد كافٍ لترويع اشجع قلبٍ . ومع ذلك لم يندم مرةً على كونهِ صار مسيحيًّا بل ما زال مُوقِفًا كل قواهُ لاجل انتشار الانجيل مدة حيوتهِ . فهذا التغيير في من لهُ صفات بولس وانتظارهُ في الدنيا لايصح التعليل عنهُ على ظن نية الخداع . فهذا ما يطلبهُ منا الكافرون اي شهادة عدوٍ لا شهادة عدوٍ لم يقتنع من دلايل ديانتنا بحيث تكون شهادتهُ مناقضة لنفسها ومحلاًّ للاعتراض ولكن شهادة عدوٍّ كان حارًّا غيورًا في مقاومة الديانة مدة طويلة ثم اقتنع من قوة ادلتها الى ان صار تلميذًا غيورًا وبقي كل حيوتهِ متمسكًا بصحة الانجيل اشد التمسك . نعم انهُ لم يكتب انجيلاً لكنهُ شهد كثيرًا لصحة القضايا العظمى الواقع عليها بحثنا الان . وعلى الخصوص هو من افضل الشهود في امر قيامة المسيح لانهُ رآهُ وخاطبهُ بعد صعودهِ واخبرنا ببعض

ظروفٍ عظيمة جدًّا في ذلك لم يخبرنا بها احدٌ من الذين كتبوا الاناجيل . فانهُ يقول ان خمسماية انسانٍ معًا راوا المسيح بعد قيامته وقد كان اكثرهم احياءً عند ما كتب ذلك . فلو كان قولهُ هذا كذبًا لانكشف كذبهُ حالًا اذ لا ريب في ان رسايلهُ كانت تُنسَخ وتُنشَر بين الكنايس حالما تُكتَب . فلو لم يكن هذا القول صحيحًا لكان كشف كذبهِ من اسهل الامور . ثم ان كل صحيفةٍ من كتابات بولس مبنية على قيامة المسيح وهو في جميع رسايلهِ يتخذ ذلك كامرٍ حقيقي يومن بهِ كل المسيحيين ومحركٍ لكل عمل وينبوعٍ لكل تعزية . حتى انه عند ما اراد مرةً اقناع الذين انكروا قيامة الجسد من الهراطقة اراهم ان قولهم محالٌ بهذه النتيجة اي بانه ان لم تقم الموتى فلم يقم المسيح ولو صحَّت النتيجة لانقلبت الديانة المسيحية . ثم انهُ يفوّض المسئلة لاعتقاد المسيحيين العمومي ويقول ان لم يقم المسيح فباطلًا نبشركم وباطلٌ ايمانكم ايضًا بل نكون شهودًا كذابين لله لاننا قد شهدنا لله بانهُ قد اقام المسيح الذي لم يقم ان لم تقم الموتى . فهل يكتب عاقلٌ هكذا ان لم تكن قيامة المسيح من العقايد الاصلية بين المسيحيين او لم يكن هو موقنًا بصحتها . ولو كان بولس كذابًا هل كان يتجاسر ان يستشهد اكثر من خمسماية نفس اكثرهم احياءٌ بصحة ما علم انهُ كذب . فما ايسر انكشاف هذه القضية لو كانت خديعةً

وهذا الامر نفسهُ ظاهرٌ من رسايل الرسل الاخرين ومن

جليان يوحنا

فعند ما نعرف صريحًا اعتقاد احدٍ من جهة امرٍ ما فلنا بالحقيقة شهادته في ذلك الامر لانه حينما يشهد شهادة صريحة لا يقدم الا ما اقتنعت بهِ افكاره. فلهذا ان امكنا معرفة ما آمن بهِ المسيحيون الاولون في امر قيامة المسيح وغيرها من المعجزات نحصل على جميع ما يمكنهم من الشهادة فيها. ولا يخفى ان ذلك امرٌ مهمٌ لسبب كثرة الشهود. لان لنا اقوى الادلة على ان المسيحيين منذ البدء قد امنوا جميعهم بما ذكر في الاناجيل ورسايل الرسل اذ صيرورتهم مسيحيين تبرهن ذلك على اجلى بيانٍ لانهم كيف يصيرون مسيحيين ان لم يومنوا بالديانة المسيحية. ما لم يعتقد احدٌ بان ليس الرسل فقط بل الذين اهتدوا عن ايديهم ايضًا كانوا خدَّاعين يخدعون الناس وهو محالٌ. وذلك مثبتٌ ايضًا بكيفية مخاطبة الرسل للمسيحيين في رسايلهم. لانه على افتراض ان كنيسة قرنثية مثلاً لم تعتقد بقيامة المسيح أما يحسبون بولس مجنونًا في ما كتبهُ لهم في رسالتهِ مبنيًا على اعتقادهم بذلك. ثم ان قبول جميع الكنايس المنتشرة في العالم للاناجيل والرسايل هو اقوى دليلٍ على ايمانهم بكل ما احتوت عليهِ وقد اتخذ جميع المسيحيين هذه الكتب قانونًا لايمانهم ومرشدًا لسلوكهم. ولذلك لا ريب اننا حاصلون على شهادة جميع الكنيسة الاولى لصحة وقوع المعجزات المذكورة في الاناجيل. فلو اتتنا

كتابةٌ فيها اعتقاد كل من تمسك بالمذهب المسيحي وشهادةٌ صريحةٌ للوقايع المبنية عليها الديانة المسيحية هل يعترض احدٌ بقلة الشهود. والحال ان لنا مثل هذه الشهادة تمامًا في قبول المسيحيين للانجيل عند ما انتشر بينهم. ولا نرى نقصًا في هذه عن تلك. واذ ذاك لايكون نقصٌ في عدد الشهود. ولو كتب كلٌّ من الاثني عشر رسولاً ومايةٌ ممن سواهم اناجيل لما ازددنا بذلك شيئًا في قوة الدليل لانهُ بعد كل ذلك لانحصل الاَّ على شهادة جميع الكنيسة الاولى وهي التي نحن حاصلون عليها كما قد ذكرنا

سادسًا عدم اتفاق الشهود في الامور الجزئيَّة لايبطل تصديق الشهادة. لانهم يتفقون اتفاقًا تامًّا في الشهادة للقضايا الكلية ولتعاليم المسيح وصفاتهِ. نعم ان كلاًّ من الانجيليين لايختار للذكر ما اختارهُ غيرهُ من القضايا وذات القضية الواحدة التي يذكرها اكثر من واحدٍ منهم يذكرها الواحد بالتفصيل والاخر بالاختصار. ولكن لاتناقض بينهم بل يوجد في تاليف الاناجيل واخبارها مطابقة حسنة والخالي من الغرض لايرى اختلافًا يوثر في تصديق الشهادة التي تحتوي عليها. ولو كتب كلٌّ من اصحاب الاناجيل القضايا التي كتبها الاخرون بجميع ظروفها على نسق واحد لظهر عليهم اتفاق سابق في الكتابة وهو مما يضعف شهادتهم. والحال انه ظاهرٌ من الادلة الداخلية الباطنية ان الانجيليين لم يروا تاليف بعضهم قط قبل كتابتهم ما خلا يوحنا.

فيجب اذن ان يكون اتفاقهم كاتفاق شهودٍ مستقلين قد فُحِص كل واحدٍ بمفردهِ ويُعَدُّ اختلافهم في الجزئيَّات برهانًا على عدم اجتماعهم ومشاورتهم في ما كتبوهُ

نعم انهُ لا يخفى ان من اقوى ما اعتُرِض بهِ على الديانة المسيحية هو وجود ما ظاهرهُ تناقضٌ في الاناجيل . ولكنه في هذه الرسالة لا يسعنا الكلام في الطُرُق المتنوعة للموافقة بين الاناجيل وازالة الصعوبات الناتجة من اختلافاتها . فراينا ان نكتفي بوضع بعض ضوابط عمومية لحل هذه المشاكل

فنقول انهُ يجب النظر الى ان الاناجيل كُتِبت منذ نحو الفي سنةٍ بلغةٍ لا يتكلم الان بها احدٌ وبين اناس عوايدهم مختلفة عما هي عندنا الان . ولاجل قلة معرفتنا بهذه الظروف نرى صعوباتٍ ومشاكل لا يسهل علينا حلها

وان الاناجيل ليست تواريخ وقايع مرتبةٍ على ترتيب زمان وقوعها . بل هي بعض قضايا عظمى قد انتُخِبت من عددٍ اكبر لم يُذكَر . فزمان هذه الوقايع ومكانها لا يتعلقان بقصد اصحاب الاناجيل . ولهذا نجدهم تارةً ينظرون الى ترتيب الزمان وتارةً الى ما يتعلق بمعنى ما سبق من الكلام وتارةً الى ظروفٍ اخرى

وانه لا عبرة في تدوين معجزةٍ بذكر عدد الذين انتفعوا بها . لان المعجزة تبقى معجزة سواءٌ أُعطِي البصر لاعمى واحد او اكثر او أُخرِج الشيطان من واحدٍ او كثيرين . وان كان مورخٌ في

ذكرهِ اعجوبةً يختاران يذكرها كما حدث في شخص واحد لسببٍ من الاسباب ومورخ اخر يذكر وقوع تلك المعجزة فى شخصين فلا تناقض في ذلك البتة. نعم لو ادَّعوا بالاخبار عن عدد جميع الذين شفوا واختلفوا فيهِ لصحَّ الاعتراض. ولكن لم يكن ذلك غاية الانجيليين

وانهُ اذا كان انسانٌ يريد ان يُظهِر براعة كحَّالٍ مثلاً بانهُ ابرأ على طريقة غريبة من كان اعمى زمنًا طويلاً لاينتج انهُ لم يشفِ احدًا غيره. واذا اخبرنا انسانٌ اخر بالتفصيل عن كل من ابراهم هذا الكحال فلا تناقض بينهما. بل الفرق يكون ان الاول يختار واحدًا من كثيرين والاخر يذكر الجميع

واكثر ما تاتي منهُ المشاكل هو خلط الاشياء المتميزة. فان الاخبار التي بالحقيقة يمتاز كل واحدٍ منها بنفسهِ قد تتشابه حتى يحسبها بعض الناس خبرًا واحدًا. مثلاً اخبرنا واحدٌ من الانجيليين عن معجزتين بهما اطعم المسيح جمعًا غفيرًا تختلف الواحدة منهما عن الاخرى. فلو اخبرنا ذلك الانجيلي بواحدة فقط واخبرنا غيره بالاخرى لظنَّ كثيرون انهما معجزة واحدة وان اختلفت شهادتهما. ولكن الحال ان المخبر بهما واحدٌ والمسيح قد اشار في كلامهِ الى كليتيهما على انفرادٍ فلا شك انهما معجزتان. واكثر ما يقع منه مزج الاشياء المتميزة يكون عند ما يصحب الامر ظروفٌ وحوادث كثيرة تلي بعضها ولا يذكر المخبر سوى البعض

منها. ويصح هذا القول خاصةً في قيامة المسيح لان اخبار الانجيليين في ذلك مختصرة. فلا يُذكَر فيها الا قليلٌ من الظروف الواقعة معها مع ان الحال يقتضي انهُ كانت حركة عظيمة جدًّا بين التلاميذ وجريٌ سريعٌ من مكانٍ الى اخر للاخبار بما حدث واجتيازٌ بالقبر لتحقيق القيامة. ومن ثمَّ لا عجب اذا تراءى كانهُ قد وجد اختلافٌ في اخبارهم. فانه ذكر كل واحدٍ جماعةً من النساء مثلاً اللواتي اتين الى القبر فيبادر المعترض الى الظن بانهنَّ جماعةٌ واحدة ويفترض انهنَّ وصلن الى القبر دفعةً واحدة وبقينَ معًا. ولا يلاحظ الاضطراب الذي حصل من الاخبار بما حدث في ذلك الصباح. ولكننا في هذا الامر وفي امورٍ اخرى قد صرنا مديونين لاعداء الوحي الذين باعتراضاتهم اقاموا اناسًا علماء اوضحوا ما كان خفيًّا فلم يبقَ اثرٌ من الريب

ثم انه قد وجد بين ما ذكرهُ متى ولوقا من نسب يسوع المسيح اختلافٌ حسبهُ الكافرون المتاخرون تناقضًا. ولكن اعداء الديانة المسيحية القدماء لم يحسبوهُ كذلك وهذا ردٌّ كافٍ على هولاء المعترضين فلا حاجة الى بسط الكلام فيه. غير اننا نقول ان كان احد هذين النسبين نسب يوسف والاخر نسب مريم فلا خلاف بينهما. ونقول ايضًا ان معرفتنا بطريقة تاليف جداول النسب في تلك الايام قاصرة جدًّا فلا عجب في ظهور

مشاكل فيها . ثم يحتمل ان هذين النسبين نُقِلا عن جداول انساب السبط والعايلة اذ لابد من ان كان لكل عايلة وصولٌ الى مثل هذه الجداول لاجل معرفة حقوق الارث . ولما كانت هذه الجداول المشهورة مقبولةً عند الجميع وافقت غاية الانجيليين اكثر من جداول جديدة يكتبونها هم ولو كانت اكثر تدقيقاً وصحةً . فالحاصل ان غاية هذه الانساب انما كانت برهاناً على ان يسوع المسيح كان من نسل داود وابرهيم وتمَّ ذلك بها . ولا توجد صعوبة لانستطيع ان نعلل عنها بجهالتنا في هذا الشان

واخيرًا نقول اننا نسلم بانهُ ربما دخل على نسخ العهد الجديد بعض غلطاتٍ يسيرة من غفلة النساخ . لانهُ من المحال ان يكتب احدٌ كتابًا سالماً من الغلط في الخط . فان وجد بعض اختلافات في الاناجيل من جهة الاسماء والعدد فذلك يُنسَب الى الناسخ

سابعًا انهُ لايمكننا ان نتصوَّر لشهود معجزات المسيح موجبًا لافشاء خديعةٍ . انه قد سبق الكلام بان كونهم لم يخدعوا انفسهم ظاهرٌ من ذات القضايا التي شهدوا بها ومن الفرصة التي كانت لهم لفحصها . فإنْ لم يكونوا خدَّاعين بكل تعمدٍ وقد توافقوا بخبثٍ على المكر بالناس فلا بد من وقوع المعجزات التي اخبروا بها . واما في كونهم خداعين فلا يمكننا ان نتصور كيف ان اناسًا ادنياء قاصرين في العلم يعتقدون انهُ يمكنهم ان يخدعوا العالم في امرٍ مثل هذا ولا الاسباب التي حركتهم لسلوك هذه الطريق . فانهُ

لابد انهُ كان لهم خيراتٌ عالمية يعتبرونها طبعًا فتركوا كل شي من ذلك ودخلوا على طريقٍ ليس فيها خطرٌ فقط بل هلاكٌ اكيد لكل مصالحهم العالمية. وعرَّضوا انفسهم لغضب الروساء وهياج الجمهور وهم قد عرفوا لامحالة انهم بذلك يجلبون على انفسهم انتقام الرياسة المدنية والدينية وان جميع انواع الشدايد امامهم. فلما صُلِب سيدهم ايُّ فايدةٍ ينتظرونها من الاخبار انهُ حيٌّ وقد صنع معجزاتٍ عظيمة. ولو ترجوا الخلاص من شرورٍ ظاهرة هكذا لاقنعهم حالاً الاختبار انهم قد تعاطوا امرًا ليس شريرًا فقط بل لافايدة لهُ. لانهُ لم يكن الا قليل من الزمان بعد ما ابتدأوا في شهادتهم حتى وجدوا انفسهم ملتزمين باحتمال الاضطهاد من اليهود والامم. فان كان ما حركهم الى ذلك محبة الاشتهار فاي اشتهارٍ يحقُّ لهم ان ينتظروهُ من قولهم ان رجلاً مصلوبًا هو معلمهم واساس جميع رجآيهم وثقتهم. ان الامر قد كان بالعكس فانهم عوض الاشتهار صادفوا الخزي. لانه لم يوجد اسمٌ مكروهٌ ومستهزأٌ بهِ كالاسم المسيحي. فلُعِنوا كأدنى اشرارٍ وجدوا منذ بدء العالم وكنفاية الدنيا واقذارها وكمزعجي الناس ومبلبليهم وكاعداء الالهة. واقتُفِيَت آثارهم كالقوم المَرَدة وعوقبوا لاجل مجرَّد اقرارهم بانهم مسيحيون. فهل يدوم والحالة هذه قومٌ على اذاعة الخديعة لاجل اشتهارٍ مثل هذا. والقول بانهم انتظروا ثوابًا في الاخرة مردودٌ لافتراض خديعتهم تعمدًا. لانهم كانوا

يقولون كل يومٍ بكل رزانةٍ ما يعلمون انهُ كاذبٌ. ولو صح هذا القول لصح ايضًا ان نقول ان القاتل او اللص يتحرك الى ارتكاب ذنوبهِ القبيحة من رجآء ثواب الاخرة

فلا يبقى لنا الاَّ ان نظنَّ انهم كانوا متوسوسين. لان المعهود ممن تسلطت عليه الوسوسة احتقار كل ما يُعتبَر عند الناس وكثيرًا ما يفعل افعالاً لا نعرف لها اصلاً. ولكن هذه المناضلة لا تصلح هنا لان اصحاب الوسوسة لابد ان يكونوا مصدقين غاية التصديق صحة الديانة التي يريدون انتشارها. واما اوليك فعلى الافتراض الواقع عليه البحث عرفوا ان ما اخبروا بهِ كان كاذبًا. والوسوسة والخداع لا يجتمعان. نعم ان ما يبتدي بالوسوسة قد ينتهي احيانًا بالخداع. ولكن في الامر الذي نحن بصددهِ لا بد من وجود الخداع في اول الامر كما في اخرهِ ولم يكن مكانٌ للوسوسة بل كان جميعهُ خداعًا ان لم تكن القضايا المخبر بها صحيحة. ولكن الدليل الاقوى على عدم كون الانجيليين اصحاب وسوسة يتخذ من كتاباتهم. فانها ابعد ما يكون من شبهة الوسوسة بل هي ابسط وارزن واخلى غرضًا من جميع ما قد كتب من الاخبار. فلم يحرك الكتبة جنونٌ ولم تلُح عليهم اشارات خيال مضطرب. ولكنهم كانوا يتكلمون ابدًا بكلام الحق والرصانة

ثامنًا لو اقنعنا انفسنا بان سببًا مجهولاً او شيئًا لا يخطر لنا

ببالٍ قد حرك الرسل الى اختراع خبر معجزات المسيح او ان جنونًا دخل عليهم وحركهم الى البقآء على اشاعة الكذب تحت كل مشقةٍ وشدة لما امكننا مع ذلك ان نصدق بانهُ يوجد من يتبعهم في البلاد نفسها والمدينة عينها التي زعموا ان المعجزات قد صُنِعَت فيها. لانه عند ما انتشرت اخبار هذه المعجزات العظيمة الكثيرة في اورشليم حيث شهد الرسل اولاً فلو كانت كاذبة أفلا يقول الناس ان هولآء الانفار ياتوننا باخبار غريبة عن مسامعنا فيخبرونا باعاجيب وقعت بيننا ولم نسمع بها قبلاً ويطلبون منا ليس ان نصدق اخبارهم الكاذبة فقط بل ان نترك جميع ما لنا واصحابنا وديانة ابآينا التي اقتبلوها من الله وفضلاً عن ذلك ان نجلب على انفسنا انتقام المتسلطين علينا وبغضة جميع الناس لنا واستهزآءهم بنا. فهل يُصدَّق والحالة هذه ان عاقلاً واحدًا يقبل اخبارهم

وفضلاً عن ذلك كان كهنة اليهود واكابرهم الذين صلبوا المسيح يكرهون جدًّا اشاعة هذا الخبر لانهُ اوقعهم في ذنبٍ قبيح. فلو كانت شهادة هولآء الشهود كاذبة أفما كانوا يجدُّون كل الجد في اظهار كذبها أوما كانوا يحصلون على مطلوبهم بكل سهولةٍ. فانهم كثيرًا ما يذكرون الاماكن التي صُنِعت بها المعجزات وذكروا احيانًا اسمآء الذين شُفوا من امراضهم او قاموا من الموت. فمسكن العازر الذي قام من الموت مثلاً لم يكن بعيدًا

من اورشليم الا نحو ميلين فقد كان بيان كذب قيامتهِ من اسهل الامور لو لم تكن صحيحة . وكثيرٌ من المعجزات المنسوبة الى المسيح قد صنعها في اورشليم وفي الهيكل نفسهِ . وبما انهُ اصرف زمانًا كثيرًا في هذه المدينة يصح الظن انهُ لم يكن واحد من سكانها جاهلاً بالكلية بالقضايا التي من شانها ان تشغل قلوب الجمهور وتحركهم الى الالتفات اليها . فلا يخفى ان مثل هذا الكذب لا يمكن ان ينجح تحت مثل هذه الظروف . لان وجود جماعةٍ من الاعداء شداد الخصام يمنع حالاً كل سعي في خداعٍ شنيعٍ عادم الاصل مثل هذا . نعم لو ادَّعى الرسل بان انسانًا من زمانٍ قديم او في بلاد بعيدة صنع معجزاتٍ مثل هذه لامكن ان يقنع بذلك بعض الناس . ولكنهم استشهدوا الذين وعظوهم لصحة اخبارهم ولم يمضِ الا اسابيع قليلة لموت يسوع حتى شهدوا بهذه الشهادة جهرًا في اورشليم . ومقاومة الروساء لم تمنع كثيرين عن قبولها وتقديم انفسهم تلاميذ لذلك الذي صلبوه حديثًا

تاسعًا ان الامر الاخير الذي اريد ذكرهُ لاجل الوقوف على صحة شهادة الشهود لمعجزات الانجيل هو انهُ لا توجد شهادة مضادة لها اي ان هولاء الشهود لم يقاومهم ولم يناقضهم شاهدٌ اخر . فمهما استحقت اخبارهم من التصديق لاجل ظروف الحال ومهما كان عندنا من الادلة على صدقهم وحذاقتهم لا ينقص منها شيءٌ من جرى شهادة مضادة لها . نعم ان كهنة اليهود وروساءهم

اذاعوا عن جسد المسيح بعد موتهِ خبرًا مضادًا لشهادة الرسل قد وصل الينا بواسطة الانجيليين وارشوا الجند ليخبروا ان تلاميذ المسيح جاءوا ليلاً وسرقوا الجسد وهم نيامٌ. ولكن كان ذلك محالاً ومخالفًا لنفسهِ حتى انهُ لا يحتاج الى ردٍّ البتة. مع انه من حيث ان الجسد لم يبقَ عندهم لربما لم يمكنهم اختراع خبرٍ اخر ظاهرهُ اكثر تصديقًا. وهذا الخبر نفسه لا يثبت الا ان الجسد اختفى والجند نيامٌ فلا برهان لهم على عدم قيامتهِ من الموت كما شهد الرسل

ان الكافرين يطلبون احيانًا شهادة اعداء الديانة المسيحية مع شهادة اصحابها. ولكن انتظارهم شهادةً من الاعداء بصحة ديانةٍ يقاومونها شيءٌ لا يوافق العقل. فيكون سكوتهم هو كل ما يُنتظَر منهم لانه اذ كانوا ينكرون هذه القضايا لو امكنهم يكون عدم انكارهم اياها هو اعظم البراهين التي يمكننا الحصول عليها. نعم انه سلبيٌّ ولكن لا يجب ان ننتظر دليلاً من اعداء الانجيل الا ما كان سلبيًّا او اتى على سبيل العَرَض. ما لم يقتنعوا من الادلَّة الموردة لهم مثل بولس الرسول. ولكن لم يبلغنا من احدٍ في ذلك العصر انكارٌ لحقيقة معجزات المسيح. وبحسب جميع ما عندنا من الاخبار لا دليل لنا على ان احدًا من اشدّ اعدائهِ انكرها. بل قال اليهود انهُ صنع اياتهِ بمساعدة بعلزبوب رئيس الشياطين. واول الذين كتبوا ضد الديانة المسيحية من الامم لم يتجاسروا على انكار

معجزات المسيح. فلم يدَّعِ سلسوس ولا برفوروس ولا هيروكليس ولا يوليانوس بان هذه الحوادث كانت كذبًا محضًا بل اجتهدوا في تعليل كيفية عملها ليخرجوها عن داية المعجزة. وعلماء اليهود في التلمود يعترفون بوقوع هذه المعجزات ولكن يعلّلون بانها تمّت بواسطة السحر او بقدرة اسم الله الذي يدعون دعوى مضحكةً ان يسوع سرقهُ من الهيكل حيث كان محفوظًا

فالمأمول الان انهُ مما سبق قد ظهر ان لنا من الشهادة ما يجعل معجزات الانجيل محلاً للتصديق عند كل من كان خاليًا من هوى النفس. فاننا قد اوضحنا ان المعجزات المذكورة معجزاتٌ حقيقية. وانها صنعت جهرًا امام الجمهور. وانهُ لم يكن ممكنًا ان يُغَشَّ الشهود. وانهُ كان للاعداء كل فرصةٍ وكل موجبٍ لتكذيب هذه القضايا لو كانت كاذبة. وان لنا كل دليلٍ على خلوص اصحاب الاناجيل وامانتهم. وان رسايل الرسل برهانٌ ثابتٌ على سبيل العرض على صحة هذه المعجزات. وان جميع المسيحيين منذ البدء كانوا بالضرورة يومنون بها ولهذا يجب ان نعتبرهم كشهودٍ. وانهُ لم يمكن ان يكون للشهود موجبٌ للمكر. وانهُ لم يمكنهم النجاح البتة في تزويرٍ كاذب مثل هذا ودعوة للايمان بهِ. وانهُ كان من اسهل الامور لروساء اليهود ان يظهروا كذب مثل هذه الاخبار لو كانت كاذبة. وان بداية التبشير في اورشليم ونجاح الديانة المسيحية هناك برهانٌ قاطع على صحة

المعجزات . وان ذهاب الرسل الى البلاد والمدن المتنوّرة ونجاحهم فيها لايطابق مذهب من ذهب الى انهم كانوا خدّاعين جهلة . واخيرًا انهُ لاتوجد شهادة مضادة لهذه المعجزات بل قد التزم اعداء الديانة المسيحية الالون ان يقرّوا بوقوعها

فبعد اعتبار هذه الامور اعتبارًا كافيًا والنظر اليها كما يجب ألّا يكون وقوع هذه المعجزات اقرب الى العقل من كون مثل هذه الشهادات التي تطابقها الظروف والنتايج كاذبةً . وان كانت هذه الشهادات كاذبة أفلا يحق لنا ان نرفض كل شهادةٍ تاريخية مهما كانت اذ لم يُشهَد لقضيةٍ من القضايا التاريخية كما شُهِد لهذه . ولا موجب لرفض هذه الشهادة الّا كونها معجزات وقد بيّنّا ان انتظار معجزاتٍ في مثل هذا الامر يوافق العقل وانها محتملة البرهان الكافي من الشهادة . ولهذا تكون النتيجة

صادقة ان معجزات الانجيل

محلٌّ للتصديق

الفصل الثامن

في ان نجاح الانجيل واتساعهُ اولاً بوسايط قليلة وضعيفة برهانٌ على ان ذلك كان من العناية الالهية

ان نجاح الانجيل اولاً تحت ظروف الحال حينيئذٍ من اعجب الوقايع المذكورة في التواريخ وهو امرٌ لا ريب فيهِ . فلم يمضِ الا قليلٌ من الزمان حتى آمن الوفٌ بالديانة المسيحية في اورشليم واماكن اخرى في بلاد اليهودية . وفي بلاد الوثنيين كان نجاحهُ اكثر سرعةً واتساعًا . فلم يمضِ نصف جيل بعد قيامة المسيح حتى قامت كنايس في اعظم مدن الولاية الرومانية جميعها التي كانت اذ ذاك ممتدة في اكثر الاقطار المعروفة حينيئذٍ من الدنيا . ومع ان الاضطهاد كان ثايرًا على المسيحيين حتى قُتِل منهم الوفٌ على اشنع طريقةٍ كان الحال يزداد نجاحًا . فضَرِب المثل ان دم الشهداء هو زرع الكنيسة . وما زال الامر ينمو ويتقدم حتى صارت الديانة المسيحية ديانة القياصرة واشراف ولايتهم وذلك في اقل من ثلثة اجيالٍ بعد قيامة المسيح

انهُ لامرٌ واضحٌ من التاريخ ان الديانة المسيحية غلبت واتسعت جدًّا في مدةٍ قصيرة بعد ما انتشرت اولاً . وشهادة هذه

القضية ليست ماخوذة عن كتب مورخين مسيحيين فقط بل يشهد بها ايضًا افضل المورخين الوثنيين. فقد شهد تاسيتوس وسويتونيوس وبلينيوس بان الديانة المسيحية كانت متسعة جدًّا في ايامهم. وبما ان شهادة مثل هولآء الشهود الذين لم يومنوا بالديانة المسيحية بل كانوا يكرهونها هي ذات قيمةٍ عظيمة في اثبات هذه القضية راينا ان نضع هنا ترجمة ما كتبوه في اللغة اللاتينية. لانه ربما تعسر مراجعته من مكانه على من يقف على هذا الكتاب

اما تاسيتوس فكان في الجيل الاول من السنين المسيحية وقد اشتهر مورخًا صادقًا عند الجميع. فهذا بعد ان اخبر عن النار المهلكة التي اخربت رومية في ايام الملك نيرون قال ولكن لا بمساعدة البشر ولا بالهدايا الثمينة التي قصد بها الملك استرحام الآلهة استطاع ان يرفع عن نفسهِ تعيير جميع الناس لاجل امرهِ باحراق المدينة. فلاخفآء هذا الخبر اوقع التهمة والشكوى على اخرين كان الشعب يبغضونهم قبل ذلك لاجل ذنوبهم فعذبهم عذابًا اليمًا. وكان اسمهم عند العامة مسيحيين اسمٌ اخذوه من المسيح رئيسهم الذي قُتِل كمذنبٍ في ملك طيباريوس عند ما كان بنطيوس بيلاطوس واليًا. وهذه الديانة المفسدة وان خمدت قليلاً قامت ايضًا وامتدت ليس فقط في اليهودية حيث ابتدأت بل وصلت الى هذه المدينة ايضًا التي ينصبُّ

اليها كل ما هو دني ونجس فيكون مقبولاً بها . فلم يُقبَض اولاً الاَّ على من اقرَّ بانهُ من اهل هذا المذهب . ثم قُبِض على كثيرين بموجب اقرار الذين حُكِم عليهم . وذلك ليس لاجل ذنب احراق المدينة فقط بل بالحري لاجل بغضتهم للجنس البشري . فالبسوهم جلود الوحوش الضارية واخرجوهم للفرجة ثم مزقتهم الكلاب او عُلِّقوا على الصلبان او أُشعِلوا ليلاً ليكونوا مصابيح في الظلمة

واما سويتونيوس فكان هو ايضًا في الجيل الاول ولكن طالت حيوتهُ الى ان دخل في الجيل الثاني . وهو مشهورٌ بانه مورّخ فطن محقق . فهذا قال ان اقلوديوس نفى من رومية اليهود الذين كانوا دايمًا يهيجون الشغب وكان المسيح رئيسهم . وفي ذكرِ حيوة نيرون قال وكان المسيحيون يُعاقَبون وهم قومٌ ديانتهم جديدة سحرية

ولكن شهادة بلينيوس هي اقوى تقريرًا للقضية التي نريد اثباتها مما كتبهُ غيره من المورخين الرومانيين . وهي موجودة في رسالةٍ كتبها هذا الفيلسوف الشهير الى الامبراطور ترايانوس في اول الجيل الثاني اذ يقول السلام من بلينيوس الى الامبراطور ترايانوس الى اخرهِ . انه من عادتي يا سيدي ان ارفع كل امرٍ يشوبني منهُ ريبٌ اليك لان من يستطيع ان يهديني في حيرتي ويعلّمني في جهلي احسن منك . انني لم احضر قبلاً في

محاكمة المسيحيين ولهذا ارى نفسي جاهلاً بالموضوع المسؤول عنه ونوع العقاب الواجب اجراؤهُ وكم ينبغي ان يُدقَّق الفحص . وكنت ايضاً مرتاباً في انهُ هل يجب ان يُميَّز في السن بين الصغير الضعيف والكبير القوي . وهل تُقبَل التوبة ويُمَنُّ بالعفو او يجب عقاب من كانوا مرةً مسيحيين وان كانوا قد ارتدُّوا . وهل يجب العقاب لاجل الاسم مجرَّدًا من غير شكوى بذنبٍ او تجب معاقبة الذين كانوا بهذا الاسم لاجل ذنوبٍ كانت عليهم . ولكن الطريقة التي اتَّبعتها في الذين أُحضِروا اليَّ منهم انما هي اني سألتهم هل كانوا مسيحيين وعند اقرارهم بذلك سالتهم ثانيةً وثالثةً متهددًا اياهم بالقتل . واذ اصرُّوا على اقرارهم امرت باخراجهم للقتل . لانني مهما كانت حقيقة ذنبهم لم اشك في ان الاصرار والعناد بهذا المقدار يستحقان العقاب . والبعض ممن دخل هذا الجنون عليهم اذ كانوا مستوطني رومية افرزتهم للارسال الى تلك المدينة . وبما ان هذا الذنب انتشر في مدةٍ يسيرة كالعادة قد وقع تحت نظري دعاوٍ مختلفة . منها انهُ اتاني ذات مرةٍ صحيفةٌ لا يُعرَف كاتبها فيها اسماء كثيرين مشكوًّا عليهم بكونهم مسيحيين فانكروا ذلك حالاً وقبلاً . ولاجل اثبات صدقهم اتَّحدوا معي في الصلوة للالهة ولصورتك التي امرت ان يُؤتَى بها مع تماثيل الالهة لاجل هذه الغاية . وفضلاً عن ذلك قدموا قرابين الخمر والبخور ولعنوا اسم المسيح . والحال انهُ لا يمكن الزام الذين هم مسيحيون بالحقيقة ان

يصنعوا شيئًا من ذلك. ولهذا حكمت باطلاقهم. واخرون ممن سمّاهم المخبّر اقرُّوا اولاً بكونهم مسيحيين ثم انكروا. ومنهم من قالوا انهم كانوا مسيحيين قبلاً ولكنهم ارتدُّوا منذ اكثر من ثلث سنين والبعض منذ عشرين سنة. وهولآء جميعهم سجدوا لصورتك ولتماثيل الالهة ولعنوا المسيح. ولكنهم حقّقوا ان ذنبهم انما كان هو عادتهم ان يجتمعوا قبل النهار في يومٍ معلوم ليرتلوا جميعًا نشيدةً للمسيح كما لالهٍ ويعاهدوا انفسهم بقسمٍ عظيم ان لا يرتكبوا معصيةً بل بالعكس ان يمتنعوا عن السرقة والزنآء وايضًا ان لا يخالفوا وعدهم او ينكروا رهنًا تسلَّموهُ. وبعد ذلك كانوا ينصرفون ثم يجتمعون على طعامٍ بالهدوّ والوقار. ولكنهم كانوا قد تركوا ذلك منذ اشهار امري الذي بحسب رسمك منعت بهِ هذه الاجتماعات. فعند ما سمعت بهذا الخبر رايت احتياجًا ان افحص بالعذاب امرأتين تسمَّيان شماستين. ولكنني لم اجد الاَّ خرافاتٍ زايدة فاسدة. ولذلك وقّفت المحاكمة طالبًا منك المشورة. لاني ارى ان الامر مستحقٌّ كل الاعتبار ولاسيما لاجل كثرة عدد الذين هم في خطرٍ من حيوتهم. اذ يُشكَى كثيرون من الناس من كل سنٍّ وحالةٍ من الرجال والنسآء وسيقع ايضًا كثيرون في هذه الحالة. لان هذه الخرافة لم تملأْ المدن فقط بل القرى والكُوَر ايضًا. ومع ذلك يبان لي انه يمكن ان يُحجَز ويُصلح الحال. لان الهياكل التي كان قريبًا ان تُترَك يُتَردَّد الان اليها

ايضًا والاحتفالات المقدسة التي كانت قد انقطعت من زمانٍ رجع الان الناس اليها وذبايح للذابح التي ما كاد احدٌ يشتريها من مدةٍ تباع الان بكل سهولةٍ. ومن ثمَّ يقرب الظنُّ بان جمعًا غفيرًا يرجعون لو بقي باب التوبة مفتوحًا

فاجابهُ الامبراطور بهذه الصورة السلام من ترايانوس الى بلينيوس. انك قد اتَّبعت الطريق الحسنى ايها العزيز في معاملتك للذين أُحضِروا اليك على انهم مسيحيون لانهُ من المحال ان نضع ضابطاً جامعًا يحتوي على كل قضيَّة. فلا يجب التفتيش عليهم ولكن اذا أُتِي بهم اليك وثبت عليهم انهم مسيحيون فلا بد من معاقبتهم. ولكن ان انكر احدٌ انهُ مسيحي واثبت قولهُ بعملهِ اي بعبادة الهتنا فيُعفَى عنهُ لتوبتهِ ولو وقعت عليهِ الشبهة بانهُ كان مسيحيًّا قبل ذلك. ولكن لا تُقبَل البتة رقعةٌ فيها شكوى على احدٍ ما لم يكن فيها اسم الشاكي. لانهُ يكون ذلك مثالاً خطرًا وليس مناسبًا لهذا العصر. انتهى

ولو اردنا ايراد شهادة اخرين من الوثنيين لامكننا ذلك ولكننا تركناها للاختصار. فنكتفي بذكر شهادة ايريناوس وترتوليانوس من اباءِ المسيحيين اللذين كانا في نهاية الجيل الثاني وبداية الجيل الثالث وهي كافية لايضاح اتساع الديانة المسيحية حينئذٍ من دون شبهة

اما ايريناوس فانه اذ كان يكتب في مطابقة ايمان المسيحيين

قال لا الكنايس في جرمانيا ولا كنايس ابيريا او بريتانيا ولا كنايس المشرق او مصر او القيروان او الكنايس المنشاة في اوساط الارض يومنون او يعلّمون شيئًا اخر. انتهى

واما كلام ترتوليانوس فهو اكثر موافقةً لمقصودنا ولا نحتاج الى شي اخر لاجل ايضاح مقدار امتداد الديانة المسيحية في اقلّ من ماية سنة بعد موت اخر الرسل. وذلك حيث يقول هذا المعلم بمن قد امنت جميع القبايل الاّ بالمسيح الذي قد اتى. لانه بمن يومن جميع الطوايف الا طايفتكم ايها اليهود. الفرثيون والماديون والفرس واهل ما بين النهرين وارمينية وفروغيا وكبودوكيا وسكان بنطوس. واسيا وبمفيليا ومصر وافريقية وراء القيروان والرومانيون والغرباء واليهود في اورشليم والدخلاء حتى قبايل جثولي المختلفة وعشاير المغرب المتعددة وجميع اهالي سبانيا وقبايل شتّى من فرنسا واقاليم بريتانيا التي لم يمكن الرومانيين الدخول اليها ولكن المسيح قد اخضعها ومن السامريين والداشيين والنمساويين والشطيين وشعوب وبلدان وجزاير غير معروفة عندنا ولا يمكننا تعدادها. ففي جميع هذه الاماكن يملك الان اسم المسيح الذي اتى. لانهُ من يقدر ان يتسلط على جميع هولاء الا المسيح ابن الله

ولنا ايضًا شهادةٌ اخرى من هذا الاب في اعتذارهِ الذي هو كتاب شهير يحامي عن الديانة المسيحية كتبهُ قبل انتهاء

الجيل الثاني بقليل والظاهر انهُ خاطب بهِ والي افريقية وغيرهُ من حكام تلك النواحي وقد كان هو احد سكانها. ففي اعتذارهِ المذكور يقول لو كنا نحن المسيحيون نريد ان نتجهز لمقاومة اضدادنا سرًّا وجهرًا لوُجِد منا عددٌ كافٍ لذلك. فان كثيرين من قبايل المغرب وداخل افريقية وغيرهم من القبايل البعيدة الى اقاصي الارض والمتفرقة في كل العالم هم معنا. نعم اننا نحن اولاد امس ولكننا قد ملأْنا جميع اماكنكم مدنكم وجزايركم وحصونكم وقراكم ومحاكمكم وعساكركم وقبايلكم وسراياتكم ومشيختكم ودواوينكم ولم نترك لكم سوى هياكلكم. ولو نزحنا عنكم وانتقلنا الى بلاد اخرى لكان مجرَّد خسارة اناسٍ كثيرين بهذا المقدار يقلب دولتكم ويكون قصاصًا كافيًا لكم. كنتم بلا شك تخافون من وحدتكم وكان السكون والهدو الحاصلان من ذلك يجعلان البلاد التي تستولون عليها تتراءى للناظرين كانها ميتة ويكون عند ذلك عدد اعدآيكم اكثر من عدد الباقين منكم. انتهى. ولا حاجة الى ايراد شهادات غير هذه لان الامر واضحٌ مسلَّم وفي مدةٍ يسيرة صار اكثر اهالي المملكة مسيحيين علانيةً

ان العلمآء من الكافرين قد اجتهدوا عبثًا ان يقدموا سببًا كافيًا لهذا الحادث العظيم مبنيًّا على مبادي طبيعية. فمن اشهرهم كبُن الذي بذل جهدهُ في تقديم اسباب لنمو الديانة

المسيحية ونجاحها. ولكن مع كونهِ قد سلك طريق الظن ولم يحفل بشهادة المسيحيين لم ينتفع شيئاً من اجتهادهِ. والاسباب التي قدمها لم تكن كافيةً بالكلية. فعلى مبادي الذين ينكرون الوحي يكون انتشار ديانة المسيح انما هو انقلاب عظيم من غير عللٍ كافية. ونجاح اناسٍ سُذَّج اميين اكثرهم صيَّادوا سمك لاقوة لهم ولا سلاح غير البراهين في تغيير ديانة العالم لايزال الى الابد من دون علةٍ كافية لحدوثهِ مالم نسلّم بصدق المعجزات والمساعدة الالهية

ويمكننا اعتبار قوة البرهان الناتج من سرعة انتشار الانجيل وامتدادهِ اذا تاملنا اولاً عدم كفاية الذين كانوا الوسايط لاجراء هذا العمل من دون مساعدة فايقة الطبيعة. لانه لم يكن فيهم علم ولا حكمة لكي يُصدِروا في عقول الناس تاثيراً كافياً لاجل احداث مثل هذه الحركة. اذ من المعلوم انهُ لايمكن لجماعةٍ قليلة من اليهود الاميّين ان يتعلموا لغات جميع القبايل الذين انتشر بينهم الانجيل في مثل هذا الزمان اليسير. فلا بد لهم من موهبة الالسن والاَّ لم يكن ممكناً حصولهم على هذه الغلبة. وفضلاً عن ذلك يجب النظر الى ان اليهود كانوا محتقرين من جميع القبايل المجاورة لهم. فلا يخفى ان اشخاصاً منهم قليلين وادنياء في الظاهر لم يمكنهم احداث شي في المدن العظيمة سوى الهزء والاحتقار. وانهُ لاقرب الى العقل ان جماعة فقراء من اليهود

اصحاب الصنايع يردُّون الان الى ديانتهم جماعاتٍ كثيرة في جميع المدن الشهيرة في اوروبا من ان يكون هولآء قد استطاعوا ترجيع كثيرين في ايامهم

ثانيًا ان الاماكن التي فيها بُشِّر اولاً بالانجيل وحصل على نجاحٍ عظيم تعطي برهانًا قاطعًا على ان امتدادهُ لم يكن بمجرد الوسايط البشرية. لان هذه الاماكن لم تكن منفردة ولا بعيدة عن نور العلم ولكن كانت من المدن العظمى في تهذيب اهلها وتمدنهم وكان فيها كل نوعٍ من علوم ذلك العصر واليها كانت تتقاطر العلمآء. فكانت دمشق وانطاكية وافسس وقرنثية وفيلبي ورومية هي الاماكن التي اشرقت فيها بشارة الانجيل اولاً. وعلى ما يُعرَف لم توجد مدينةٌ شهيرة في المملكة الرومانية الاَّ وقد أُسِّسَتْ فيها كنيسة مسيحية قبل موت الرسل. ولا يخفى ان هذا الامر لم يكن في جيل مظلم بل كان في جيلٍ يعترف الجميع بانهُ كان من اعلم الاجيال القديمة. وهو الجيل الذي كان بعد الجيل الاوغسطاني الذى اشتهر لدى الخاص والعام بالعلمآء الماهرين والادبآء البالغين. فلو كان الانجيل تزويرًا لما كنا نرى المبشرين بهِ يذهبون اولاً الى مثل هذه الاماكن. ولو ذهبوا لانكشف امرهم في الحال

ثالثًا كانت الموانع اللازمة الغلبة عليها عظيمة تفوق القدرة البشرية. فان جميع الناس كانوا متمسكين بخرافاتهم

المختلفة التي تربّوا فيها وهي كانت من شانها ان تتمسك بها العقول الفاسدة. فلا يخفى ان الحصول على الاستماع من اناسٍ في هذه الحال امرٌ صعب كما هو واضحٌ من اخبار جميع المرسلين للتبشير بالانجيل عند من لايعتقد بهِ في هذه الايام. وانه قد توافقت عليهم الفلاسفة والكهنة والروساء وكان يعترض في طريقهم كل ما امكن ان يقاومهم من العلم والفصاحة والتعصّب وسلطان الحكم المدني والميل الى الخير العالمي

ولم يتوافق عليهم الكهنة والفلاسفة والحكام فقط بل كان غرض الجمهور في الديانة الفاسدة التي تربّوا فيها يملاهم غيرةً شديدة على مقاومة كل ما استُعمِل من الوسايط لردّهم من ضلالتهم. وفي كتاب اعمال الرسل قد ذُكِر كثيرٌ من الامثلة على ان غضب الشعب الشديد من اليهود والامم كان يحركهُ الى معاملة المبشرين بالانجيل حينيئذٍ بالظلم والقساوة. ففي احدى هذه الفتن مات استفانوس شهيدًا وفي فتنةٍ اخرى وقعت في الهيكل كاد بولس يُمزَّق من عنف الشعب. والجميع يعرفون اي فتنةٍ اهاجها ديمتريوس الصايغ في افسس. والظاهر انهُ لم يُذكَر في اعمال الرسل الا قليلٌ من الفتن التي فيها وقع المسيحيون في خطر الاغتصاب. لان بولس في رسالتهِ الثانية الى القرنثيين يقول ابتليت من اليهود بالجَلْد خمس مراتٍ وجُلِدت اربعين غير جلدةٍ وضُرِبت بالقضبان ثلث مراتٍ ورُجِمت مرةً واحدة.

ولا يبعد عن العقل ان جميع الرسل والمبشرين الاولين عوملوا بمثل هذه المعاملة . ولولم يصبّرهم الله ويساعدهم لما امكنهم احتمال هذه المشقّات العنيفة . ومن باب اولى لما امكنهم الاتيان بالوف وعشرات الوف لاخضاع انفسهم تحت نير المسيح وتعريض انفسهم للعار والاضطهاد اللذين كانوا في خطرٍ دايمٍ منهما

رابعًا لم تكن شروط التلمذة التي قدمها الرسل والتعاليم التي علّموا بها مناسبةً لاغراء الناس وتمليقهم بل انها كانت منافيةً لعقولهم جدًّا . فلا يخفى ان المزوّرين عند ما يريدون اذاعة ديانةٍ جديدة يجتهدون في جعل تعاليمهم ورسومهم مناسبةً لمذاق الذين يقصدون تلذتهم . ولكن واضع الديانة المسيحية ورسلهُ لم يسلكوا مثل هذه الطريق المرضية للبشر . بل كان اول ما طلبوهُ ان ينكر الانسان نفسهُ ويحمل صليبهُ . وكانوا يامرون الذين يسمعونهم بالتوبة وترك الخطايا مهما كانت نافعة لهم او لذيذة او قديمة ومتملكة عليهم ويطلبون منهم طلبًا جازمًا ان يرضوا بترك جميع املاكهم العالمية واعزّ اقربايهم واصحابهم لاجل الانجيل . ولم يكتفوا بهذا فقط بل قالوا لهم صريحًا انهُ يجب عليهم ان يكونوا مستعدين لترك حيوتهم ايضًا عند ما لا يستطيعون حفظها بدون مخالفة المسيح . ولم يضعوا امامهم انتظار الراحة او الشرف في هذا العالم بل حققوا لهم ان الاضطهاد نصيبهم ما داموا احياءً وانهم يقعون في مضايق كثيرة وان ليس لهم جزاءٌ الاَّ سلامة

الضمير وفي الاخرة الحيوة الابدية . فهل يوجد مزوّرون جهلاء بهذا المقدار حتى يقدموا مثل هذه الشروط . وعلى افتراض كونهم كذلك هل يصدّق احدٌ انهم ينجحون في تحويل الناس الى اتّباع طريقهم . ولا حاجة الى برهانٍ اخر على ان الديانة المسيحية من الله غير التامل بشروط التلمذة وكثرة عدد التلاميذ من كل عمر وكل بلادٍ ورتبةٍ

وقد تمّ بالفعل ما قررهُ المسيح ورسلهُ للمومنين الاولين من انتظار الاضطهاد والموت ومع ذلك لم يتوقف نجاح الديانة المسيحية . فانه قد قُتِل كثيرون من المسيحيين ولكن لم تزل الديانة في النمو وامتدت في كل ناحيةٍ . وبما ان الديانة المسيحية نمت تحت الاضطهاد الدموي قد اتخذ كثيرون ذلك قاعدةً فقالوا ان الاضطهاد يُنمِي كل دعوى . الا انهُ لا يمكننا ان نتصور امرًا ابعد عن مقتضى العقل والاختبار من هذه القاعدة . لانه في اكثر الاحوال يكون قتل روساء حزبٍ مهما كانت غيرتهم شديدةً سببًا لتناقص دعواهم ثم تلاشيها بالتمام . ولا يمكننا ان نقدم سببًا لنجاح الديانة المسيحية تحت عشرة اضطهادات مخضبة بالدماء الا بان نقول ان الله بنعمتهِ اقنع الناس فى اتباع الحق واعطاهم شجاعة فايقة طور البشر في احتمال الشدايد لاجل ديانتهم . نعم انه قيل جوابًا لهذا البرهان انهُ قد يحتمل الناس الموت لاجل ديانةٍ كاذبة كما يحتملونهُ لاجل ديانةٍ صحيحة وانهُ

لامرٌ واقعٌ ان اناساً اقتبلوا الموت لاجل تعاليم متناقضة. فنقول ان ذلك صحيحٌ لكنهُ لا يتعرض لما نحن فيهِ الان. لان الموت لاجل المذهب انما يثبت بكل صراحةٍ صدق الشهود. وذلك في ما نحن فيهِ الان يثبت صحة القضية التي تتعلق بها المسئلة. لاننا قد راينا ان كل شهيدٍ كان لهُ فرصةٌ لمعرفة صحة القضايا المؤسَّسة عليها الديانة المسيحية. فباحتمالهِ الموت شهادةً لها قد اعطى احسن الشهادات التي يمكننا ان نتصورها

ثم ان ما احتملهُ المسيحيون الاولون من العذاب لاجل ديانتهم كان شديداً جدًّا ويشهد بهِ المورخون من الامم كما من المسيحيين. والذي يثبت برهاننا الى غاية ما يكون هو انهُ كان يمكنهم الخلاص حالاً من جميع عذاباتهم لو رفضوا الديانة المسيحية. ولم تكن عند مضطهديهم غاية سوى الجائهم الى ذلك. وكانوا يخيّرونهم دايمًا بين تقديم الذبيحة او البخور لالهتهم وبين احتمال العذاب. فقد كانت كلمة واحدة كافيةً لخلاصهم وعملٌ هينٌ كافيًا لرجوعهم الى خيرات العالم وشرفهِ. ولكنهم تمسَّكوا بما كانوا عليهِ اشدَّ التمسك. نعم ان بعضهم سقط من شدة قساوة المعذبين ولكن لم يُسمَع قط من احدهم انهُ كان بينهم شيءٌ من المكر والتزوير. بل كان الذين تنكسر شجاعتهم في ساعة العذاب لا يزالون متاسفين على ضعفهم كل ايام حيوتهم. والحاصل انهُ لم يُقتَل احدٌ لاجل الديانة المسيحية قهرًا بل كان كل شهيدٍ يبذل

نفسهُ باختيارهِ تمسكًا بالحق وحفظًا لسلامة الضمير

خامسًا يجب النظر الى مصايب المسيحيين الاولين من وجهٍ اخر وهو السجايا التي ظهرت منهم حينما كانوا يحتملون كل نوع من العذاب. فان اناسًا من كل سنٍّ ورتبةٍ ذكورًا واناثًا قد اظهروا تحت العذاب الاليم المستطيل شجاعةً وصبرًا ووداعةً وروح محبةٍ وسماحٍ وبشاشةً وسرورًا عظيمًا لا نظير لهُ في تاريخ جميع العالم. فرحوا عند ما امسكهم الظالمون وتودَّعوا من اقرب الاهل واعزّهم بكل بشاشةٍ ودخلوا في النار بكل فرحٍ وترحَّبوا بالوحوش الضارية التي أُطلِقت عليهم لتفترسهم وتبسموا لما رأَوا تلك الآلات التي تمزقت بها لحومهم وتخلعت مفاصلهم وتكسرت عظامهم ولم يتذمَّروا ولم يظهر عليهم التألُّم حينما اشتعلوا بالنار وعند ما حُكِم عليهم بالموت طلبوا من اصحابهم ان لا يتعرضوا لسعادتهم اي الموت في سبيل الله ولو بالصلوات لاجل نجاتهم. فما هذه الشجاعة الفايقة القدرة البشرية. واي روحٍ اعان هذه الجماعة الحقيرة المضطهدة. واية مبادي طبيعية في تركيب الانسان تكون علةً كافيةً لهذه الغلبة على الالم والموت. هل يحركهم الغرام بمزورٍ الى مثل هذه الحاسيات. كلاَّ بل حضور يسوع الذي قام من الموت الموعود بهِ هو الذي ساعدهم وملأَهم ثقةً وسرورًا. والفاراقليت الموعود به من ربهم هو الذي احيى في قلوبهم تلك البهجة التي كادت تجعلهم غير مشعرين بجروح والام اجسادهم.

نعم قد يحتمل العذاب ذوو الكبرياء والعناد لاجل ما يعلمون باطنًا انهُ كاذبٌ. واما جماعات شتى من كل رتبةٍ فمن المحال ان يحتملوا العذاب بالفرح لاجل ما يعلمون انهُ زورٌ. والحال ان نساءً مخدَّرات وشيوخًا طاعنين في السن كانوا من اشجع الشهداء اذ كانوا لم يحبوا حياتهم حتى الموت وشهدوا وختموا شهادتهم بدمايهم. والان قد تسربلوا بثيابٍ بيضاء وهم يسبحون تسبحة موسى والخروف والنخل فى ايديهم.

فطوباكم ايها الشهداء قد استرحتم
من اتعابكم واعمالكم
تتبعكم

الفصل التاسع

في ما تمَّ من النبوات على شعب اليهود بنوعٍ عجيب

ان الكتاب المقدس يتضمن نبواتٍ بحوادث لا يمكن الحذاقة البشرية سبوق المعرفة بها وقد تمت هذه النبوات تماماً كلياً على نوعٍ عجيب. ولو لم نقصد ان نضع اقوالاً عمومية جامعة في ادلة الوحي لم نتعرض هنا لذكر النبوة اذ لا يمكننا القيام بحقها في مثل هذه الرسالة الوجيزة لكثرة اتساع هذا الموضوع وعظم صعوبة الكلام بالاختصار على ما يتضمنهُ من البرهان. وليس المراد بهذا الكلام ان دليل النبوة ادنى قوة من غيرهِ بل بخلاف ذلك لا ريب ان كل من ياخذ في البحث المدقق في ما نحن فيهِ يجد ان لا دليل لصحة الوحي يفوقهُ في شدة قوتهِ للاقناع. وللنبوة من حيث هي دليلٌ على الوحي الالهي بعض فوايد مختصة بها. لاننا نحتاج في البرهان من المعجزات الى شهادةٍ قديمة ولكن احياناً يقع اشياء من النبوات تحت ملاحظتنا او تصل الينا بواسطة شهودٍ احياء. ولا يصير البرهان من المعجزات اوضح مما كان في وقت حدوثها ولكن البرهان من النبوات تتزايد قوتها دايماً ولا يزال على ذلك الى ان تتم جميع النبوات. لان مجرَّد

اذاعة النبوة ليس دليلاً على انها منهُ تعالى بل البرهان انما يقوم باتمامها. فبما انهُ قد تمت نبواتٌ في كل جيلٍ ومنها ما سوف يتم في ما بعد فالامر واضحٌ من نفسهِ ان هذا البرهان لا يزال متزايدًا في القوة

ثم يجب ان نلاحظ جيدًا ان كل نبوةٍ قد تمت هي بنفسها دليلٌ تام على الوحي الالهي. او بالحري هي نفسها وحيٌ. اذ من المعلوم انهُ لا يستطيع احدٌ الا الله ان يخبر عن الحوادث المستقبلة البعيدة وهي متوقفة بالكلية على قصد تعالى الذي يصنع الاشياء كلها بحسب راي مشيتهِ. ولهذا ان امكننا ان ناتي بنبوةٍ واحدة لا ريب في اتمامها نكون قد اثبتنا انزال الوحي. وان وقع ذلك مرةً وبشخصٍ واحدٍ فالاقرب للعقل ان هذا الانعام لا يختص بهِ وحدهُ

وما يقال كثيرًا ان اكثر النبوات غامضة ومعناها مشتبه لا يتعرض للدليل الناتج مما هو واضحٌ منها وقد تمَّ على التمام. ولا يخفى ان لاكتساء الكلام عن هذه الحوادث المزمعة بعض الاوقات بثوب الاستعارة والايماء اسبابًا عظيمة حتى انه على الارجح لم يفهم النبي نفسهُ معنى ما نطق بهِ من النبوة لانه لم يُقصَد انها تُفهَم على التمام حتى ياتي التفسير باتمامها. واذ ذاك تتزايد لذة درس النبوات يومًا فيومًا ويتزايد منه برهان صحة الكتب المقدسة

والمراد الان انما هو ذكر بعض نبوات مشهورة والاشارة الى الحوادث التي تمت بها مما يحتملهُ هذا المختصر. ومن اراد التوسع الى ما هو اطول فليراجع كتاب البينة الجلية وغيره. والنبوات التي اريد ذكرها الان هي اولاً ما تنبَّأَ بهِ موسى على اليهود واكثرها موجودٌ في الاصحاح السادس والعشرين من سفر الاحبار والاصحاح الثامن والعشرين من سفر تثنية الاشتراع

وذلك اولاً قولهُ سياتي الرب عليك بشعبٍ من بعيدٍ من اقصى الارض بسرعةٍ كسرعة طيران النسر شعبٍ لسانهُ لاتفهمهُ. وقد تمت هذه النبوة بافتتاح الكلدانيين والرومانيين ارض اليهودية وعلى الخصوص افتتاح الرومانيين. لان ارميا في نبوتهِ على افتتاح الكلدانيين قد استعمل كلمات موسى بعينها الاَّ قليلاً حيث يقول هنذا اجلب عليكم شعبًا من بعيدٍ يا بيت اسرائيل وهو شعبٌ قديمٌ شعبٌ لاتعرف لغتهُ.(١) وقال ايضًا الذين طردونا كانوا اسرع من نسور السماء.(٢) ومن الاولى ان يقال عن الرومانيين انهم شعبٌ من بعيد وان فتوحاتهم شبيهة بطيران النسور وقد كان على راية جيوشهم صورة نسر ولغتهم لا يعرفها اليهود

(١) ارميا ص٥ ع١٥ (٢) مراثي ص٤ ع١٩

ثم ان اعداء اليهود يُوسَمون في الكتاب المقدس بكونهم قومًا ذوي منظر هايل لا يعتبرون الشيوخ ولا يترفقون بالصغار.[١] وذلك يطابق صفة الكلدانيين مطابقة تامة اذ قيل في سفر الايام الثاني[٢] ان الله اوقع اليهود في يد ملك الكلدانيين الذي قتل غلمانهم بالسيف في بيت مقدسهم ولم يترأف على غلامٍ او عذراء او شيخ او من انحنى من الهرم. انتهى. ومثل ذلك كان الرومانيون اذ اخبرنا يوسيفوس انهُ لما جاء فسباسيانوس القيصر الروماني الى كدارا قتل الجميع انسانًا انسانًا ولم يشفق الرومانيون على احدٍ. ومثل ذلك فعلوا في كما لا

ثانيًا تُنبِّيَ ايضًا ان مدنهم تُحاصَر وتوخذ. وعلى ذلك قولهُ وسيحاصرك في جميع ابوابك الى ان تقع اسوارك العالية المشيَّدة التي اتكلتِ عليها. وقد تمَّ ذلك عند ما جاء شلمانصر ملك الاثوريين على السامرة وحاصرها.[٣] وعند ما جاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا المسوَّرة. وعند ما فتح بختنصر اورشليم واحرق الهيكل وهدم ما احاط بها من الاسوار.[٤] وطالما وثقت اليهود بحصون اورشليم وقد وصفها تاسيتوس ويوسيفوس بشدة

(١) تثنية الاشتراع ص٢٨ ع٤٩ (٢) ص٣٦ ع١٧ (٣) (ملوك رابع ص١٨ ع٩ وع١٠ (٤) ملوك رابع ص٢٥ ع١

الحصانة. ولكنها حوصرت وفتحت مراتٍ كثيرة قبلما اخربها تيطس اخيرًا

وتُنبِّئ ايضًا عليهم انهم في الحصارات يقعون في الجوع والضيقة الشديدة التي يضيّق بها عليهم اعداؤهم. فقد كان في السامرة مدة الحصار جوعٌ عظيم حتى بيع راس الحمار بثمانين درهمًا.(١) وعند ما حاصر بختنصر اورشليم كان جوعٌ في المدينة ولم يوجد خبزٌ لاهل الارض.(٢) وعند ما حاصرها ايضًا الرومانيون كان جوعٌ شديد الى الغاية(٣)

وقيل ايضًا ان في هذه المجاعات تكون النساء ياكلن اولادهنّ. وعلى ذلك قول موسى ستاكلون لحوم بنيكم وبناتكم. وكذلك قول ارميا ستاكل ثمرة جسدك.(٤) وقول الاخر ايضًا والمراة الرقيقة اللطيفة بينكم التي لاتتجاسر على وضع رجلها على الارض رقةً ولطافةً ستاكل اولادها احتياجًا الى الاشياء كلها سرًّا في الحصار والضيقة التي سيضيق عليكِ اعداؤك بها في ابوابك. فقد تمت هذه النبوة الفايقة الطبع بعد ما نطق بها النبي بستماية سنة وذلك حين حاصر ملك سوريا السامرة بحيث اتفقت امرأتان على اكل اولادهما وعلى ذلك أُكِل

(١) ملوك رابع ص٦ ع٦ (٢) ملوك رابع ص٢٥ ع٣ (٣) انظر يوسيفوس في حروب اليهود (٤) ص٢٨ ع٥٣

واحدٌ منهم.[1] وتمت ايضًا بعد موسى بتسعماية سنة حين حاصر الكلدانيون اورشليم كما اخبر ارميا في مراثيهِ قايلاً ايادي النسوة الرحيمات قد طبخت اولادهنَّ.[2] وتمت ايضًا بعد زمان موسى بالف وخمسماية سنة حين حاصر الرومانيون اورشليم اذ قد اخبرنا يوسيفوس عن امراة شريفة قتلت رضيعها واكلتهُ وبعد ما اكلت نصفهُ اذخرت الباقي لتاكلهُ في وقت اخر

ثالثًا تُنبِّئ ايضًا ان كثيرين من اليهود يُقتَلون. وعلى ذلك قولهُ وتبقون قليلي العدد مع انكم كنتم كنجوم السماء في الكثرة. فقد حُسِب انهُ في حصار تيطس لاورشليم هلك احدى عشرة كرةً من الجوع والوبا والسيف. وربما لم يهلك منذ خليقة العالم في حصار واحد كما هلك في ذلك الحصار. وسبب وجود جمهور عظيم هكذا في اورشليم كان ان ابتداء الحصار وافق اجتماعهم للفصح وايضًا حينما جاء العسكر الروماني هرب القاطنون في ما حول اورشليم اليها

وتنبا ايضًا موسى ان اليهود يساقون ايضًا الى مصر ويباعون عبيدًا بثمنٍ بخس جدًّا ووصف كيفية جلبهم الى هناك بقولهِ وسياتي الرب بك الى مصر مرةً ثانية في السفن وهناك تباعون لاعدايكم عبيدًا واماءً ولا يشتريكم احدٌ. وقد اخبرنا يوسيفوس

(١) ملوك رابع ص٢ ع٢٨ وع٢٩ (٢) ص٤ ع١

انهُ لما اخِذَت المدينة ارسلوا كل من كان فوق السبع عشرة سنة من الاسارى للعمل في مصر ولكن لقلة الالتفات اليهم هلك منهم احد عشر الفًا من الجوع. والارجح وان لم يذكر هذا المورخ كيف اجتنبوا ان ذلك كان في السفن لانه كانت للرومانيين يومئذٍ سفن كثيرة في هذا البحر. ولكثرتهم لم يوجد من يشتريهم فكانوا يباعون بابخس ثمن

رابعًا ان موسى تنبَّأ ايضًا في هذه النبوة العجيبة ان اليهود يستاصلون من بلادهم ويتشتتون بين جميع القبايل. وعلى ذلك قولهُ ستُقلَعون من الارض حيث انت ذاهبٌ لتملكها وسيفرقكم الرب بين كل الشعوب من اقصى الارض الى اقصاها. فما اعجب اتمام هذه النبوة اذ ساق ملك الاثوريين الاسباط العشرة من بلادهم اولًا ثم اجتلب السبطين الاخرين الى بابل واخيرًا لما اخرجهم الرومانيون من مكانهم وقبيلتهم كل تشتتهم

ثم منع الامبراطور ادريانوس اليهود من وضع ارجلهم في اورشليم والتقرُّب الى ما حولها من البلاد تحت عقاب لمن خالف امرهُ. وفي ايام ترتوليانوس كانوا ممنوعين عن الدخول الى اليهودية. ومن ذلك اليوم الى الان عدد اليهود في البلاد المقدسة قليلٌ جدًّا فلا يزالون منفيين من بلادهم متفرقين في كل بلدٍ على وجه الارض الا قليلاً

وتُنبّي ايضًا انهم ولو تفرقوا لا يهلكون هلاكًا تامًّا بل يبقون شعبًا ممتازًا. وعلى ذلك قولهُ ومع ذلك حين يكونون في ارض اعدآيهم لا اتركهم ولا ابغضهم بحيث اهلكهم عن اخرهم وانقض عهدي معهم. فنقول مع الفاضل نوطون ما اعجب انه بعد حروبٍ ووقايع ومحاصرات هذا مقدارها وعصيان وذبح واضطهاد مراتٍ عديدة وسنين كثيرة في الاسر والعبودية والشقاوة لم يهلكوا عن اخرهم ومع انهم متفرقون بين كل الناس لايزالون شعبًا ممتازًا بنفسهِ. فاين يوجد مثل ذلك في جميع التواريخ وفي جميع القبايل تحت الشمس

ومن هذه النبوة ايضًا انهم يكونون في سوءِ حالٍ حيثما كانوا وانهم لا يلبثون طويلاً في مكانٍ واحد. وعلى ذلك قولهُ وبين هذه القبايل لا تجد راحةً ولا يستريح اخمص قدمك. فما احقَّ هذا القول في هولآءِ القوم تعيسين الى هذا اليوم. فلا توجد بلادٌ في اوروبا الاَّ ونُفُوا منها حينًا ما. فعدا ما حصل من اشنع القتل والنفي لكثيرين منهم في النمسا وفرنسا وسبانيا في الجيل الثالث عشر والرابع عشر قد اخبرنا المورخ الاسبانيولي عن نفي ثمان ماية الف يهودي من سبانيا بامر فرديناند وايسابلاَّ. ولا يمكننا ان نشرح ما قاسوهُ من هيجان الشرور والفتن حين كان يتوسع بهم الحكم

وقال النبي ايضًا انهم سيُظلَمون ويُداسون ابدًا ويُعطَى بنوهم

وبناتهم لشعبٍ اخر ويجنُّون من مرْأى اعينهم الذي يرونهُ. وهكذا في جميع البلاد التي سكنها اليهود قد جُرِموا كثيرًا وسُلِبوا وظُلِموا جورًا. وعلى الخصوص في سبانيا وبرتوكال أُخِذَت اولادهم بامر الحاكم ليتعلموا الديانة البابوية. ولا يمكننا استيفاء ذكر المظالم التي اوقعتهم في الجنون واليأس لانها كثيرةٌ لا تحصى

خامسًا واخيرًا تنبَّأ موسى انهم يصيرون حيرةً ومَثَلاً وهزءًا بين الشعوب كلها وان ضرباتهم تكون عجيبةً ضرباتٍ عظيمة وطويلة البقاء. وهكذا هم في كل بلادٍ مبغوضون ومهانون. وقد تمت النبوة عليهم حرفيًّا بانهم مثلٌ وهزءٌ لان المسلمين والوثنيين والنصارى مع اختلافهم في بقية الاشياء قد اتفقوا على ذم اليهود وشتمهم واضطهادهم. فبالحقيقة ان احكام الله على هذا الشعب عجيبة طويلة المدد وقد صار لهم اكثر من الف وثمانماية سنة في هذه الحال التعيسة مَن النفي والتشتُّت والاضطهاد

ونبوة اشعيا ايضًا في رجوع اليهود الى بلادهم بعد استيْسارهم بسبعين سنةً عجيبةٌ جدًّا اذ قد سُمِّي فيها قورش ليس فقط على انه يفتح بابل بل ايضًا يُرجِّع اسرائيل ويبني اورشليم ثانيةً. وعلى ذلك قولهُ لقورش انهُ راعيَّ ويصنع ارادتي قايلاً لاورشليم تُبنَى وهيكلها يُؤَسَّس.[1] واخبرنا يوسيفوس انهُ لما افتتح قورش بابل ذُكِرَت لهُ هذه النبوة عنهُ

(١) ص٤٤ ع٢٨

فامتلأ عجبًا من صراحة كون هذه الكتابة الهيَّة . وذلك ربما كان سببًا لرأفة هذا الملك على بني اسرائيل والرخصة التي مكَّنهم منها في الرجوع الى بلادهم والمساهلة معهم في تجديد الهيكل . وانهُ لمحقَّقٌ مما قيل في سفر عزرا ان قورش عرف بواسطةٍ ما ان الله اقامهُ لبناء الهيكل ثانيةً بحيث كُتِب فيهِ ان الرب حرَّك روح قورش ملك الفرس فاشهر امرًا في جميع مملكتهِ قايلاً هكذا يقول قورش ملك فارس ان الرب اله السماء قد اعطاني جميع ممالك الارض وامرني ان ابني بيتًا في اورشليم التي في اليهودية . فاعطى حينئذٍ شعب الله حريةً وعنايةً للشروع بهذا الامر الصالح ولجمع الدراهم عونًا من كل من اراد ان يقدم المساعدة . ومن حيث ان آنية الهيكل المقدسة كان قد اتى بها بختنصر الى بابل فاخرجها قورش وسلمها الى امينٍ لتُحمَل من بابل الى اورشليم

فيقول الفاضل المذكور آنفًا اي قبيلةٍ بقيت شعبًا ممتازًا في بلادها مثلما بقي هولاء في تشتُّتهم في جميع البلاد . وما اوضح هذه المعجزة الظاهرة لنظر جميع العالم وملاحظتهم . فهذه نبوات قد تُنبِّئ بها من اكثر من ثلثة الاف سنة ومع ذلك نراها تتم في هذا الزمان . فاي برهانٍ نريدهُ اثبت من هذا لرسولية موسى من ربهِ . انني لا اعلم كيف تاثير هذه النبوات في غيري ولكن من جهة نفسي فاعترف بانها ليست تقنعني فقط بل تملأني حيرةً ودهشةً الى غاية ما يكون

الفصل العاشر

في نبوات تتعلق بنينوى وبابل وصور وغيرها

قيل ان اسوار نينوى التي كانت قصبة اثور كان ارتفاعها ماية قدمٍ ومحيط دايرتها ستين ميلاً وحولها الف وخمسماية برج ارتفاع الواحد منها مايتا قدم. واخبرنا المورخ ديودورس سيكلوس ان ملك اثور بعد انكسار عسكرهِ الانكسار التام وثق بنبوةٍ قديمةٍ ان نينوى لا توخذ ما لم يصر النهر عدوًّا للمدينة. وانه بعد ما حوصرت المدينة سنتين بغير فايدةٍ فاض النهر من المطر الكثير الطويل فملأ جزًا من المدينة واخرب من السور مسافة عشرين فرسخًا. وان الملك اذ ظن ان النبوة قد تمت قطع الرجاء من سلامتهِ واقام تلًّا عظيمةً من الحطب ووضع عليها كل امواله واحترق هو واهل بيتهِ وقصرهُ معها. ولا يخفى ان كتاب ناحوم انما هو نبوةٌ على خراب نينوى. فما اوفق هذا الخبر لما قالهُ فيهِ انهُ ستُفتَح ابواب النهر ويخلُّ القصر وتصير نينوى القديمة كغدير ماء وبطوفانٍ سايل تجعل اخرة مكانها. وما بقي من نبوة هذا النبي عليها قد وصف المورخ اتمامها ايضًا حرفيًّا. لانهُ يقول اذ كان ملك اثور مفتخرًا بغلباتهِ السابقة

وجاهلاً بعصيان البكترانيين القى نفسهُ في كسلٍ ذميم وعيَّن يومًا للطرب واكثر من الخمر لعساكرهِ . فلما اخبر بعض الهاربين امير جيش العدو بغفلتهم وسكرهم هجم على عسكر الاثوريين وهم سكارى فقتل كثيرين منهم وطرد الباقين الى المدينة . فتمَّ بذلك كلام النبي القايل كمثلما يتحاضن الشوك بعضٌ مع بعضٍ كذلك وليمة اوليك الذين يشربون معًا . يفنون كالقش اليابس . ثم وعد النبي الاعداء باغتنام كثيرٍ من النهب بقولهِ انهبوا الفضة انهبوا الذهب لان لا نهاية لخزانة ومجد كل اثاثٍ مليح . وفي ذلك يقول المورخ ان كثيرًا من الذهب والفضة تخلَّص من النار وحُمِل الى اكباتانا التي هي همَدان . وايضًا يقول النبي ان المدينة لاتخرب من طوفانٍ عظيم فقط بل تاكلها النار ايضًا . وذلك يطابق اخبار المورخ بالتمام

وقد تُنبِّئ ايضًا بان خراب المدينة يكون تامًّا دايمًا . وعلى ذلك قولهُ ويجعل الرب اخرة مكانها ولا تقوم الضيقة ثانيةً فانها خاوية خالية مقفرة ويمد الرب يدهُ على الشمال فيهلك اثور ويجعل نينوى خرابًا ويابسة كالبرية . كيف صارت قفرًا مكانًا لمربض الوحوش . وقد شهد لوكيانوس الذي وُلِدَ على شواطي الفرات في الجيل الثاني للتاريخ المسيحي بان نينوى قد خربت بالتمام حتى لم يبقَ منها اثر ولا يعرف احدٌ مكانها . وشهد ايضًا احد المسافرين المتاخرين الذي زار تلك البلاد بانهُ لايُرَى

الان لبن او حجارة او شي اخر يُبنَى منهُ. ولكن الارض قد اكتست عشبًا. وفي اماكن كثيرة توجد تلالٌ كالتي كانت عساكر الرومانيين القديمة تبني عليها المتاريس وكثيرٌ من الخرايب التي قد دثرت رسومها ممتدٌّ نحو عشرة اميالٍ ومتسع جدًّا. فيبان ان نينوى قد تركت بلا علامةٍ لصولتها السابقة ولا اشارةٍ الى بهآيها وغنآيها وانها حقًّا قد صارت خربةً خاوية خالية مقفرة. فنقول مع الفاضل نوطون هذا ما وقع عليها من الخراب التام وهذا ما صحَّ فيها من النبوات الالهية

كذلك ما جآء من النبوة على افتتاح بابل وخرابها التام وعلى استيلآء الدثار على مكانها قد تمَّ كل التمام. ولكن لا يسعنا الكلام في هذا المختصر الاَّ على بعضٍ من امورٍ كثيرة واذا اراد الطالب استيفآء ذلك بالتدقيق فعليهِ بمراجعة المطولات

ان ارميا النبي قد عيَّن القبايل باسمآيها التي كانت بابل مزمعة ان تقع في ايديهم ليهلكوها. وعلى ذلك قولهُ اصعد يا عيلام [وهو الاسم القديم لبلاد فارس] وحاصر يا مادى. قد حرك الرب ملوك مادى لان مشيتهُ في بابل ان يهلكها[1]

واشعيا يقول سقطت سقطت بابل وجميع منحوتات الهتها كسرها والقاها على الارض[2] وقال ايضًا هكذا يقول الرب الذي يقول للبحر جُفَّ وانا اجفّف انهارك الذي يقول في قورش

(١) ارميا ص ٥١ (٢) اشعيا ص ٢١ ع ٩

هو راعيَّ ويصنع ارادتي وانا احلُّ صلب الملوك لتُفتَح امامهُ الابواب ذوات المصراعين ولا تُغلَق الابواب وهكذا يقول الرب لقورش مسيحهِ لاخضاع القبايل امامهُ.(١) ولا ريب ان اشعيا تنبَّأ بالنبوة التي ذكر فيها اسم قورش على الاقلّ بمايتي سنة قبل ان يولد ذلك الملك لما كان اهل بلاد فارس شعبًا ضعيفًا غير مشهور. فلما كان قورش قد صار امير جيوش الفرس وعلمهم الصناعة الحربية وملاهم شجاعةً ذهب الى عمهِ كياكسار الذي يسميهِ دانيال داريوس المادي فاتحدت عساكرهما وضربوا اولاً الارمن واهل هركانيا ولوديا وكبدوكيا وغيرهم من حلفاء ملك بابل. ثم بعد ان عاملوهم بالرحمة وطيبوا قلوبهم حتى انهم اتحدوا بعساكرهم ارتحلوا طالبين مدينة بابل. فمع ان قورش كان قد شرع في غزوتهِ بعسكرٍ قليل صار عسكرهُ بحكمة تدبيرهِ كثيرًا جدًّا قبل وصوله الى تلك المدينة الشهيرة. ولكن ماذا تستطيعهُ الشجاعة او الصناعة الحربية على مدينةٍ هكذا حصينة من كل جانب. فحالما وصل هذا القايد الماهر الى المكان مع عساكرهِ طاف حول السور مع افضل روسايهِ ليرى هل يوجد جانبٌ ضعيفٌ يمكن الهجوم عليهِ. فوجدها جميعها محصَّنة ولا يمكن اخذها الا بحصارٍ طويلٍ. فنزل امامها وحفر خندقًا حول السور وبنى ابراجًا واستحضر ما امكنهُ من اهبة المحاصرة. وبذلك

(١) اشعيا ص٤٤ ع٢٧ وع٢٨ وص٤٥ ع١

تم قول النبوة نزلوا عليها واحاطوها . تجهزوا على بابل واحاطوا بها . تجهزوا على بابل . كل انسانٍ تجهز

ومما ذُكِر ايضًا في النبوة واضحًا جبانةُ اهل بابل . فقد كانت قبل ذلك عساكرهم رعبةً لجميع الارض ولم يقدر احدٌ ان يقاوم سطوتهم الهايلة . واما حينيئذٍ فوقعت عليهم الجبانة . وعلى ذلك قول النبي قد امتنع جبابرة بابل من الحرب فبقوا في متاريسهم . قد سقطت قوتهم وصاروا كالنساء .[1] وكان خوفهم ظاهرًا من اغلاقهم ابواب المدينة عليهم بحيث لم يستطع اعداؤهم ان يستخرجوهم للبراز في ميدان الحرب . لان زنفون يخبرنا بان قورش دعا ملك بابل الى القتال معه بمفرده فابى . وان القوم الذين داخل السور مع انهم كانوا كثيرين لم يخرجوا من ابوابهم ولم يجتهدوا في هزم محاصريهم او في اذاهم . فتمّ بذلك قول النبي بقوا في حصونهم وضعفت ايدي ملك بابل

قد تقدم ان قورش وجد كل جانبٍ من المدينة محصّنًا بحيث لا يمكنهُ الهجوم عليها . لانهُ ماذا يصنع المنجنيق او غيرهُ من الالات الحربية في سورٍ عرضهُ ثلثون قدمًا او خمسون على قول البعض . فارتبك في امرهِ مدةً الى ان خطر ببالهِ انهُ ربما يمكنهُ الدخول الى المدينة بتحويل نهر الفرات الذي كان يجري في وسط المدينة عن مجراهُ . فاعتمد على هذا العمل الخطير

(١) ارميا ص٥١ ع٣٠

كالوسيلة الوحيدة وشرع فيهِ ولكنهُ كتم الغاية في ذلك عن المحاصرين في المدينة. لانهُ كما يقول هيرودوتوس لو لاحت لهم الحيلة او لحظوا على دخول الفرس لقدروا ليس على تبطيلهم عن العمل فقط بل على اهلاك جميع عساكر قورش ايضًا وهم في مجرى النهر. لانهم لم يحتاجوا سوى غلق الابواب التي كانت تُفتَح الى المدينة من جهة النهر الذي جرى بين سدَّين في وسطها وقسمها الى قسمين. فخوفًا من اشتهار هذا العمل اختار قورش فرصةً لهُ في وقت طربٍ عظيم عند اهل بابل لعلمهِ انهم في ذلك الوقت يتمرغون في السكر والملاهي. وكان عرض النهر ربع ميل وعمقهُ اثنتي عشرة قدمًا ولكن كانت بحرة مصطنعة بالقرب منهُ لقبول ما يطفح من مآيهِ عند فيضهِ. فوسَّع قورش مجرى تلك البحرة. والخندق الذي حفرتهُ رجالهُ حول السور كان ايضًا متصلاً بالنهر فوق المدينة وكافيًا ليسع كثيرًا من ماء النهر. وفضلاً عن ذلك كان ما احاط بالنهر من الارض غايرًا منبسطاً بحيث اذا تحوَّل ماء النهر عن مجراهُ اندفق من كل جانبٍ. فنالوا بهذه الحيلة مقصودهم على التمام حتى ان مجرى النهر صار يابسًا الا قليلاً ودخلت عساكر قورش الى المدينة ليلاً. بعضها من عند مدخل النهر الى المدينة والبعض من عند مخرجهِ منها. وعلى ذلك دخل عسكر قورش بالهدو والسكينة اذ كان اهل المدينة سكارى في طربهم حتى انهُ لم ينتبه احدٌ منهم على دخول

الاعداء ولا غلقوا ابواب النهر حذرًا من البلية . بل اذ كانوا على هذه الحالة وصل قورش الى قصر الملك قبل ان ياتيه رسولٌ يخبرهُ بان الاعداء قد دخلوا المدينة . ولم يتميز حينيذٍ صوت الاعداء عن صوت زمرة السكارى . واذ انتهوا الى ابواب القصر وجدوا الحرّاس سكارى فقتلوهم . فدخل الفرس الى ذلك الايوان المزيَّن حيث كان بلشاصر ونسآؤهُ وسراريهِ وروسآؤه الالف يشربون من آنية بيت الرب المقدسة التي اخرجوها للاستعمال النجس في هذا الوقت . ولكن دخول الفرس لم يكن اول ما تعرَّض لتنغيص طربهم السفيه . لان يدًا ظهرت قبل ذلك وكتبت على الحايط بعض كلماتٍ احرفها غريبة فوقعت الحيرة والرعبة في قلوب الذين كانوا جالسين . ولم يقدر احدٌ على قرآتها حتى احضروا دانيال فقراها حالاً واعلن للملك هلاكهُ وخراب المملكة . وفي تلك الليلة قُتِل بلشاصر ملك الكلدانيين

وتمام مطابقة النبوات للحوادث التي ذكرناها يُعرَف مما سنذكرهُ من اقوال الانبياء وهو قول ارميا انا اجفّف بحرك وايبّس ينابيعك .[1] وقول اشعيا القايل للبحر جُفَّ وانا اجفف انهارك[2]

وقول ارميا وركض حارسٌ يلاقي اخر ورسولٌ يلاقي رسولاً ليخبّروا ملك بابل ان مدينتهُ قد أُخِذت عن اخرها وان المعابر

(١) ص٥١ ع٣٦ (٢) ص٤٤ ع٢٧

قد اغلقت[١]

وقولهُ ولكن الحيلة وضعت لبابل. أُخِذَت ولم تعرف كيف تفاجأَت مدحة جميع الارض[٢] وقول اشعيا لانك اتكلتِ على خبثك وحكمتك فمعرفتك تعوّجك. ولذلك ياتي الشر عليكِ وانتِ لا تعلمين من اين خرج. وياتي عليك الشر ولا تستطيعين ان تدفعيهِ عنك ولا يخلصك احدٌ[٣]

وقول ارميا واجعل اعيادهم في وهلتهم واجعلهم سكارى ليفرحوا وينامواً نومًا دايمًا ولا يستيقظون يقول الرب. واجعل امرآءها وحكماءها وروساءها وولاتها وجبابرتها سكارى وينامون نومًا دايمًا[٤]

وقول اشعيا وانحلَّ صلب الملوك لتفتح امام قورش الابواب ذوات المصراعين. والابواب لا تُغلَق[٥] هذا ما نُقِل عن النبوات

ولما سمع الملك ضجّةً وهياجًا خارجًا ارسل رسلاً ليقف على سبب ذلك. ولكن لم تفتح ابواب القصر الا والفرس دخلوا اليهِ. فتمّ بذلك قول النبي سمع ملك بابل خبرهم فاخذتهُ الرعبة[٦] وهلك الملك وجماعتهُ فتمّ قول النبي عيّن زمان مملكتهِ واكملها قسمها واعطاها للماديين والفرس[٧]

---

(١) ص٥١ ع٢١ (٢) ص٥٠ ع٢٣ وص٥١ ع٤١ (٣) ص٤٧ ع١ وع١١ وع١٥ (٤) ص٥١ ع٣٩ (٥) اشعيا ص٤٥ ع١ (٦) ارميا ص٥٠ ع٤٣ (٧) دانيال ص٥ ع٢٦ وع٢٨

وقد تُنُبِّئ ايضاً على كثرة العساكر الذين دخلوا حينئذٍ وقتلِ اهل المدينة في الاسواق بقولهِ واملأْتُكِ بالرجال كالدود. ستقع شبانها في الاسواق ويقتل جميع ابطالها في ذلك اليوم.(١) وعلى قول هيرودوتوس المؤرّخ كان عسكر الفرس بعد ما أُخِذَت المدينة مائة وعشرين الف فارس وستة الاف مركبة حربية وستماية الف راجل. ونادى قورش بامرهِ ان يبقى الناس في بيوتهم والّا فيُقتَل كل من وجد في الاسواق

فوقعت بذلك جميع خزاين بابل المكنونة في يد قورش. وعلى ذلك قول النبي أُعطِيَت ليدهِ خزاين الخفاء والاموال المخبأَة ليعلم ان الرب الذي دعاهُ باسمهِ هو اله اسرائيل(٢)

ومن حين افتتح قورش هذه المدينة الشهيرة اخذ مجدها في الزوال. كما سبق الله واخبر بسقوطها وكلمتهُ لاتخيب. وذلك بانها بعد افتتاحها الاول سقطت عن كونها ملوكية الى ان صارت تحت الجزية على ما اخبرنا به هيرودوتوس. والظاهر ان النبي يشير الى ذلك بقولهِ انزلي واجلسي في التراب يا عذراء يا ابنة بابل. اجلسي على الارض. ليس كرسيٌّ يا ابنة الكلدانيين(٣)

ثم الدرجة الثانية في سقوط هذه المدينة الشهيرة كانت بعد عصيانها على داريوس. فانهُ بعد ما اخذها امر بتقصير علوّ

---

(١) ارميا صنْ عـ ١٤ وصنْ عـ ٣٠ (٢) اشعيا صنْ ٤٥ عـ ٣ (٣) اشعيا صنْ ٤٧ عـ ١

الاسوار وخراب جميع ابوابها. والى ذلك يشير النبي صريحًا بقولهِ سيقع سور بابل سنهدم اسوارها[١]

ثم عند رجوع زركسيس من غزوهِ بلاد اليونان دخل الى بابل ونهب خزاينها الثمينة المقدسة المحفوظة في هيكل بعل اله المدينة. وذلك ما تنبأَ بهِ ارميا بقولهِ سأُعاقِب بعل في بابل وأُخرِج مِن فيهِ ما قد ابتلعهُ. واقضي حكمي على منحوتات بابل[٢]

وكل اتعاب الذين وقعت بابل في ايديهم لاجل اعادتها الى مجدها او حفظها من الدثار لم تنجح اصلاً. فان قورش جعلها مسكنهُ غالبًا ولكن خلفآوهُ اختاروا غيرها. والاسكندر لما فتحها كان راغبًا في اعادتها الى مجدها الاول ولكن مشيئَة الله كانت بعكس ذلك. ونبيُّهُ كان قد قال قبل ذلك بزمنٍ طويل ان كل جدٍّ وجهدٍ في ذلك لايجدي نفعًا. وذلك قولهُ خذوا بلسمًا لشفآءِ بابل ان كانت تُشفَى. كنَّا نريد شفآءَ بابل ولكنها لاتُشفَى.[٣] واما سبب سقوط بابل وخرابها المستديم فكان اولاً ان تحويل النهر عن مجراهُ ملأَ الارض المجاورة لها غدرانًا مملوة ماءً منتنًا. ثانيًا ان بنآءَ مدينة اخرى بالقرب منها اجتذب كثيرين من اهل المدينة القديمة الى هذه المدينة الجديدة. وتضايقت بابل ايضًا من ولاةٍ كانوا من اظلم اهل الدنيا. فان واحدًا منهم اسمهُ

(١) ارميا ص٥٠ ع١٥ وص٥١ ع٥٨ (٢) ص٥١ ع٤٤ وع٤٧ (٣) ارميا ص٥١ ع٨ وع٩

هومروس وكان قبل المسيح بماية وثلثين سنة استعبد كثيرين من اهل المدينة لاصغر الحجج واحرق ديوانهم وبعض هياكلهم ونفى كثيرين منهم الى مادى. فبعلمٍ سابقٍ بهذه الحوادث قال نبي الله سينتقلون ويرتحلون الرجل والبهيمة[1]

واما ظلم الذين فتحوا بابل فقد وصفهُ الانبياء بالتدقيق فقالوا هم ظالمون في الغضب والسخط الهايل ليخربوا الارض. وقد تم ذلك كل التمام في الفرس والماديين والمكدونيين والفرثيين والسوريين والرومانيين والعرب. فجميعهم قومًا بعد قومٍ توافقوا بغضبهم القاسي وسخطهم الهايل على خراب هذه المدينة التي كانت مرةً ذهبية وهذه الكورة التي كانت مرةً حسنة مخصبة. والى ذلك يشير النبي بقولهِ ان سيفًا على الكلدانيين وصوت حربٍ في الارض وهلاك عظيم. سأُوقِد نارًا في مدنهِ فتحرق جميع ما حولهُ. وتصير كلديا نهبًا وكل من ينهبها سيشبع يقول الرب. السيف على خزاينها فتُنهَب. اينها الجالسة على مياهٍ كثيرة ذات الخزاين العظيمة قد جاءت اخرتك[2]

واما وصف النبي لخراب بابل التام فلم يكن اصح مما هو لو كان النبي حاضرًا وشاهدهُ عيانًا. فانهُ يقول واعاقب ارض الكلدانيين واجعلها خرايب دايمة واقطع الزارع من بابل ومن يتناول المنجل يوم الحصاد. القحط في امواهها فتجف. ها ان اخرة

(١) ارميا ص٥٠ ع٣ (٢) ارميا ص٥١

القبايل يبسٌ وقفر. ومدنها خرابٌ ويَبَسٌ وقفر. ارضٌ لايسكنها انسانٌ وابن الانسان لايمرُّ بها. وارسل الى بابل من يذريها ويفرغ ارضها. سترتجف الارض وتحزن لان مقاصد الرب كلها تتمُّ في بابل لتجعل ارض بابل خراباً لايسكنها احدٌ[١]

واما سقوط هذه المدينة فكان بالتدريج على غير انقطاع. فانه في الجيل الثاني للتاريخ المسيحي لم يبقَ منها غير الاسوار. وفي الجيل الرابع اصلحوها لتكون زريبةً للوحوش البرية. فصارت بابل ارضاً يصطاد فيها ملوك الفرس. ثم لما وقعت في ايدي العرب تمَّ خرابها. والان مضى عليها بعد ذلك دهورٌ عديدة وهي على ما وصفها النبي بقولهِ لايسكنها انسانٌ وابن الانسان لايمرُّ بها. العربيُّ لايضرب خيمتهُ هناك والرعاة لايجعلون زرايبهم هنالك[٢]. وجميع ما بقي من المدينة انما هو تلال خرايب وكراديس لبن قديمة. وذلك يطابق بالتمام نبوة ارميا القايل تصير بابل رابياتٍ. اجمعوها كالرابيات. ولا يُترَك شي منها. سقطت بابل انخرطت الى الارض. سقطت اساساتها ولا تُسكَن من جيلٍ الى جيل[٣]

ولنذكر الان اخبار السوَّاح المتاخرين الذين زاروا خرايب بابل. قال منيان في ذلك كان طريقنا بين كثيرٍ من الروابي الخَرِبة وهي موضع بابل اليابسة. ولا يمكنني ان اعبّر عن

(١) ارميا ص٥٠ (٢) اشعيا ص١٣ (٣) ص٥٠ وص٥١

القفر الموحش المنفرد الذي كان امامنا . وقال بورتر ان سكوتًا كسكوت القبر كان بين تلك الخرايب . ان بابل الان منظرٌ صامتٌ وخلوةٌ عظيمة . وعلى حسب قول راولف الذي كان في الجيل السادس عشر لم يكن في دايرة بابل القديمة منزلٌ واحدٌ ينزل فيهِ الانسان . فهو يقول تجول العين في برية مقفرة الخرايبُ فيها هي الاشارة الوحيدة الى انها كانت في وقتٍ ما عامرةً . وقال كبل لا يمكن ان ينظر احدٌ هذا المنظر ولا يخطر ببالهِ صحة نبوة اشعيا وارميا . انتهى . وانهُ امرٌ غريبٌ ان عرب البادية الذين يسكنون القفار ويترددون كثيرًا الى ذلك المكان لا يضربون خيامهم بين خرايب بابل . ولكن منيان يخبرنا بانهم لا يرضون ان يبيتوا ليلة بقرب اعظم تلالها اذ يعتقدون بان ارواحًا شيطانية تسكن هناك . وقال ان ستةً من رجال البادية صحبوهُ الى هناك ومعهم كثيرٌ من السلاح ولكنهُ لم يقدر ان يرضيهم بالاقامة هناك بعد دخول الليل

وذلك المكان ايضًا مملوءٌ من الحيوانات الكريهة والآجام المنتنة . كما قد اخبر بعض السواح ان بين خرايبها توجد كهوفٌ كثيرة للوحوش الضارية . فقال رِتش انهُ يوجد كثيرٌ من البوم والخفَّاش هناك . وعلى التل الذي يُظَنُّ انهُ خريبة هيكل بعل راى بورتر ثلثة اسود كبار . وهناك يسكن ايضًا الضبع وابن اوى . فمن لا يرى والحالة هذه صحة نبوة النبي القايل وتكون

هناك وحوش البادية وتمتلي بيوتهم من الحيوانات الكريهة ويسكن هناك البوم وترقص الجنُّ هناك.[1] وقد انمحى شاطي الفرات من الجهة الغربية واذ ليس حاجزٌ يصدُّ النهر طاف على الارض المجاورة فغمر كثيرٌ من خرايب بابل غربيَّ النهر حتى انهُ بعد تناقص ماء النهر يبقى كثيرٌ من تلك الارض بالوعةً متصلة لا مدخل للانسان فيها. والظاهر ان النبي اشار الى ذلك اذ قال جاء البحر على بابل فتغطَّت بامواجهِ الكثيرة[2]. وما ظاهرهُ مناقضٌ لهذا الوصف هو ايضًا صحيحٌ. فان بعض الانبياء يصفون بابل بانها يبسٌ وبرية وقفر. وذلك عين الواقع لانهُ وان كان ما على الجانب الواحد من النهر قد غطَّتهُ المياه لكن ما كان على الجانب الاخر يابسٌ جدًّا وبرية مقفرة

ثم نظرًا لما تبلغ اليهِ شهادة التاريخ من الازمنة القديمة يظهر لنا ان هيكل بعل كان اعلى من كل ما بناهُ البشر وعلى كل حالٍ كان اعلى من اعظم الاهرام المصرية. والارجح ان هذا الهيكل بُنِي على اساس برج بابل. والسوَّاح المحققون يظنون ان اعلى الرابيات بين الخرايب هو موضع هذا الهيكل الشهير. وهذه الخربة ممتدة على اكثر مما كان الهيكل ممتدًّا عليهِ. فيقول منيان ان رويتهُ كروية تلَّة عليها قلعةٌ. والعرب يسمونهُ برج نمرود.

(١) اشعيا ص١٣ ع٢١ (٢) ارميا ص٥١ ع٤٢

وبورتر الذي اخبرنا خبرًا مفيدًا عن هذه الخربة الواسعة قال وتوجد على راس التل قطع من اللبن لا هيئةَ لشكلها مجتمعة بلا ترتيبٍ قد الحمتها النار ببعضها. وارتفاع بعض هذه القطع العظيمة اثنتا عشرة قدمًا ودايرتها اربع وعشرون. وقد بقيت هذه القطع كما هي مع ان كل ما سواها صار ترابًا وذلك لان حرارة النار سبكتها

وابواب هيكل بعل العالية التي كانت لم تزل قايمة في ايام هيرودوتوس المورخ قد أُحرِقت بالنار. وعلى ذلك قول الانبياء سقط بعل. وقعت الحيرة ببعل. امتدت يد الرب عليهِ فتدحرج الى اسفل من الصخور وجُعِل جبلاً مُحرَقًا. والقصور العظيمة في بابل التي ربما كانت احسن ما رأَتهُ اهل الدنيا كان اكبرها محاطاً بثلثة اسوار قوية تَعِد بالدوام وتكاد تضحك على الزمان قد اختفت بالكلية ولم يبقَ منها الا اثر الاسوار المحيطة بها. ومسافة دايرة هذه الخربة نحو نصف ميل وعلوها ماية واربعون قدمًا ولكنها الان قد صارت خرايب مختلطة ببعضها ومربضًا للوحوش الضارية ومملوةً من الحيوانات الكريهة. فتمَّ بذلك قول النبي تتعاوى الوحوش في خرايبها والتنانين في قصورها الحسنة. وقال منيان الحشرات المسمَّة توجد كثيرًا بين خرايبها. ثم قال واذ كنت اتمشى على الحجارة المنهدمة وكِسَر اللبن المتفرقة في هذه الخربة العظيمة وانظر الى عظمة هذا الخراب خطر

ببالي الزمان الذي فيهِ كانت هذه الاسوار قايمةً شامخة بمجدها وكانت هذه القصور محلَّ الطرب العظيم وسُمِعَت فيها اصوات من قد انمحوا عن وجه الارض منذ اجيال عديدة. فهذه الرابية نفسها كانت محلَّ الرفاهية والرذايل واما الان فقد صارت دثارًا ومثالاً محزنًا لانتقام الله. فهي خالية لا يُرَى فيها مسكنٌ حتى ولا خيمة من يرعى المواشي في البرية. وذلك يطابق بالتمام قول النبي قد أُنزِل افتخارك وصوت العود الى القبر. قد انتشر الدود تحتك والدود يغطّيكِ

وفي هذه المدينة العجيبة لم يكن شيءٌ ابهج من علو الاسوار وعرضها. لان عرضها كان يسع ست مركبات تُجَرُّ عليهِ واحدةً بجانب اخرى. وقيل ان علوَّها الاول كان ثلثماية وخمسين قدمًا او ثلثماية على الاقل. نعم ان داريوس اهبط شيئًا من علوها ولكنها بقيت اعلى من اكثر الاسوار الاخرى. فاين هي الان. لم يبقَ لها اثرٌ البتة. لانه قد فحص بكل تدقيق السايحان بكنهام وفريدريك لكي يجدا شيئًا من اثر اسوار بابل ولم يجدا شيئًا. فيقول فريدريك انهُ لم يرَ احدٌ من السواح المتاخرين شيئًا من اثر السور ولا الخندق حواليه وفي مسافة واحد وعشرين ميلاً بجانب الفرات طولاً واثني عشر عرضًا لم استطع ان ارى شيئًا يوهم انهُ كان قبلاً في هذه الرحبة الواسعة سورٌ او خندق. واخبر كبل ايضًا انهُ هو واصحابهُ من السواح الذين كانوا معهُ

لم يجدوا اثرًا لاسوار المدينة . ثم يقول ان النبوات الالهية على بابل قد تمت بهذا المقدار على ما يظهر من الخرايب حتى انني اعتقد بكل ما يقتضيهِ معنى كلمات ارميا عند ما يقول ستسقط اسوار بابل العريضة سقوطاً تامًّا (١)

وتُنبِّي ايضًا ان بابل تكون دهشةً وكل من يمرُّ بها يندهش . ومقدار مطابقة هذه النبوة لاحساس السواح المتاخرين يظهر من كلامهم . فيقول بورتر لم يمكني ان اضبط نفسي عن الاشعار بوقارٍ غير موصوفٍ في مروري كانهُ بابواب بابل الساقطة . ويقول منيان لا يمكني ان اصف ما اعتراني من الاحساس الشديد بوقارٍ عظيم اذ كنت اتامل اتساع الخراب ومقدار الدثار على كل جانبٍ . ويضيف بورتر الى ذلك في مكانٍ اخر هذه العبارات اللطيفة وهي قولهُ وكان منظر ذلك الخراب في غاية الهيبة . فلا يزال نهر الفرات العظيم نهرًا شريفًا ولو كانت ارض مجراهُ مقفرة وهو سايرٌ في الوحدة كالسلطان السايح بين خرايب مملكتهِ الهالكة اذ كانت شطوطهُ شايبة بالقصب ولا يزال هناك الصفصاف الذي علق عليهِ اسارى اسرايل قياثيرهم ولم يريدوا ان يتعزَّوا لفقد اورشليم . ولكن كيف تغير المنظر منذ ذلك . فانهُ كانت تلك التلال المكسَّرة اذ ذاك قصورًا وهذه

(١) ارميا ص٥١ ع٥٨

الروابي الغير المستوية اسواقًا وكانت هذه الخلوة الواسعة مملوةً من رعايا ابنة المشرق الشامخة . ولكنها الان قد تلفت بالخراب ومنازلها لا توجد وهي قد غطاها الدود

وقال في ذلك المعلم كيث هذه العبارات اللطيفة وهي قولهُ الم نتمَّ جميع احكام الرب على بابل . من يجيب بالانكار عند استماع هذه السوالات من صاحب النبوات المذكورة آنفًا اذ يقول من خبر بذلك منذ القديم ومن اعلنهُ من ذلك الحين . أليس انا يقول الرب وليس الهٌ اخر غيري يخبر بالاخريات منذ البدء ومنذ القديم قد اخبرت بما لم يكن قايلاً مشورتي تدوم واعمل كل مسرَّتي . فهل يمكن وجود برهانٍ لصدق النبوة اعظم من هذا . ان اخبار الجنس البشري لا يوجد فيها مخالفة اغرب مما يوجد بين عظمة بابل القديمة وخرابها المستطيل ومع ذلك ما اقلَّ الاماكن التي تصوَّرت لنا صورتها واضحةً وصادقة نظير صورة بابل الساقطة المصورة من النبوة حين كان لا يوجد بقعةٌ من الارض اقل مشابهة لها من منظرها الحاضر المقفر المتوحش . وهل يمكن ان تكون نبوات عن مكانٍ ادقَّ واعجب واكثر واصدق من هذه النبوات وهي قد تمت فيها شيئًا فشيئًا في اجيالٍ عديدة

ومن المدن الشهيرة القديمة صور وقد تُنبّئ عنها بنبوات غريبة عجيبة تمَّت فيها بكل تدقيقٍ . فتنبَّأ اشعيا عنها عند ما

كانت في مجدها متكبّرة بالرفاهية حاصلة على اغنى متاجر العالم وذلك قبل ان يظهر عليها شيء من لوايح الخطر بماية سنة على الاقل . والسبب الذي ذكرهُ النبي لحلول احكام الله على هذه المدينة العظيمة هو كبريآوها اذ يقول رب الجنود اراد هذا ليخفض كبريآء كل كرامةٍ ويذلّ كل اشراف الارض[1] وحزقيال النبي يتكلم في ثلثة فصول عن رفاهية صور وثروتها ومتجرها وخرابها

ومما تُنبيء عن صور بالهامٍ الهي ما سنذكرهُ اولاً ان الكلدانيين ياخذون هذه المدينة الغنية الكثيرة الاهل . وكان الكلدانيون في زمان هذه النبوة شعبًا حقيرًا . وحزقيال لا يتنبا فقط بان خراب هذه المدينة يكون من ايدي الكلدانيين بل يسمّي ايضًا اسم الملك الذي ياخذها اذ يقول هكذا يقول الرب الاله اجلب على صور بختنصر ملك بابل ملكًا قويًّا من الشمال بخيلٍ ومركبات وفرسان . فيقتل شعبك بالسيف ويهدم حصونك المنيعة الى الارض[2] ويخبرنا يوسيفوس ان بختنصر حاصر صور ثلث عشرة سنة حين كان ايثوبعل ملكها . وهو يستند في ذلك على قول ميناندر الافسوسي . وتواريخ فينيقية ايضًا توافق هذا القول تمامًا

ثانيًا تُنبيء ان سكانها يعبرون بحر الروم الى الجزاير والبلدان المجاورة . فيقول اشعيا اعبروا الى ترشيش وولولوا يا سكان

(١) شعيا ص٢٣ ع٩ (٢) احزقيال ص٢٦ ع٧ الى ع١١

الجزيرة قوموا واعبروا الى كِتيم وهناك ايضاً لاتجدون راحة"[١] ومثل ذلك قول حزقيال تضطرب الجزاير التي في البحر عند ذهابك. وانهُ لواضحٌ من المورخين القدماء ان من الصوريين من ذهب وسكن اماكن كثيرة في البحر منها مدن قرطاجنة في افريقية وطرطوس في اسبانيا وهي التي يسمّيها الانبياء ترشيش

ثالثًا تُنبّئ ان صور تُرَدُّ بعد سبعين سنة. واشعيا يعيّن هذه المدة بقولهِ وفي ذلك اليوم تُنسَى صور سبعين سنة مثل يوم احد من الملوك"[٢] وذلك يشير الى دوام دولة الملوك الكلدانيين التي كانت سبعين سنة فقط. وهي ما يقولهُ ارميا في سلطة بابل وتعبُدُ هذه القبايل لملك بابل سبعين سنة"[٣]

رابعًا تُنبئ ان صور تُخرَب ثانيةً بعد ما رجعت الى ما كانت عليهِ قبلاً. ولما فتح بختنصر المدينة اخذ اهلها اموالهم وركبوا سفنهم وتخلصوا. فوعدهُ الله بمصر جزاءً عن تعبهِ الكثير وربحهِ القليل في محاصرة صور. ولما رجع اهلها لم يبنوا بيوتًا في المكان القديم بل ذهبوا الى جزيرةٍ منفصلة من البر بمضيقٍ من البحر وفيها قامت المدينة الجديدة وازهرت في التجارة والغنى. واما الانبياء فلم يتنبأُوا فقط عن خراب صور القديمة بل عن خراب الجديدة المبنية فى وسط البحر ايضًا. فيقول اشعيا ولولوا

(١) اشعيا ص ٢٣ ع ٦ (٢) ص ٢٣ ع ١٥ الى ع ١٧ (٣) ص ٢٥ ع ١١ وع ١٢

ياسكان الجزيرة. ويقول حزقيال من كان مثل صور التي صارت بكمى في جوف البحر[١] وزكريا الذي كان زمانًا طويلاً بعد خراب الاولى يقول مشيرًا الى الثانية وقد بنى صور لنفسهِ حصنًا منيعًا وجمع فضةً كالتراب وذهبًا ابريزًا كطين الاسواق. هوذا يطرحها الرب خارجًا ويضرب قوتها في البحر وتُتلَف بالنار[٢] وكانت هذه المدينة الجديدة حصنًا منيعًا بالحقيقة اذ لم يحمِها البحر فقط بل كان علو اسوارها ماية وخمسين قدمًا. ثم ان نبوة حزقيال صريحةٌ ايضًا في ان خراب صور الثاني يكون بالنار وعلى ذلك قولهُ واخرج نارًا من وسطك فتُهلِكك وأجعلك رمادًا على الارض امام كل من يراكِ. وبحسب ذلك حاصرها اسكندر الكبير وفتحها واحرقها بالنار. وهذا صريحٌ من شهادة كونتوس كورتيوس[٣]

نعم ان موقع صور في جزيرةٍ واستيلاءها على البحر قد منعا عسكر الاسكندر عن الوصول الى اسوارها زمانًا. ولكنهُ اخذ حجارة المدينة القديمة وخرايبها وطرحها في البحر بينهُ وبين الجزيرة حتى صارت مسلكًا اليها. فتمت بذلك نبوة حزقيال حيث يقول سيطرحون حجارتك وخشبك وترابك في وسط البحر[٤] وكان هذا العمل كثير العناء فاشتغل بهِ عسكرهُ سبعة

(١) ص٢٧ ع٣٢ (٢) ص١٨ ع١ (٣) انظر كتابهُ الرابع راس ٥
(٤) ص٢٦ ع١٢

اشهر. وفي هذه المرة ايضاً ركب الصوريون سفنهم وهربوا في البحر. لان ديودوروس سيكولوس وكونيتوس كورتيوس يشهدان انهم ارسلوا نساءهم واولادهم الى قرطاجنة وهم في الحصار وعند ما أُخِذت المدينة احتال الصيداويون على اخذ خمسة عشر الف نفس منها في مراكبهم والذين نجوا بانفسهم كانوا سعداء لان الاسكندر عامل الذين ظفر بهم بكل قساوةٍ اذ قُتِل ثمانية الاف في اخذ المدينة وصُلِب الفان وبيع ثلثون الفا عبيداً

ومع ان صور بُنِيَت ثانيةً وازهرت زماناً نفذ قضاء الله في نبوة انبيائهِ ان هذه المدينة التي كانت مفتخرة وكانت سيدة البحر تصير خراباً بالكلية. كما ان حزقيال الذي وصف غناها وتجارتها وافتخار ملوكها وتجارها قد تنبَّا بكل تدقيقٍ على خرابها ودثارها التام اذ قال هكذا يقول الرب الاله ها انا ضدُّك يا صور واجعل امماً كثيرةً تاتي عليكِ كما يجعل البحر امواجهُ تصعد فيخربون اسوار صور ويهدمون ابراجها. واقحط ايضاً ترابها منها واجعلها كراس صخرٍ وتكون موضعاً لنشر الشباك في وسط البحر لاني قد تكلمت بذلك يقول الرب. ثم ان النبي اشعارًا بتاكيد خراب صور التام يكرر ما قالهُ آنفاً بقولهِ واجعلك كراس صخرٍ وتكونين موضعاً لنشر الشباك ولا تُبنَين فيما بعد لاني انا قد تكلمت بذلك يقول الرب الاله. وايضاً اجعلك مهابةً ولا تكونين فيما بعد واذا طُلِبتِ فلا تُوجَدين ابداً يقول الرب الاله

ولاجل الوقوف على مقدار صحة هذه النبوة فلننظر الى اخبار السواح في الاجيال المتاخرة عن هذه المدينة الشهيرة. فيقول كوتوفيكوس السايح الفلمنكي الذي حضر الى سوريا سنة ١٥٩٨ ان هذه المدينة التي بُنِيَت مرارًا كثيرة بعد خرابها قد خربت الان خرابًا تامًّا حتى خرجت عن كونها مدينةً والذي يوجد منها انما هو بعض اثارٍ لخرابيها الاصلية. فليس شيءٌ باقيًا الان من صور الا بعض قناطر وحمَّامات واسوار متهدمة وابراج داثرة. انتهى

وموندرل الانكليزي يقول ان هذه المدينة قايمةٌ على البحر في جزيرةٍ متصلة بالبر وهي تُرَى من بعدٍ كانها عظيمةٌ جدًّا ولكن متى وصلت اليها لاتجد فيها شيئًا من ذلك المجد الذي اشتهرت بهِ في الايام القديمة والذي وصفها بهِ حزقيال النبي في الفصل السادس والعشرين والفصل السابع والعشرين والفصل الثامن والعشرين من نبوتهِ. فعلى الناحية الشمالية لاترى الا قلعةً مهجورة بناها المسلمون. وما عدا ذلك فهو اسوار واعمدة واقبية مكسَّرة مطروحة بعضها على بعضٍ. فلم يبقَ بيتٌ واحدٌ سالمًا من الخراب. واما اهلها في هذه الايام فهم قلايل فقراء ينزلون بين الخرايب ويعيشون غالبًا من صيد السمك والظاهر ان العناية الالهية حفظتهم في هذا المكان ليكونوا برهانًا واضحًا على ان الله قد اكمل كلمتهُ في صور بحيث تكون كراس صخر ينشر الصيادون

شباكهم عليه . انتهى

وفولني ايضاً الكافر المشهور قد اضطرَّ ان يشهد كما شهد غيرهُ لصحة تمام النبوة الالهية على صور فانهُ بعد ان قابل مجدها الاول بخرابها الحاضر قال ان جميع قرية صور ليس فيها الا خمسون او ستون عايلةً يعيشون بالفقر من غلات اراضيهم القليلة وصيد السمك . وبذلك شهد بان نبوة النبي قد تمت في ان مدينة صور المشهورة بالغنى والعظمة تكون خرابًا ومنزلاً للصيادين . وبروس السايح يصف صور بكلمات النبي نفسها اذ يقول وصور هي صخرٌ ينشر عليها الصيادون شباكهم . ومثل ذلك شهادة كثيرين من الذين زاروها . ومن ذلك نرى ان نبواتٍ عجيبة كتبت من اكثر من الفي سنة قد تمت . ونعاين تمامها في هذه الايام في خراب اغنى مدن الدنيا واعظمها

ومن النبوات العجيبة ما ذُكر في كتاب دانيال فانهُ يذكر فيهِ قيام اربع ممالك على التوالي وفتوحات الاسكندر وخلفآيهِ بظروفٍ عديدة يلوح منها كأن كلامه كلام مورّخ يخبر بالوقايع بعد وقوعها . فان بورفوريوس احد العلمآء القدمآء المضادّين للديانة المسيحية من تعجبهِ من المطابقة بين هذه النبوات وتواريخ الحوادث التي تمت فيها ذهب الى ان كتابة النبوات كانت بعد وقوع الحوادث . فاذ لم يمكنهُ ان يدعي بالخفآء فيما ذُكِر كما هو عادة الكافرين في امر النبوة اعترض على صراحة النبوة

وتفصيلها الوافي . وذلك احوج ايرونيموس ان يقول ان هذا الاعتراض شهادةٌ للحق لانهُ من صراحة كلام النبي ظهر عند الكافرين كانهُ يخبر عن حوادث ماضية لا انهُ يتنبأُ عن حوادث مستقبلة

ولا يخفى بطلان قول بورفوريوس ان كتاب دانيال كُتِب بعد زمان انطيوخوس ابيفانيوس لان يوسيفوس اخبرنا ان الاسكندر الكبير لما حضر الى اورشليم عُرِضَت عليهِ نبوات دانيال فكان ذلك سبباً لمنحهِ اليهود حقوقاً كثيرة . وفضلاً عن ذلك قد ذُكِر دانيال في سفر المكابيين الاول ويوسيفوس نفسهُ يعدُّهُ من اعظم الانبياء . مع انهُ لو كُتِب هذا الكتاب في هذا الزمان المتاخر لما قَبِلَهُ اليهود بين كتبهم القانونية

الفصل الحادي عشر

في النبوات عن المسيح ونبوات المسيح عن خراب اورشليم

ان النبوات عن المسيح الواردة في الكتب الالهية عديدةٌ ومفيدة وتتضمن كثيرًا من المسايل حتى انهُ اذا أُريد الوقوف عليها على احسن طريقةٍ يحتاج ذلك الى اسهابٍ مستطيل. فلذلك نكتفي بالاشارة الى العظايم منهـا على طريقةٍ مختصرة. فنقول

اولاً انهُ لواضحٌ من قراءة العهد القديم انهُ يوجد فيهِ اشاراتٌ عديدة الى مجيءِ شخصٍ شهير. وعليهـا اعتمد اليهود منذ الاجيال الاولى في انتظارهم مسيحًا. والظاهر انهُ منهم خرج الاعتقاد بظهور انسانٍ شهير في اليهودية الى ما بين القبايل المجاورة لهم. وبعض آيات الكتاب التي بُني عليها هذا الاعتقاد كانت هي الوعد بزرع المرأة[1] والوعد بزرع ابرهيم الذي بهِ تتبارك جميع القبايل[2] وشيلو الذي كان عتيدًا ان يخرج من سبط يهوذا قبل انقراض سلطة هذا السبط[3] والنبي الذي

(١) تكوين ص٣ ع١٥ (٢) تكوين ص١٢ ع٣ (٣) تكوين ص٤٩ ع١٠

يكون مثل موسى والرب يقيمهُ (١) والملك الذي يقيمهُ الرب على جبلهِ المقدس (٢) والكاهن الذي يكون على ترتيب ملكيزداق (٣) والغصن الصالح (٤) وحجر الزاوية (٥) وشهوة جميع القبايل (٦) وراعي اسرائيل (٧)

ثانيًا تعيَّن زمان مجيء المسيح في النبوة بكونهِ قبل زوال قضيب الملك من سبط يهوذا وعند نهاية سبعين اسبوعًا نبوية اي اربع ماية وتسعين سنة تمرُّ من زمان خروج الامر باعادة بناء اورشليم والهيكل الثاني باقٍ (٨)

ثالثًا ذُكِر في النبوة صريحًا مكان ميلادهِ والعايلة التي يتسلسل منها. ويتضح من التاريخ الانجيلي ومن اقرار اليهود بانهم عرفوا جيدًا ان المسيح يولد في بيت لحم ويكون من نسل داود

رابعًا تُنبِّئ عن المسيح باشياء في ظاهرها تناقضٌ. فتارةً يُوصَف كملكٍ وجبارٍ يتسلط على جميع الارض ويزهر بالعدل والسلام الى الابد. وتارةً كصعلوكٍ مهان ذي حزنٍ وغمٍّ كمجروحٍ ومرضوض وكمقطوع من ارض الاحياء وكمن سكب نفسهُ للموت. فهذه الصفات التي لاتجتمع في ظاهر الامر كانت سببًا لاعتقاد بعض اليهود ان النبوات تشير الى مسيحين احدهما

(١) تثنية الاشتراع ص١٨ ع١٥ (٢) مزمور ٢ ع٦ (٣) مزمور ١٠٩ ع٤ (٤) ارميا ص٢٣ ع٥ (٥) مزمور ١١٧ ع٢٢ (٦) حجي ص٢ ع٧ (٧) مزمور ٧٩ ع١ (٨) دانيال ص٩ ع٢٤

ظافرٌ غالب والاخر مظلوم مضطهد صبور. ولكن مع هذا التنافي في الظاهر قد اجتمعت هذه الصفات اكمل اجتماعٍ في يسوع الناصري. ولا ريب ان ذلك لا يصح ان يقال في غيرهِ اصلاً

خامساً قد تُنُبِّيَ ان المسيح يكون نوراً للامم وفي سياستهِ تتغير احوال العالم ويستولي السلام والعدل. ومع انهُ لم يتمَّ الاَّ جزءٌ من هذه النبوة نرى انهُ قد تمَّ منها في دعوة كثيرٍ من القبايل الوثنية الى المسيح وفي تاثير الديانة المسيحية السليم الشافي ما يدعونا الى الاعتقاد بان ذلك قد قيل بالهامٍ من الله

سادساً لم يُتنبَّأ بان المسيح يُقطَع فقط بل انهُ يموت ذبيحةً ايضاً عوض الغير مكفِّراً للخطايا (١)

واما اتمام هذه النبوات فصريحٌ في غاية ما يكون في الاناجيل. ولا يمكن ان يُنكَر وجود المطابقة الكلية بين كلام الانبياء وتاريخ الانجيليين مهما كانت الاسباب في ذلك. والاصحاح الثالث والخمسون من نبوة اشعيا يقابل آلام المسيح وموتهُ مقابلةً اقنعت كثيرين من الكافرين

وما عدا ذلك قد تنبَّأ انبياء الله عن المسيح بامورٍ وظروفٍ كثيرة خصوصية يليق ان نذكرها هنا بالاختصار. قد تنبَّأ اشعيا وملاخيا عن يوحنا المعمدان الذي سبقهُ. وتنبَّأ اشعيا

(١) اشعيا ص٥٣

بمعجزاتهِ وبوداعتهِ الكاملة وخضوعهِ العجيب وهو في حالة العذاب الاليم. وتنبأ زخريا بركوبهِ على حمارٍ وعلى جحش ابن آتان وبانهُ يُخَس في جسمهِ بحيث تُرَى جراحهُ وبانهُ يباع بثلثين من الفضة وبان هذه الفضة تُخَصَّص بشراء حقل الفخار. وتُنبِّي في كتاب المزامير بانهم يقتسمون ثيابهُ ويقترعون على لباسهِ وبانهُ يُسقَى خلاً. وقد ذكرت تلك الكلمات التي قالها وهو متروكٌ على الصليب من الله في المزمور الثاني والعشرين حيث يقول الهي الهي لماذا تركتني

وتُنبِّي ايضاً في شريعة موسى رمزاً عنهُ بانهُ لا يُكسَر منهُ عظمٌ. واتمام هذه النبوة فيهِ كان غريباً اذ كُسِرَت ساقا الاثنين اللذين صُلِبا معهُ دون ساقيهِ. وتنبا اشعيا انهُ يُجعَل قبرهُ مع الخطاة ومع الاغنياء في موته. وذلك قد تمَّ افضل تمامٍ لما عُلِّق على الصليب بين لصَّين ولما انزلهُ عن الصليب رجلٌ غني ودفنهُ في مقبرتهِ الجديدة. وقد تمَّ اكثر هذه الامور باعمال اعدائهِ وهم لا يشعرون بانهم يتممون نبوةً الهيَّة. ولا يمكن ان يكون اتمام هذه الامور الكثيرة التي سبقت النبوة بها واقعاً بطريق الصدفة والاتفاق

وبالحقيقة ان جميع الشريعة الطقسية الموسوية كانت نبوةً عن يسوع. واليهِ اشار العهد القديم الناموس والمزامير والنبوات جميعها كما قال الملاك ليوحنا روح النبوة هو الشهادة ليسوع

ثم ان المسيح نفسهُ لما كان على الارض تنبَّا بنبوات عديدة صريحة . ولاكثر امثالهِ كانت صفة نبويةٌ تشير واضحًا الى تقدُّم الانجيل ورذل اليهود ودعوة الوثنيين وحالة الكنيسة المستقبلة . وبنبوات صريحة ايضًا تنبَّأ بما كان عتيدًا ان يصيب تابعيهِ من العالم وبخيانة يهوذا الاسخريوطي وبانكار بطرس اياهُ ثلث مراتٍ في ليلةٍ واحدة وبظروف موتهِ على التفصيل وبقيامتهِ من الموت في اليوم الثالث . ولكننا نترك جميع ذلك الان ونأتي الى النبوة العجيبة التي تفوَّه بها يسوع لتلاميذهِ على جبل الزيتون عن خراب هيكل اورشليم وجميع شعب اليهود . وكان ذلك قبل ان تمت بنحو اربعين سنة وكتبها متى قبل تمامها بثلثين سنة او عشرين على الاقل . وكتبها ايضًا مرقس ولوقا بعد ما كتب متى انجيلهُ ولكن قبل ان وقعت الامور العظيمة التي كانت النبوة تشير اليها بسنين كثيرة . والقدماء يشهدون بان هذين توفيّا قبل افتتاح الرومانيين الحرب على ارض اليهودية . واما يوحنا فكان وحدهُ لم يبقَ حيًّا من الذين كتبوا الاناجيل وربما من الرسل ايضًا لمشاهدة اتمام نبوة الرب . ويستحق الاعتبار كون ذلك لم يذكر في انجيل يوحنا اصلاً

ويجب ان نلاحظ هنا انه لما تنبَّا الرب هذه النبوة لم يكن خراب اورشليم في الظاهر محتمل الوقوع . لان اليهود كانوا يومئذٍ في راحة وكانت قوة الرومانيين في حالٍ لا يُظَنُّ منها ان

قبيلةً صغيرة مثل اليهود تعصاهم

واما كلام هذه النبوة فهو موجودٌ في الاصحاح الرابع والعشرين من انجيل متى وفي الاصحاح الثالث عشر من انجيل مرقس وفي الاصحاح السابع عشر والحادي والعشرين من انجيل لوقا. ومرادنا الان ان نجمع كل ما كان مهمًّا من قضايا هذه النبوة ثم نبيّن كيفية اتمام ذلك. فنقول ان النبوة تتعلق اولاً با لعلامات التي سبقت خراب المدينة المقدسة. ثانيًا بظروف حصارها وافتتاحها. ثالثًا بعواقب هذه الحادثة الهايلة

فاولاً تُنبّئ بان العلامات التي تسبق هذا الامر تكون مُسَحَاءَ كَذَبة وفتنًا وحروبًا وجوعًا ووبأً وزلازلاً واموراً غير طبيعية تظهر في السماء واضطهاد المسيحيين وارتداد بعض المومنين وعدم وجود الرحمة وفساد الآداب بين الناس

ثانيًا تُنبِي بان ظروف هذا الحكم من الله تكون أن هذا الامر يحدث قبل زوال ذلك الجيل كلهِ. وان ذلك يحصل من حروبٍ ضد اليهود تثيرها قبيلةٌ وثنية حاملة رايات وثنية. وان اورشليم تخرب خرابًا تامًّا ويهدم الهيكل بحيث لا يبقى حجرٌ على حجرٍ. وانهُ يهلك خلقٌ كثير با لسيف. وان جمهوراً من الناس يساقون اسارى. وان الضيق حينئذٍ يكون اشد ما حصل في العالم. وان الرجز الالهي يكون ظاهراً في جميع هذه المصايب لان ذلك دُعِي يوم الانتقام وقيل انهُ يكون رجزٌ على الناس

ثالثًا تُنبِّي بان تكون عاقبة خراب هيكل القدس تفرُّق اليهود بين جميع القبايل وتمام انقراض دولة اليهود الذي تشير اليهِ الاستعارات النبوية في ان الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءَهُ وتتساقط النجوم من السماء. ورذل اليهود ودعوة الامم. وقيام انبياء ومُسحاء كذبة. واتساع هذه الاحكام على شعب اليهود ودوامها مع شيءٍ من اللوايح لرجوعهم. وتُنبِّي ايضًا بخلاص المسيحيين من هذه الشدايد ووُعِد لاجلهم بان تُقصَّر تلك الايام. واخيرًا تُنبِّي بانهُ يُكرَز بالانجيل في جميع القبايل

فينبغي لنا الان ان نبحث في كيفية اتمام هذه النبوات الكثيرة العجيبة. ومما يستحق الاعتبار ان العناية الالهية رتبت ان تاريخ الوقايع التي تمَّت فيها هذه النبوات يكتبه رجلٌ غير مسيحي قد عاين ما كتبهُ. وهو المورخ يوسيفوس الشهير بالصدق. وشهادتهُ عظيمة الفايدة في امر الديانة المسيحية لانهُ كان يهوديًّا ومات يهوديًّا ايضًا

اما من جهة المسحاء الكذابين الذين ورد ذكرهم صريحًا في النبوة فنعلم من المورخ المذكور ان مزوِّرين وسحَرة جذبوا اليهم كثيرين الى البرية يَعِدونهم بالمعجزات والعجايب. فمنهم من اصابهُ الجنون ومنهم من عاقبهُ فيلخس الوالي. وكان من المزورين ذلك المصريُّ الذي ذُكِر في كتاب اعمال الرسل انهُ جذب اليهِ كثيرين من الناس الى جبل الزيتون واعدًا اياهم بانهُ يخرب

اسوار اورشليم بكلمتهِ . وثوداس ايضاً كان من الذين ادَّعوا النبوة . وقال انهُ يقسم ماء الاردن شطرين . ولكنهُ هرب امام كوسبيوس فادوس وتفرَّقت اتباعهُ . واما هو فقُبِض عليهِ قُطِع راسهُ وحُمِل الى اورشليم . وفي مدة ولاية نيرون لما كان فيلخس واليًا على اليهودية ظهر كثيرٌ من المزوّرين حتى ان المورخ اخبرنا انهُ كل يومٍ كان يُمسَك اناسٌ منهم ويُقتَلون

وكان اذ ذاك انزعاجات عظيمة وفتن وحروب هايلة في اماكن شتَّى كقيسارية والاسكندرية وبابل . وهاج خصام شديد بين اليهود والسمرة وايضاً بين اليهود والساكنين معهم في المدن من القبايل الاخر . وقد اخبرنا يوسيفوس وفيلو خبرًا مستطيلاً عن هذه الفتن التي قُتِل فيها كثيرٌ من الناس . وحدث الجوع والوبأ والزلازل على قول سويتونيوس وغيرهِ من المورخين الوثنيين ونقل عنهم ذلك اوسابيوس ويوسيفوس وتاسيتوس وسينكا

وقد صرَّح يوسيفوس وتاسيتوس بان كثيرًا ما شوهد من العجايب حينئذٍ . فيقول يوسيفوس ان نجمًا كالسيف تعلَّق فوق المدينة سنةً كاملة . وان في الساعة التاسعة من الليل اضاء نورٌ ساطعٌ حول المذبح والهيكل وكان نورهُ كنور النهار مدة نصف ساعةٍ . وان باب الهيكل الشرقي الذي كان يغلقهُ عشرون رجلاً لعظمهِ ويتركونهُ مغلقًا بالعوارض المنيعة انفتح من

ذاتهِ. وانهُ قبل غروب الشمس كان يُرَى في السحب خيالات مركبات وجيوش تتحارب. وانهُ في عيد الخمسين اذ كان الكهنة يدخلون الى الهيكل الداخليّ سمعوا صوتاً كضجيج اناسٍ كثيرين قايلاً لنذهب من هنا. واما ما اثَّر في الناس اكثر من غيرهِ فهو مجيءُ رجلٍ من الخارج الى القدس في عيد الخيام بعد ابتداء الحرب باربع سنين راكضاً في المدينة يصرخ نهارًا وليلاً قايلاً صوتٌ من المشرق وصوتٌ من المغرب وصوتٌ من الرياح الاربع صوت ضد اورشليم والهيكل الويل الويل لاورشليم. فكان باطلاً اجتهاد الولاة في كفهِ عما هو فيهِ بالجلد والعذاب. فانهُ لم يزل يصرخ ولاسيما في الاعياد الحافلة مدة سبع سنين وخمسة اشهر لا يتعب ولا يبحُّ صوتهُ الى ان كان يومًا على السور في الحصار يصرخ كعادتهِ فاصابهُ حجرٌ فوقع قتيلاً. وتاسيتوس المورخ الروماني يشهد كما شهد يوسيفوس فيقول وشوهد جيوش في السماء قد انتشب الحرب بينها ولاح لمعان اسلحتها ونار من السحاب اضاءت في الهيكل وانفتحت بغتةً ابواب الهيكل الداخل وسُمِع صوتٌ يفوق صوت البشر قايلاً ان الالهة ذاهبة وحالاً لُحِظَت حركة ذهابها. انتهى. فكيفما يحكم الناس في هذه الاخبار يظهر منها جليًّا ان عقول الناس اذ ذاك كانت منزعجة ومرتعدة مما كان ظاهرهُ لهم انهُ من العجايب والى ذلك يشير قول النبوة وتكون مناظر مخيفة وعلايم عظيمة من السماء

واما ظروف الحصار وافتتاح المدينة فقد تُنُبِّي عليها ايضًا بالتفصيل. فكانت رجسة الخراب التي ذكرها دانيال النبي هي عساكر الرومانيين الذين كانت رايتهم نسرًا واقفًا على رمحٍ وهذه الرايات كانوا يعبدونها كآلهةٍ. فوقفت هذه حيث لايجوز لها ان تقف لانها نُصِبَت ليس في الارض المقدسة فقط بل في المكان المحرَّم حيث كان الهيكل قايمًا. واما المسيحيون فكان قد اتاهم الانذار بانهم متى ظهر هذا الخراب الرجس يبادرون حالاً الى الهرب. ففعلوا كذلك وعوض ان يذهبوا الى المدينة كما فعل غيرهم هربوا الى بلاَّ وراء الاردن

وقد حصل لليهود داخل المدينة من الضيق ما يفوق التصديق. لانهُ كان مجتمعًا منهم هناك اكثر من مايتي الف الف فازدحموا ببعضهم لضيق المكان. ولا يمكننا ان نتصور ما اصابهم ايضًا من الشدة في القتال المتصل مع الرومانيين وفي الانقسام الذي حصل بينهم في انفسهم وفي الجوع والوبأ اللذين اكتنفاهم. فلم يصادف قومًا مثل هذه الضيقة قبلاً ولعلهُ لايصادف احدًا من بعد

فاحاط باورشليم العساكر المحاصرون من كل جانب ومع ان حصونها كانت عظيمة القوة لم تمتنع عن الاخذ. ومع ان تيطس كان قد اعطى اوامر مخصوصة بان لايُهدَم الهيكل كان قم الرب قد اعلن ان الامر لايكون كذلك. فأُحرِق وهُدِم

وحفرت العساكر اساساتهِ طمعًا في وجود خزاين مكنونة هناك وبعد ان خربت المدينة امر تيطس ان تُمهَّد ارضها كالحقل بحيث لايكاد احدٌ يشعر بانها كانت معمورةً قط

وقد ذكرنا عدد الذين قُتِلوا في الحرب. واما الاسارى فكانوا سبعة وتسعين الفًا. ويوسيفوس اذ يقصُّ هذه الوقايع يستعمل كلامًا يطابق كلام المسيح في نبوتهِ. فيقول لو قابلنا مصايب جميع الناس منذ خليقة العالم بما قاساهُ اليهود لوجدناهُ اعظم من جميعها. واما كلام المسيح في ذلك فهو قولهُ وتكون ضيقة عظيمة لم يكن مثلها منذ بدء العالم الى الان ولا يكون فيما بعد

وقد اقرَّ يوسيفوس اليهودي وتاسيتوس الروماني الوثني ان هذه المصايب التي لانظير لها جاءت من نقمة الله على قومٍ امتلأت كاس ذنوبهم. وتيطس ايضًا بعد ان اجال نظرهُ في المدينة وعلو ابراجها واسوارها وعظم حجارتها وقوة الربايط التي ارتبطت بها هتف قايلاً بموازرة الله قد ظفرنا في هذه الغزوة وهو سبحانهُ الذي اخرج اليهود من هذه الحصون لانهُ ماذا تستطيع ايدى البشر او آلاتهم الحربية ان تصنع في مثل هذه الابراج. انتهى. ولم يَرضَ ان يُكلَّل بعد هذه الغلبة كما جرت عادة الرومانيين قايلاً انهُ لم يكن هو صاحب هذا العمل العظيم ولكن غضب الله على اليهود هو الذي اعطاهُ الغلبة

٩ واخيرًا نقول انهُ قد نُبِّي عن عواقب هذه الواقعة الهايلة

بكل تدقيق وتمّ ذلك ايضاً كل تمامٍ . فتفرّق ما بقي من اليهود على وجه الارض وهم لا يزالون على هذه الحال الى يومنا هذا . والمسيحيون اذ عملوا بمقتضى تحذير ربهم تخلّصوا من كل شدايد الحصار . والامم داسوا القدس ولا يزالون يدوسونها الى هذا اليوم

نعم ان ادريانوس القيصر الروماني بنى اورشليم ثانيةً ولكن ليس في مكانها الاول بعينهِ وسماها ايليا وبقي ذلك اسمها الى ايام قسطنطين . ويوليانوس القيصر الذي وُلِدَ في الديانة المسيحية ثم كفر بها فهذا بغضةً لهذه الديانة وابطالاً لقول النبوة ان الامم تدوس القدس قصد ان يرجّع اليهود اليها ويبني هيكلهم . ففرض كثيراً من المال لهذا العمل واقام عليهِ احد امرآيهِ وساعدهُ على ذلك والي البلاد التي كانت القدس جزءًا منها . ولكن لم يمكن ان يتوصل اصحاب العمل الى الاساسات لانهُ خرج منها قطع نارٍ مخيفة واحرقتهم ولهذا عدلوا عن مقصودهم . ولهذا الخبر يوجد من الشهود ما يلجينا الى تصديقه . فقد شهد بذلك يوليانوس نفسهُ ومورخه اميانوس مرسلينوس الوثني وزيماخ داود اليهودي الذي يعترف بان العناية الالهية اعترضت يوليانوس في عملهِ والنازينزي ايضاً وفم الذهب من الروم وامبروسيوس وروفينوس من اللاتينيين . وجميعهم كانوا في زمان وقوع هذا الامر العجيب . وبعد خمسين سنة من ذلك كتبهُ المورخون

ثيودوريت وسقراط وسوزومين وفيلوستورجيوس وهم ممن يوثق بهِ. واما ما يتعلق من النبوة برجوع اليهود فباقٍ ليتمَّ. وعند ما يتمُّ ذلك يتمُّ البرهان من هذه النبوة ويلزم التصديق الكامل وذلك يكون عند ما تتمُّ ازمنة الامم. وقد اطال الكلام بولس في رسالتهِ الى الرومانيين على ظروف هذا الامر العظيم. فانهُ يقول وان كانت عثرتهم غناءً لاهل الدنيا ونقصانهم صار غنايةً للامم فكم بالحري ملؤُهم. فاني لست اريد ان يفوتكم يا اخوتي هذا السرُّ ان العمى انما اتى اسرائيل لبعضهم الى ان يدخل ملءُ الامم وبهذا يخلص كل اسرائيل[1] ولا حاجة الى ذكر بشرى الانجيل الى جميع القبايل لاننا قد ذكرنا ذلك في مكانهِ

فبعد هذا النظر اليسير الجامع الى بعض نبواتٍ غريبة توجد في الكتاب المقدس لايمكن ان يقنع احدٌ ضميرهُ بان جميع هذه المطابقات قد حصلت على سبيل الصدفة. او ان جميع ذلك قد اخترعتهُ الفطنة البشرية. ومن لايرى السراج المنير في مكانٍ مظلم من هذه النبوات التي جاءَت من وحي روح القدس على لسان الانبياء[2] فهو اعمى لايبصر شيأً

(١) ص ١١ (٢) بطرس الثانية ص ١ ع ١٩ الى ع ٢١

الفصل الثاني عشر

في انهُ لايوجد ديانة حاصلة على ما حصلت عليهِ الديانة المسيحية من بيّنات المعجزات

اذ قد فرغنا من النظر الى الادلّة الخارجية على صحة الديانة المسيحية راينا ان نبحث في انهُ هل لديانةٍ اخرى قديمةً كانت ام حديثة كما لهذه الديانة من البينات . وهل يوجد لمعجزاتٍ اخرى كما يوجد للمعجزات المذكورة في الانجيل من الشهادات المقنعة على صحتها

ان ما يموّه بهِ الكافرون غالبًا في هذا الموضوع قد يجعل الواقف على مذهبهم اذا كان جاهلاً يزعم ان جميع الاديان متشابهة في اصلها . وان جميعها تدّعي بالمعجزات والوحي وانها لذلك تكون متساوية في الحق . ولكن عند ما ناتي الى تدقيق النظر ونسال ايُّ ديانةٍ موجودة او منسوخة تاتي بحقيقة دعواها من المعجزات المشهود لها بافضل الشهادات ومن تمام النبوة المدقق لانجد الاَّ الديانة اليهودية والديانة المسيحية . لاننا من الديانات الوثنية العديدة لا نرى واحدةً قد تاسست على معجزاتٍ ظاهرة او نبواتٍ سابقة . نعم كان لها من الخرافات والاجوبة من

آلهتها ما اضلّ الجمهور المايلين الى التصديق . وادّعى موسّسوها بانهُ قد أُنزِل عليهم الوحي او بانهم قد ناجوا الالهة . ولكن هل يمكن ان ياتي احدٌ من جميع اديان الوثنيين بمعجزةٍ يُشهَد لصحة وقوعها شهادة يوثق بها . وهل اتى الوثنيين قط اعلانٌ غير مشتبه لايحًا عليهِ ان الهتهم كانوا يعلمون الغيب . ان الادّعآء بوحيٍ الهيٍّ هيّنٌ يقدر عليهِ كل احدٍ ولكن الصعوبة في اثباتهِ

هذا وانه لا خلاف في انهُ قد ظهر في العالم كثيرٌ من المزوّرين واصحاب الخيالات المنخدعين . وان السبب في وجوب رفضهم وعدم تصديق دعاويهم انما هو عجزهم عن اظهار بيّنةٍ كافية على انهم قد أُرسِلوا من الله ليعلّموا الديانة للناس . واذ قد اتفق الجميع في ذلك فما الفايدة من الاتيان بهذه التزويرات والخداعات ونحن في فحص الادلة على الديانة المسيحية . هل يكون وجود دعاوي كثيرة كاذبة بوحي الهي سببًا لرفض ديانةٍ مثبتة باقوى الشهادات . هل تُنكَر صحة المعجزات المثبتة ببيّنات كثيرة لانهُ قد أُخبِر عن عجايب ومعجزات غيرها لا بيّنة لها . ولان اجوبة الالهة الوثنية اعطت في امورٍ عتيدةٍ اقوالاً غير قاطعة ملتبسة . ألا نثق بنبواتٍ كثيرة صادقة قد كُتِبت من زمانٍ طويل وتمت على نوعٍ ادقّ واغرب ما يكون

قد قيل ان اخبار جميع القبايل القديمة انما هي حكاياتٌ فارغة وهي مشحونة من قصص العجايب التي لا يمكن تصديقها .

ومن ذلك قد يُستنتَج ان معجزات العهد القديم والجديد كذلك. فنجيب ان اتفاق القبايل العمومي على وجود معجزاتٍ يوافق المذهب انهُ قد حدثت في وقتٍ ما معجزاتٌ حقيقية. ونقول ايضًا ان لتاريخ موسى الذي هو اقدم من كل تواريخ اليونانيين والرومانيين باكثر من الف سنة كل بينةٍ على انهُ خبرٌ عن حوادث حقيقية. وفضلاً عن ذلك لم يكن العصر الذي وقعت فيهِ المعجزات المذكورة في العهد الجديد عصر الظلام والخرافات بل كان افضل الاعصر الوثنية نورًا وفيهِ وُجِد اشهر المورخين والخطباء والشعراء. فلم يكن قطُّ زمنٌ يتعسَّر فيهِ تصديق الجمهور بمعجزاتٍ غير مثبتة بالشهادات القاطعة اكثر من ذلك العصر وما يليهِ. وكان ايضًا في ذلك الوقت ميلٌ عموميٌّ الى الارتياب والكفر. ولهذا لا تنتج من اعتقاد الاعصر القديمة المظلمة باخبار معجزاتٍ غير مثبتة نتيجةٌ غير موافقة للديانة المسيحية بل لا بد من ان ظهور اخبار المعجزات الكاذبة كان يوقع الحذر والفحص الدقيق في ادلة كل خبر مثلها. لان العقل السليم لا يرضى باختلاط الحق والباطل بل يطلب ان تدخل كل قضيةٍ تحت فحصٍ دقيق فتقوم او تسقط بحسب قوة البينة وضعفها. فان لم يكن للمعجزات المذكورة في الكتاب المقدس من البينات افضل مما لخرافات الوثنيين فلا يجب تصديقها اكثر من هذه. ولكن اذا كان لها بينات كافية فلا يجب ان تختلط باخبارٍ يظهر كذبها من

نفسها او على الاقلّ ليس لها من الشهادة ما يحتمل التصديق

ولا سبيل الى الحكم في قضايا وقعت منذ زمانٍ طويل الا بالشهادة. ولا ريب ان حقيقة الديانة المسيحية هي امرٌ واقعٌ اذ قد اتينا اثباتًا لذلك بشهاداتٍ لا يمكن تكذيبها. والان نطلب من اخصامنا ان يُرونا ديانةً اخرى مبنية على مثل هذا الاساس الوطيد. لكنهم عوضًا عن ذلك يريدون ان يلهونا بكلامٍ فارغٍ في شدة ميل الانسان الى التصديق وفي كثرة الاحاديث الكاذبة التي ذاعت بين الناس وصدّقوا بها. ولكن ماذا يتعلق ذلك بالمسألة. فاننا نسلّم بقولهم هذا ومع ذلك نصرّح بان لاشيء فيهِ من البرهان على تكذيب الامور التي كتبها اصحاب الاناجيل المثبتة باقوى الشهادات. فهل لانهُ يوجد كثيرٌ من الكذب في العالم ينقطع وجود الصدق. لو صحّ ذلك لصحّ انكار وجود اهل الصدق لان اهل الكذب كثيرون

واما المعجزات الكاذبة التي يُؤتَى بها لخصمٍ لمعجزات المسيح ورسلهِ فتقديمها حيلةٌ قديمةٌ اقل ما يكون من عهد الجيل الثاني بعد ميلاد المسيح اذ كتب فيلوستراتوس بطلب جوليا اوكستا امراة سويروس الامبراطور تاريخًا او بالحري حكاية عن ابولونيوس. وكان هذا ابولونيوس من تيانا احدى مدن كبادوكيا وكان معاصرًا للمسيح بالتقريب. ولكن لا يُعرَف الان هل كان فيلسوفًا ام ساحرًا لان حكاية فيلوستراتوس عنهُ التي لم تزل

موجودةً الى الان ليس فيها شيءٌ من الاشارة الى شهود العين ولا الى حججٍ ما صحيحة بل يلوح عليها من الكذب كل ما يلوح على غيرها من الحكايات الباطلة. نعم انه لم يُذكَر فيها ان كاتبها قصد ان يضع ابولونيوس هذا خصمًا ليسوع المسيح ولكن ذلك صريحٌ من مشابهة كثيرٍ من معجزاتهِ للمعجزات المذكورة في الانجيل التي يُظَنُّ انهُ نقلها عنهُ. اذ قيل انهُ اقام الموتى واخرج الشياطين وقام هو نفسه من الموت. وقيل ايضًا ان الكلمات التي قالتها الشياطين للمسيح. وذكرها لوقا في انجيلهِ وهي قولهم أَأَتيت قبل الزمان لتعذّبنا قالها شيطانٌ اخرجهُ ابولونيوس. وما عدا هذه المعجزات يدَّعي الذي كتب سيرتهُ انهُ راى وحوشًا رؤُسها آدميَّةٌ وجثثها اسديَّةٌ ونساءً نصفهنَّ ابيض ونصفهنَّ الاخر اسود وغيلانًا وعفاريت وجنًّا ومسوخًا وغير ذلك من الاوهام الباطلة

ثم في الجيل الرابع عمل هيروكليس الذي كان شديد البغض لديانة المسيح مقابلةً بين يسوع وابولونيوس وبعد ملاحظة معجزاتهما فضَّل ابولونيوس على يسوع. واما كتابه فمفقودٌ لكن اوسابيوس رد عليه ومن هذا الرد نطَّلع على ما اخبر بهِ هيروكليس. والحاصل من خبر ابولونيوس المذكور هو ان معجزات المسيح كان يُعتقَد بها في الجيل الثاني اعتقادًا شديدًا وكان لها عضدٌ من الشهادة بحيث لم يستطع اعداءُ ديانته على

انكارها. ولذلك احنا لوا في اذاعة اخبارٍ عمَّا يساويها من معجزاتٍ صنعها غيرهُ

وفي هذه الايام ايضًا قد التجأ الكافرون الى هذه الحيلة نفسها واتخذوا معجزاتٍ غير صحيحة لا يصدّقونها برهانًا على عدم صحة معجزات المسيح ورسلهِ. فلذلك راينا ان نضع هنا بعض مبادئ عمومية تمتاز بها المعجزات الصحيحة من الكاذبة

اولًا يجب امعان النظر في حقيقة الحوادث الواقعة هل هي من باب المعجزة. اذ قد تكون الشهادة كافيةً لاثبات وقوع الحادثة ومع ذلك تكون قد وقعت عن اسبابٍ طبيعية فلا تكون معجزة

اما معجزات المسيح فكانت لا تحتمل الريب في كونها فايقة الطبيعة بخلاف ما عملهُ غيرهُ. فان المشهود بصحة وقوعه من عجايبهم كان اكثره مما لهُ اسبابٌ طبيعية كافية لوقوعهِ من دون توسطٍ خصوصي من العناية الالهية فيهِ. فلا ريب في ان الرجل الذي كان مصابًا بعينيهِ مثلًا وقيل انهُ شفي بمرور يد فسباسيانوس الامبراطور عليها كان ذلك من مكر كهنة الهيكل الذي حدث فيهِ هذا الصنيع. وكذلك الاعرج الذي شفي بلمس رِجل هذا الامبراطور. فانهُ لم يكن يدّعي بان لهُ قوَّة عمل المعجزات ولم يجرّب ذلك الاَّ بعد الطلب الكثير. نعم اننا ربما نسلّم بصدق الوقايع حسبما اخبر بها تاسيتوس مع انهُ لم يعاينها

لانهُ يُحتَمل انهُ قد أُتِي برجلين مثل المذكورين وانهما ادَّعيا بالشفاء. ولكن ما البينة على ان ذلك كان معجزةً حقيقية اذ لم يكن احدٌ حاضرًا ممن يريد الفحص عن صحتها لكونهِ لا يعتقد بذلك الدين. ويُحتَمل ان الكهنة الذين طلبوا من الامبراطور عمل المعجزة كانوا قد علَّموا وأَعدُّوا اللذين ظهرت فيهما وان الامبراطور تعلق بذلك اذ حسب انتخاب الهم اياهُ لعمل المعجزة انه اكرامٌ. وجميع ما مُدِح بهِ تاسيتوس لرفع شان شهادتهِ لامحلَّ لهُ هنا لانهُ اخبر بما سمع من الاخرين فقط. والظاهر من كلامهِ انهُ لم يصدِّق ما سمع

وقد تبيَّن من الفحص ان كثيرًا من الاشفية التي حصلت في مقامات الموتى كان من باب الحيلة والشعبذة. وان ما كان منها صحيحًا كان من انفعال تخيلة متهيِّجة كما قد راينا تاثيرها في استعمال المغناطيس الحيواني والقضبان المعدنية. من ذلك ما حدث عند قبر القس باريز. فانهُ كان اكبر بني احد الشرفاء في مدينة باريس ولاجل شدة ميلهِ الى العبادة ترك ميراثهُ لاخيهِ الاصغر ونزل في بعض اماكن المدينة الغير المانوسة واصرف حيوتهُ في التقشف الشديد والاهتمام باغاثة الفقراء. ثم مات فدُفِن في ارض كنيسة مار ميدارد بقرب السور حيث بنى اخوهُ قبةً على قبرهِ. فجاء كثيرٌ من الفقراء الذين كانوا يعرفون سيرة حيوتهِ وصاروا يصلُّون هناك وربما كان ذلك منهم لاحسانهِ اليهم. ثم ادَّعى بعض الذين كانوا يصلُّون هناك ان امراضهم

كانت تشفى بذلك. ولما شاع الخبر قام الجنسانيون الذين كان القس المذكور من مذهبهم يدَّعون بان معجزاتٍ ظهرت عند قبرهِ وبذلك سيق كثيرون من المرضى الى زيارة ذلك القبر. ولكن لما تمادى الامر انتصب جماعةٌ من اهل التحقيق للنظر في ذلك فاقرَّ لهم بعض الزايرين انهم قد كُلِّفوا بان يدَّعوا امراضًا لم تكن فيهم. وكان الواقع ان اكثرهم لم ينتفعوا شيئًا. وقد تجدَّد من الامراض اكثر مما شُفِي لان كثيرًا من العابدين اخذهم نوعٌ من الرجفة ومن ذلك اشتهرت طايفة الرجفيين مدة سنين. ثم راوا مناسبًا ان يقطعوا الناس عن زيارة القبر. ولكن لم ينقطع الخبر عن هذا القديس انهُ كان يشفي المرضى ولو كانوا بعيدين. فجدَّ اليسوعيون واجتهدوا في تكذيب الخبر باجمعهِ. واقام اسقف باريس ديوانًا للنظر في اغرب ما حدث من الاشفية فكانت نتايجهُ متنوعة ومنها ما كان مضحكًا. وكان من هذه الاشفية ان صبيَّةً قيل انها شفيت عند القبر من العمى والعرج ولكن عند الفحص ظهر انها لم تكن البتة مصابةً بذلك. ومنها ان رجلاً قيل انهُ كان سقيم العينين فصحَّت عيناهُ بزيارة القبر ولكن عند الفحص وُجِد انهُ كان يستعمل علاجًا لعينيهِ ومع ذلك لم يبرأ من مرضهِ بالكلية. ومنها ان قسًّا كانت احدى رجليهِ اقصر من الاخرى فتوهم ان رجلهُ القصيرة استطالت شيئًا ولكن عند التحقيق وُجِد انها لم يحدث فيها شيءٌ من الزيادة. ومنها ان امراةً كانت احدى

رجليها ايضاً قصيرة كانت ترقص على القبر كل يوم لكي تاتيها زيادةٌ في الرجل القصيرة فتوهمت انها قد حصلت على ذلك ولكن عند التحقيق وُجِد انها لم تزل كما كانت. وبالاختصار نقول ان عدد الذين انتفعوا بزيارة ذلك القبر لم يبلغ عشرة انفار وجميعهم كان لانتفاعهم اسبابٌ طبيعية وبعضهم لم يبلغوا تمام الشفاء

ثانياً للحكم بين صحيح المعجزات وفاسدها مبدأٌ اخر وهو انهُ يمكننا ان نلحق شهادة المعجزات الصحيحة الى نفس زمان وقوعها واما اخبار المعجزات الكاذبة فتقوم بعد الزمان الذي وقعت فيهِ بزعم من يخبر عنها. كما صار في قضية ابولونيوس وغيرها كثيراً

ثالثاً ان المعجزات الصحيحة تُعرَف بظهور خبرها والتصديق بها اولاً في المكان الذي وقعت بهِ وبين القوم الذين حدثت بينهم. وصحة ذلك في المعجزات المذكورة في الكتاب المقدس صريحةٌ لاتحتاج الى برهانٍ بخلاف معجزات كثيرة تقع تحت الريب لانهُ أُخبِر بها اولاً وصدَّقها قومٌ في مكان بعيدٍ عن المكان الذي زعم المخبر انها وقعت فيهِ. ومن ذلك المعجزات التي نُسِبت الى فرنسيس زافير مثلاً. فانهُ في جميع رسايلهِ لما كان رسولاً في المشرق لم يذكر شيئاً من صنيع المعجزات. واحد المصنفين المشهورين الذي اخبر عن اتعاب حيوتهِ بعد موتهِ باربعين سنة

لم يذكر انهُ كان يصنع المعجزات بل اقرَّ انهُ لم تُصنَع معجزاتٌ بين الهنود . وقيل ان هذه المعجزات صُنِعَت في اقاصي الهند ويابان ولكن انتشر خبرها اولاً في اوروبا . وكذلك اكثر المعجزات الكاذبة فان تاريخها يُكتَب بعد الزمان الذي قيل انها صُنِعَت فيهِ بمدَّة طويلة وكثيرًا يشتهر خبرها اولاً في بلادٍ بعيدة عن الامكنة التي يزعم انها وقعت فيها . فتكون في الحقيقة ناتجةً من اختراع الخبثاء الماكرين

رابعًا انهُ في الحكم على صحة المعجزات يجب ان يُسأَل عنها هل فُحِصَت في وقتها بالتدقيق ام تُرِكت بغير فحص . لانهُ اذا كانت المعجزات المُخبَر بها موافقةً لاغراض الذين صُنِعت امامهم او لاهوآء ذوي السلطة الذين يستطيعون ان يمنعوا كل فحصٍ ويوجّهون الاخبار حيثما يريدون ولذلك لم يحصل الفحص في صحتها فهي تحت ريبٍ عظيم . واما ما حصل من الشفآء على قبر القس باريز فلم تكن هذه ظروفهُ . لان الجنسانيين الذين كان المذكور من مذهبهم لم يكونوا وقتيئذٍ اصحاب السلطة فكان لاعدآيهم فرصةٌ لفحص القضايا بكل جهدٍ . ولذلك لنا الان اخبار حقيقية عن هذه الوقايع . ولكن في الغالب كانت المعجزات التي يخبرون بها تُصنَع حينما لم تكن فرصةٌ للفحص عنها او اراد الحاضرون التمسك بتعاليمهم المحبوبة عندهم او حينما كان لذوي الشوكة غايةٌ في ذلك

الفصل الثالث عشر

في ان الكتاب المقدس يتضمن بيناتٍ داخليَّة تدل على انهُ من الله

ان كانت التعاليم الموجودة في الكتاب المقدس من الله فلا بد من وجود صورة صفاته الطاهرة فيها . وان كان الوصول الى كشف تلك الصورة ممكنًا فلا ريب في انها تكون من اعظم البينات واقنعها على ان الكتاب كتابهُ . فهذه البينة الداخلية هي السند الذي قد اعتمد عليهِ جمهور المسيحيين في كل عصرٍ من غير ان ياخذوها على سبيل البرهان المنطقي . اذ لا يستطيعون ان يدركوا قوة البينات الخارجية لان ذلك يحتاج من العلم الى ما ليس اكثر الناس حاصلين عليهِ . واما البينات الداخلية ففي امكانهم اذ تؤثّر في عقولهم كلما قرأُوا او سمعوا شيئًا من كتاب الله . فلا يكون اعتقاد المسيحيين الاميّين اذًا راسخًا على التسليم الاعمى الى ما تعلموه في سنّ الحداثة بل هو راسخٌ على احسن البينات وافضلها . وان قلنا على ايّ البينات يتوقف الايمان الذي يُنسَب اليهِ تطهير القلب وخلاص النفس فيكون الجواب ان ذلك يتوقف على البينات الداخلية لا كما يُتصوَّر بمجرَّد العقل بل كما

يدركهُ الايمان بتنوير الروح القدس . ولاجل ذلك نحسب هذا النوع من البينات انفع ما يكون من هذا القبيل للمسيحيين الحقيقيين . ولو رضي الكافرون ايضاً بان يلتفتوا اليهِ طالبين الحق من غير انحرافٍ لربما كانوا يشعرون بتاثيرهِ ويقتنعون بصدق الديانة المسيحية . واما الوقوف جيداً على بينات كتاب الله الداخلية فلا يتيسَّر الا بمطالعة الكتاب المقدس عن رغبةٍ وقَّادة . وهي لا تنتظم على صورة برهانٍ منطقيٍّ بل تقوم بصلاح الحق وجمالهِ الادبي وبمطابقتهِ للعقل البشري وبقوته العجيبة في دخوله الى القلب وفحصهِ وتاثيرهِ في الضمير . وكذلك توجد في تعاليم كتاب الله واوامرهِ طهارةٌ فايقة وروح عبادةٍ سماوي وقوة مقدِّسة وتعزيةٌ للقلب الحزين لا يمكن الا ان يشعر بها كل من يقراهُ بالوقار . فجميع هذه الاوصاف قد يتصورها العقل ويشعر بتاثيرها مع انه لا يمكن جمعها وتقديمها على صورة البرهان بكل قوتها . ولكن هذه بينات وان كانت لا تظهر بكل قوتها الا للذين يطالعون كتاب الله ويتاملون في حقايقهِ نهاراً وليلاً يمكن ان نختار منها بعض قضايا اصلية ونقدمها للقاري على طريقةٍ مفيدة . وذلك هو المقصود مما نذكرهُ بالاختصار من الكلام الذي كان يمكننا ان نطيلهُ بكل سهولةٍ

وبما ان العهد القديم والعهد الجديد مرتبطان ببعضهما كل الارتباط وهما اجزاء كتابٍ واحدٍ لا حاجة الى تمييزٍ بينهما في ما

ياتي من الكلام على هذا القسم من البينات على الوحي الالهي

فنقول اولاً ان الكتب المقدسة تعبّر عن الله وصفاتهِ بطريقةٍ توافق ما كان ينتظرهُ العقل السليم في الوحي من الله . فيُوصَف الله فيها دايمًا بالوحدة والكمالات الغير المحدودة مثل الازلية والقدرة على كل شي والعلم بكل شي والحضور في كل مكانٍ وعدم التغير الى غير ذلك . وهذه المعرفة بالله كان يعتقد بها الذين وُجِد عندهم كتاب الله مع ان جميع القبايل الاخرى كانت متورطة في الاعتقاد بآلهةٍ كثيرة والعبادة الوثنية الدنسة . نعم ان بعض القبايل كانت اشدَّ من الاسرائيليين باسًا واكثر منهم علماً بالامور الدنيوية ولكنهم في معرفة الله كانوا في ظلامٍ حالكٍ اذ كان بنو اسرائيل يتمتعون بنور الحق . وقد قام فلاسفة محققون في ممالك مختلفة واشتهروا بين الناس لاجل مذاهبهم ولكنهم لم يستطيعوا ان يُصلِحوا اعتقاد الجمهور بل كانوا هم انفسهم لا يزالون تايهين في الظلام

ان من عادة الكافرين ان يهزأُوا بكتاب الله ولكن لولا ذلك الكتاب لما وجد على وجه الارض اعتقادٌ صحيح بالله . ولا يوجد الان انسانٌ يعتقد بالهٍ غير محدودٍ في كمالهِ الا وتتصل معرفتهُ بهذه الحقيقة الى كتاب الله بواسطةٍ من الوسايط . فما السبب في ان المعرفة الصحيحة بالله قد وُجِدت مقترنة بالكتاب المقدس في كل عصرٍ وهي مفقودةٌ في غيرهِ الا ان هذا كتابٌ

من الله . لانهُ لوكانت معرفة الاله الحقيقي التي يتضمنها هذا الكتاب تستفاد من اكتشاف العقل فلماذا لم تصل القبايل التي فاقت اليهود فى العلم والتهذيب الى معرفة هذه الحقيقة الضرورية

نعم ان الكتب المقدسة في اماكن تعبّر عن الله كمن لهُ اعضاءٌ جسدية وطباع بشرية . ولكن بعد نظرٍ قليلٍ يرى القاري النبيه ان جميع هذه العبارات قد استُعمِلت تشبيهًا بما اصطلح عليهِ الناس من الكلام . وذلك لان كلام الناس غير كافٍ للتعبير عن صفات الله الذي يفوق ادراكنا بما لا يُحَدُّ في ذاتهِ وفي كيفيَّة وجودهِ وعملهِ فلا نقدر ان نصل الى تصوراتٍ صحيحة في ذلك الا على سبيل التقريب . وعند ما نتكلم عنهُ نحتاج ان نتصور صفاتهِ الكاملة شبيهةً بما في العقل البشري وان نستعمل كلامًا يُعبَّر بهِ عن الاعمال والحاسيات البشرية لان غير ذلك لا يكون مفهومًا . ثم ان الاحتياج الى هذا التشبيه اشدُّ مما يظنُّ كثيرٌ من الناس فلا يُحتاج اليهـا من جهة الكلام الذي اذا أُخِذ حرفيًّا يتضمن تصوُّر اعضاءٍ جسدية وطباعٍ بشرية فقط بل ايضًا من جهة الكلام الذى يُعبَّر بهِ عن اعمال الارادة والعقل . ولذلك يكون اسلوب الكلام هذا برهانًا على حكمة الله الذي خاطب الانسان بالطريقة الوحيدة التي يستطيع ان يفهمها لا اعتراضًا على كتاب الله

ثم ان كل ناظرٍ الى كتاب الله يرى ان الحقايق الموجودة فيهِ لم توضع مرتبة على طريقةٍ علمية . فلا نجد فيهِ شيئًا من المباحث العويصة في المبادي الفلسفية ولا من التفنُّن باساليب الكلام المنطقية ولا من الانتظام على هيئةٍ صناعية . وقد يكون في كل ذلك حكمةٌ عظيمة . ولكن ان راينا السبب فيه او لم نرهُ فالاعتراض على الوحي من هذا القبيل ليس باعظم مما لو اعتُرِض على العالَم الطبيعي من حيث عدم وجود الاخشاب والحجارة مبنيَّةً بيوتًا مُعَدَّةً للسكنى او من حيث عدم وضع اشجار الحقول والغابات على هيئة بستانٍ مرتب

والكلام فيهِ عن الله انما هو على طريقة بسيطة مع سمو بالغ . فانه ربما تكون الالفاظ في ذلك قليلةً ولكنها تكون ذات معانٍ عظيمة . فلما اراد موسى ان يعرف اسمًا لايقًا يذكرهُ لفرعون امرهُ الله ان يقول اكون الذي اكون ارسلني اليك . ولما أُعلِن لموسى اسم العليّ مرةً اخرى كان ذلك بهذه الكلمات الشهيرة الرب الرب الهٌ رحيم جواد طويل الروح كثير الصلاح والحق يحفظ الرحمة لالوف ويغفر الاثم والمعصية والخطية ولا يزكّي المذنب . فان كانت البساطة التامة المقرونة بالبلاغة الكلية برهانًا على ان الذين كتبوا هذه الكتب كانوا ملهمين من الله يمكننا ان ناتي بكثيرٍ من الايات على هذه الصفة . ولكننا لا نريد ان ننسب الى البرهان من هذه الجهة قوةً اكثر مما يستحق

واما فخر كتاب الله فهو في ما وُجِد فيهِ من اظهار صفات الله الادبية . فان هذه لا تظهر من اعمال الخليقة الا قليلاً ولكن في الكتب المقدسة نورها ساطعٌ كالشمس . ولا يسعنا الكلام في هذا المختصر ان نتوسَّع في هذه القضية فنقتصر على ذكر ما فيها من قداسة الله وجودته

وهاتان الصفتان ظاهرتان في صحايف كتاب الله وهما اعظم ما يمتاز بهِ عن غيرهِ . ولا فرق بين ان نعتبر كل واحدةٍ قايمةً بنفسها وبين ان نعتبرهما صفةً واحدة تظهر على كيفيتين . فمن يقدر ان ينظر في هذا الكتاب الطاهر ولا يرى ان الاله المذكور فيهِ الهٌ قدوسٌ . لان كل شرايعهِ ورسومهِ واعماله مقدسة حتى ان فرايضه الطقسية ايضاً كانت موصوفة بذلك . فكل ما اشتغل بعبادتهِ في تلك الطقوس من انسانٍ او بناءٍ او اناءٍ فلا بد من افرازهِ لتلك الغاية . وكل من تقدم الى الله فعليهِ ان يتقدم بالحذر والمهابة لانهُ سبحانهُ قدوسٌ . بل قد تقدست كل ارضٍ داسها لما اظهر نفسهُ . وطُلِبت من عبادهِ كل اشارةٍ خارجية الى المهابة الكلية في وقت العبادة . وعند ما أَظهَر نفسهُ على اجلى منوالٍ كان اصلح الناس يخجلون ويصيرون كالاموات من اشعارهم بفساد طبيعتهم . والظاهر ان الجنود السمويين الخالين من كل دنس الخطية ينذهلون ايضاً من قداسة الله . فلا يصرخ بعضهم لبعضٍ فقط حينما يسجدون حول عرشه العلي

ويقولون قدوس قدوس قدوس بل يخرُّون سجودًا امامه ويسترون وجوههم من فرط المهابة. وجميع عبارات الكتاب التي ذُكِر فيها غضب الله ورجزهُ وسخطهُ وغيرتهُ انما هي دلايل واضحة على قداستهِ الغير المتناهية. وجميع احكامهِ وتهدُّداتهِ الصارمة والعقاب الذي يعاقب بهِ خلقهُ في هذا العالم وفي الاخرة وعلى الخصوص آلام المسيح الشديدة العظيمة انما تدلُّ على قداسة الله

فوجود جميع ذلك في الكتاب المقدس يدلُّ قطعًا على انهُ كتاب الله. لانه ان كان يوجد الهٌ فلا بد من كونهِ قدوسًا وان اعلن الاله نفسهُ فلا بد ان تكون قداستهُ ظاهرةً في ذلك الاعلان. ولكنه ليس من شيمة المزورين الاشرار ان يهتمُّوا باشهار مثل هذه الصفة بل باخفايها عن الناس بالكلية. ولا شيء اوضح لمن يتامل الطبيعة البشرية بانتباهٍ من ان الناس طبعًا لا يحبُّون القداسة مع انهم يلتزمون ان يعترفوا بفضلها. وربما كان هذا هو السبب في ان اهل العالم يهملون الكتب المقدسة او بالحري يتجنبونها مع انها في لغاتها التي أُنزِلت فيها تتضمن من الكلام افضل واسمى ما يشعر بهِ الذوق السليم. حتى لو وُجِد جزءٌ من كتابٍ اخر قديم كُتِب في زمان الكتب المقدسة لكان يطلبهُ بالرغبة الشديدة كل من كان من اهل الادب ولا سيما اذا كان فيهِ شيءٌ مثل ما في هذا من صناعة الانشاء. وقد كنت اجهل

السبب في ذلك حتى اقتنعت الان بانه ليس الا قداسة الله العظيمة الموجودة في الكتاب المقدس والظاهرة في كل صحيفةٍ منهُ. فانها تضرب في ضمير الانسان الغير الطاهر كما يضرب شعاع شمس الظهيرة في الاعين السقيمة. وعلى ذلك قولهُ تعالى ان الله نارٌ آكلة. فيكون اهمال الكتاب المقدس من اهل الدنيا برهانًا قاطعًا على انهُ من الله. لان المسئلة التي نحن في صَدَدها هي ان الذين كتبوا هذا الكتاب هل كانوا ابرارًا موحى اليهم من الله ام اشرارًا مزورين. والذي ذكرناه من امارات القداسة الموجودة فيه يوافق كونهم اصحاب وحي وينافي كونهم اصحاب تزوير بل يوجب الاقرار بان المزوّرين لا يمكن ان يكتبوا كتابًا تكون القداسة اخصَّ ما يمتاز بهِ كما قد وجدناها في الكتاب المقدس

كذلك تذكر الكتب المقدسة جودة الله على اوجه كثيرة. منها ما يبديه الى خلقهِ من عنايتهِ بحفظ جمعٍ غفيرٍ هكذا من الحيوانات واشباعهم كل يومٍ طعامًا وعلى الخصوص الى الجنس البشري. والذي ورد في الكتب المقدسة من التسبيح لله على جودة عنايتهِ العظيمة كما في المزمور ٣٣ و١٠٣ و١٤٤ و١٤٦ و١٤٧ هو من اجمل واسمى ما يوجد من انواع الانشاء

وللجودة الالهية المذكورة في الكتب المقدسة وجهٌ اخر يُعرَف بالرحمة. وهي محبته للذين لا يستحقون شيئًا من الخير

واعطاوهُ المغفرة والخلاص للذين حكمت عليهم شريعتهُ العادلة بالموت . وذلك على طريقةٍ لم يكن سبحانهُ بها اقلَّ غضبًا على خطاياهم مما كان لو عاقبهم الى الابد . فهذا نوعٌ من الجودة الالهية مختصٌّ بالكتاب المقدس ولم يكن العقل وحدهُ يستطيع ان يتصور شيئًا منهُ . بل هو صفةٌ من الصفات الالهية لم تُعرَف الا بالوحي . فبالحق يقال ان اخصَّ اغراض الكتاب هو اعلان رحمة الله . ومعرفتنا بهذه الجودة الالهية تكون قاصرةً جدًّا الى ان نقف على طريقة ظهورها . وذلك لا يوجد كلامٌ يُعبَّر بهِ عنهُ احسن من قول المسيح هكذا احبَّ الله العالم حتى بذل ابنهُ الوحيد لكيلا يهلك كل من يومن بهِ بل ينال الحيوة الابدية

واما هذه المحبة فربما تكون غرابتها لكثيرين سببًا لاعتراضٍ على صحة الكتاب لا برهانًا على صحتهِ . ولو كانت غرابة الامور وعجايبها برهانًا على عدم وجودها لسلَّمنا بان هذا الوهم لهُ اصلٌ . ولكن ما هو الامر الذي ليس مملوًا من العجايب اذا تاملناهُ بانتباهٍ . فان وجود مخلوق مثل الانسان او جرم مثل الشمس امرٌ عجيبٌ ولكن هل ننكر وجودهما لذلك . وما الذي في صفات الله واعمالهِ لا يملأُ العقل اندهاشًا وعجبًا . فان ازليَّتهُ وعلمهُ بكل شيءٍ وحضورهُ في كل مكانٍ وقدرتهُ الخالقة وعنايتهُ الشاملة كل ذلك عجيبٌ بحيث لا ندري ايُّ شيءٍ منهُ هو الاعجب ولا نعرف هل يمكن وجود شيءٍ اعجب من هذه البدايع .

ولكن هل يكون ذلك برهانًا على عدم وجودها . واذا كان الله عجيبًا بهذا المقدار في سايرِ صفاتهِ فهل ننتظر ان لا نجد شيئًا من ذلك في جودتهِ وهي اعظم الجميع . نعم لا يوجد شيءٌ من هذه الجودة بين الناس ولكن هل نجعل ظلَّ الكمال الضعيف المحدود الذي فينا مقياسًا نحكم بهِ على صفات الله الغير المحدودة .

والاعتراض المبني على كون الانسان حقيرًا بحيث لا يستحق هذه المحبة العظيمة هو ايضًا باطلٌ . لانهُ مهما ارتقت قوى المخلوق لا يزال حقيرًا بالنسبة الى الله الغير المتناهية صفاته لان جميع المخلوقات امامهُ على حدٍّ سوى . ومن هذه الجهة كانهُ يتلاشى جميع ما يمتاز بهِ بعضها من بعض . فعلى مبادي هذا الاعتراض ما اسهل قيام البرهان على عدم صحة عناية الله . لانهُ لا يخفى انهُ يوجد الوف الوف من حيوانات حقيرة لا تراها العين بدون واسطةٍ وهي كاملة التركيب ولا تبقى في الوجود الا اياماً بل ساعات قليلة . فقد يقول عنها المعترض انها لصغرها لا تستحق العناية من الخالق الغير المتناهي وان اظهار مثل هذه الحذاقة في تركيب حيوانٍ عمرهُ يومٌ واحد لا يوافق حكمة الله . فمهما كان ظاهر هذه الاعتراضات حسنًا لا تخرج عن كونها مبنيةً على تعرُّضٍ لما لا يعنينا ولا نقدر ان نحكم عليهِ بالصواب . فان الانسان لا نهاية لدرجات ما دونه من انواع الحيوانات كما لا نهاية لما فوقه من درجات المخلوقات . وذلك على ان درجات المخلوقات ليست

غير متناهية على الاطلاق بل اننا لا نستطيع ان نجد حدًّا لوجود حيواناتٍ تتصاغر عن بعضها على الاستمرار كما اننا لا نعرف حدًّا لوجود مخلوقاتٍ تتزايد على بعضها في المقدار. فانهُ من حيث ان نقطةً من السايلات تتضمن ما لا يُحصَى من الحيوانات التامة التركيب من يقدر ان يقول ان كل جزءٍ من دم هذه الحيوانات التي لا تدركها ابصارنا بدون نظارة لا يتضمن ما لا يُحصَى من حيوانات ادقَّ واصغر منها الى ما لا نعرف حدًّا لهُ

والحاصل انه ما لم يُبيَّن انهُ يستحيل وجود مثل المحبة التي اظهرها الله في الانجيل او ان مثل هذه المحبة مغايرٌ لصفات الله الادبية لا يصح ان توخذ غرابتها برهانًا على عدم وجودها بل الذي يقتضيهِ العقل ان الامر كلما كان اعجب كان الاولى بهِ ان يكون من الله ويُستبعَد ان يكون من استنباط الانسان ما لم يصحبهُ شيءٌ من الضعف البشري

وقد خطر لي هنا نظرٌ يزيدنا معرفةً في هذا الموضوع وهو ان العجب طبيعيٌّ في عقولنا. فلا يسرُّ الانسان شيءٌ من الاحساسات النفيسة اكثر من التامل في الامور السامية المتَّسعة بحيث تكون غير مدركة اصلاً. وهذا هو اساس تلك العبادة الدايمة التي تشغل اهل السماء. فان الهًا غير مُدرَكٍ لا بد ان يكون موضوع التامل والعجب لكل مخلوقٍ

ثانيًا ان الخبر الموجود في الكتاب المقدس عن اصل

الانسان وصفاتهِ يوافق العقل والاختبار كل الموافقة . بل الكتاب المقدس هو وحدهُ مصدر معرفتنا باحوال الانسان لما خرج اولاً من يد خالقهِ . ومنهُ نتعلم اصل امور كثيرة لم يكن ممكنًا ان نكشف السبب فيها الاَّ منه . فيعلّمنا كتاب الله مثلاً ان الشر الذي وُجِد في كل زمانٍ وبين كل قومٍ كان من سقوط الانسان الاول . ويخبرنا عن السبب في الباس الجسد اثوابًا وهي عادة كل القبايل مع ان بعضها لاتحتاج الى ذلك لحفظ الجسد من اضرار البرد . ومنهُ نعلم السبب في اخراج الارض شوكًا وحسكًا من طبعها مع انهُ لابد من حرثها لانتاج الحبوب والاثمار النافعة . ومنه نتعلم اصل الزواج واللعنة التي حلَّت على جنس النساء في كل زمانٍ . وقد اخبرنا موسى ايضًا عن اصل ذلك النوع من العبادة الذي مارستهُ قديمًا كل القبايل والذي لايفيدنا العقل شيئًا عن سببه وهو ذبح الحيوانات على المذابح وتقدمة الحَبّ والبخور الى غير ذلك . وقد اخبرنا ايضًا عن الطوفان العام الذي لنا عليهِ شواهد كثيرة نعاينها في كل ارض وجبلٍ ونسمع عنه كثيرًا من التقاليد القديمة

وقد ذُكِر ايضًا في الكتاب المقدس تشتُّت الجنس البشري على وجه الارض واصل كثير من القبايل القديمة . ومع ان اكثر هذا الخبر موجودٌ في فصلٍ واحدٍ صغير قال احد الفضلاء انهُ لو لم يكن لنا بيِّنةٌ على صحة كتب موسى الخمسة الاَّ الاصحاح العاشر

من سفر التكوين الذي ذُكِر فيهِ هذا الخبر لكان يحسبه بينةً كافية

ويوجد ايضًا فيهِ خبرٌ عن اصل اختلاف اللغات ولا يوجد ذلك في غيرهِ . بل ان اصل اللغة الاولى الذي كان سببًا لمناظراتٍ كثيرة بين الفلاسفة هو ايضًا ظاهرٌ جليًّا من كتب موسى . وقد ذهب كثيرٌ من المحققين الى ان الكتابة باحرف الهجآء استفيدت من العشر وصايا التي كتبها الله باصبعهِ على اللوحين الحجريين . وعلى ما ارى ان البرهان بواسطة حجج صحيحة على ان صناعة الكتابة باحرف الهجآء كانت موجودةً قبل ذلك امرٌ صعبٌ جدًّا . وعلى كل حال يلزم الاقرار بان اقدم ما يوجد من هذا النوع من الكتابة باقيًا الى الان هو الموجود في الكتاب المقدس

وفيهِ ايضًا اخبارٌ عن القبايل والشعوب الذين ذكرهم اقدم المورخين الغير الملهمين من روح الله بزمانٍ طويل قبل ابتدآء تواريخهم . وحين تصل اخبار الكتاب المقدس الى الزمان الذي يخبر فيهِ مورخون اخرون عن احوال القبايل تشهد اخبارهم لصحة اخباره . وتعيننا ايضًا اخبار الكتاب المقدس على فهم امور كثيرة كتبها هولآء المورخون بالاختصار

واما الخبر الموجود في الكتاب المقدس عن حالة الانسان الادبية فهو اكثر موافقةً لما نحن في صددهِ . فيعلّمنا ان الجنس البشري في كل الازمنة والاحوال فاسدٌ رديٌّ في الغاية .

ويُصرّح بان كل انسانٍ خاطئ وان اصل هذا الفساد في القلب. ويعدُّ كثيرًا من الذنوب الفاحشة التي يميل اليها الجميع ويرتكبها كثيرون. وحيث تُجتنَب هذه الرذايل او تُخفَى يصف قلب الانسان بالمكر والخبث الجسيم. ويُنادي بان الكبريآء والريآء اللذين يطرحان برقعًا غاشًّا على سجايا الانسان الحقيقية هما من ابغض الاشيآء عند الله. فالان لو كان هذا الوصف يناقض سيرة الانسان بالتمام او كانت صفاتهُ مختلفة جدًّا عما وصفهُ بهِ الكتاب او كان في هذا الوصف مبالغة لكان هذا الاختلاف برهانًا عظيمًا على عدم القآء الوحي الى الذين كتبوا الاسفار الموجودة في الكتاب المقدس. ولكن اذا كانت صفات الانسان المذكورة في الكتاب طبق ما نعهدهُ بالاختبار والملاحظة العامة يكون ذلك برهانًا قاطعًا على ان الصدق الكامل كان هو الذي لاحظه الذين كتبوا الكتاب

انه بحسب ارادة الاختصار لا يمكننا ان نطيل الكلام في هذا الموضوع فنرفع دعوى صحة ما ذُكِر في الكتاب من هذا القبيل الى اخبار التواريخ الصحيحة والى ملاحظة كل انسان وبصيرتهِ في احوال الدنيا. ونقول ان كلام بولس الرسول في رذايل الوثنيين مثبتةٌ من اقوال المورخين الذين وُجِدوا في ذلك الزمان. ومن هو الذي لا يعرف ان كل ما وُضِع من احكام السياسة وكل ما جُعِل لها من الرسوم التي يلزم لقيامها نفقاتٌ

جزيلة انما وُضع لكي يكون مانعًا للتعدي والظلم والفواحش التي تقع من الانسان . بل ان الحكومة السياسية نفسها لم تقم الاَّ لدفع شرّ الانسان . نعم ان هذه النتيجة محزنة والكبرياء ربما تصدُّنا عن التسليم بها ولكن اذا جرَّدنا انفسنا عن التعصب فلا بد ان نعترف انها صحيحة فيكون الكتاب قد وصف الطبيعة البشرية كما هي بالحقيقة

ولكلمة الله تاثيرٌ عجيبٌ في ضمايرِ الناس ربما يجهله الذين لم يقرأُوا او يسمعوها . لكن عند الذين وقفوا عليها جيدًا او تعوَّدوا ان يسمعوا الانذار بها ظاهرٌ ان لهذا الكتاب اكثر من غيرهِ قوةً على الدخول الى النفس والبلوغ الى اعماق الضمير واشعار الانسان بشرور قلبهِ ونقايص حيوتهِ . نعم ان بعض الناس ينسب ذلك الى فعل التعليم في سنّ الحداثة . ولكن لو اختبرنا الامر جيدًا لوجدنا ان الذين تربَّوا من غير ان يكون لهم شي من ذلك التعليم يشعرون عند ما يكبرون بتاثيرهِ في ضمايرهم . ولهذا تكون قراءة الكتاب المقدس بالوقار انفع علاجٍ للكفر . وعلى ذلك قول النبي دخول كلمتك يعطي نورًا وكذلك قولهُ شريعة الرب كاملة تهدي النفس

ثالثًا يجب النظر الخصوصي الى كون الكتاب المقدس يتضمن اخبارًا صريحةً عن القضايا التي الانسان في اشد الاحتياج الى معرفتها . وهي تنقسم الى ثلثة اركان . اولها المجازاة

في الاخرة على اعمالنا في الدنيا . والثاني التاكيد بان للخطية مغفرةً وتعيين طريقة مناسبة لمحها . والثالث الوسايط لترجيع طبيعة الانسان الفاسدة الى حال الصلاح . نعم انهُ لايمكننا ان نعيّن ما يجب ان يتضمنهُ الوحي من التعليم كما تقدم الكلام . ولكنهُ يوافق العقل انه اذا انزل الله وحيًا يوجد فيهِ شي من التعليم عن هذه القضايا الجوهرية . وعند ما نبحث عمَّا يعلّم بهِ الكتاب المقدس من هذه القضايا نجد ان ذلك يليق بصفات الله ويناسب احتياجات الانسان بحيث يكون برهانًا عظيمًا على حقيقة انزالهِ من الله

فمن اظهر ما يعلّم بهِ العهد الجديد تحقيق وجود الانسان بعد الموت . فانهُ يبيّن بكل صراحةٍ ما بين حالتنا الحاضرة وحالتنا المستقبلة من التعلق ويذكر كثيرًا من الحقايق النافعة الضرورية المتعلقة بالاخرة على احسن ما يكون من الطرق للتاثير في العقل . فقد أُعلِن فيهِ ان ستكون دينونةٌ تعمُّ جميع الناس وان الله قد جعل يومًا لهذا العمل العظيم . وقيل ايضًا في العهد الجديد ليس فقط ان كل انسانٍ يدان بل ان كل عمل من اعمال كل انسانٍ خيرًا كان او شرًّا يدخل تحت الحساب وبموجب تحقيق هذا الحكم الصارم يتعيَّن نصيب كل انسانٍ الى الابد . فيُؤخَذ البعض الى الحيوة الابدية في النعيم ويُطرَح الاخرون الى الشقاء الابدي في المكان المُعَدّ لابليس وجنودهِ

وقد أُعلِن في العهد الجديد ايضًا امرٌ اخر عظيم وهو قيامةٌ عامة لاجساد جميع الناس قبل الدينونة الاخيرة. وذلك مما لايستطيع العقل ان يكشفهُ اصلاً لكنهُ من نفس الامر ضرورةً لاياتي الانسان الا من الوحي. نعم يمكننا ان نكشف مشابهةً ضعيفةً للقيامة في ما يشبه الموت في النباتات وبعض الحيوانات ورجوعها بعد ذلك الى الحيوة. لكن لاينتج من ذلك ان اجساد الناس بعد ما تمتزج بتراب الارض تتركب ثانية وتحييها تلك الانفس التي كانت متعلقة بها قبل موتها. وهذا التعليم مفيدٌ جدًّا ومن الضرورة ان يكون مسرًّا ومبهجًا لكل انسانٍ تقيٍّ كما نتعلم من الكلام الحسن الذي وصف بهِ القيامة بولس الرسول بقولهِ كذلك قيامة الموتى ايضًا يُزرَعون بالفساد ويقومون بغير فساد يزرعون بالهوان ويقومون بالمجد يزرعون بالضعف ويقومون بالقوة يُزرَع جسد حيواني ويقوم جسد روحاني فانهُ ينبغي لهذا الفاسد ان يلبس ما لايفسد ولهذا المايت ان يلبس عدم الموت

وانهُ لامرٌ يستحق الاعتبار ان الكتب المقدسة وان كانت تصف نعيم السمآء وشقآء جهنم بابلغ ما يكون من الاستعارات لا تستوفي وصف ذلك بالتفصيل. وفي هذا السكوت حكمةٌ عظيمة لانهُ امرٌ لايمكننا ان نتصورهُ جليًّا ونحن في حالتنا الحاضرة

واما طريقة الحصول على مغفرة الخطية المعلنة في كتاب الله فغريبةٌ جدًّا ومع ذلك تصح مغفرة الخطية بها ويكون الله عادلاً

قدوساً بحيث تخرج من دايرة اكتشاف البشر. فان رسالة شخصٍ من السماء يقال لهُ ابن الله واتخاذهُ الطبيعة البشرية على نوعٍ عجيب وسيرتهُ الطاهرة المملوة من عمل الخير وموتهُ باختيارهِ كفَّارةً عن خطايا الناس انما هي حوادث عجيبة ومن هذه الحيثية ذاتها لا يحتمل ان تكون من استنباط اهل المكر. فان موت المسيح هو مركز الديانة المسيحية وهذا الموت لم يكن امرًا عارضًا او واقعًا بحسب طور الطبيعة الاعتيادي بل يشار اليهِ في جميع الكتاب كالغرض المقصود في مجيء المسيح الى هذا العالم. وهذا هو الواسطة بحسب قول الانجيل لتحصيل جميع البركات من اجل الخطاة. فانهُ ذبيحةٌ مقدمةٌ لله عن الناس بها يكون الله عادلاً ويبرر كل الذين يومنون بيسوع المسيح. فمن عرف المسيح مصلوبًا فقد عرف الانجيل اجمع ومن انذر بالمسيح فقد انذر بالانجيل كلهِ لان جميع تعاليمهِ داخلةٌ في هذا الامر العظيم. فان طريق الخلاص المعلنة في الكتاب مبنيَّةٌ على هذا المبدأ وهو ان المسيء اليهِ يقبل كفَّارةً عما اساء بهِ المذنب من اخر يستطيع ان يُؤدّي للشريعة ما تطلبهُ من المذنب. وقد تمَّت هذه الكفَّارة بواسطة طاعة المسيح حتى الموت التي يقبلها ديان الجميع عوضًا عن طاعةٍ تامة من الخاطي في جميع من تخصَّصت بهم. وهذه الطريقة للحصول على الغفران تليق بشان الله لانهُ حين يسامح الخاطي يظهر غضبهُ على الخطية بنوعٍ اشد ما يكون ولا يزال

يطلب اجراءَ شريعتهِ الطاهرة على التمام. وهي مناسبةٌ لحال الانسان لانها تتنازل الى ضعفهِ وشقاوتهِ وتقدم لهُ خلاصًا تامًّا مجانيًّا من غير اعمالٍ او استحقاقٍ منهُ. ولكيلا يتجاسر الانسان على ارتكاب الخطية مدَّعيًا بان خلاصهُ بواسطة النعمة المجانية قد شرط على كل من يرجو فوايد هذا الفداءِ ان يقدموا طاعةً صادقة للانجيل وبذلك يظهرون توبتهم عن خطاياهم ومحبتهم للمخلص. نعم ان الخطاة قد يحرّفون هذا التعليم ويحوّلون نعمة الله الى السيئَات ولكن ذلك ليس لهُ سند في الانجيل بل هو ناتجٌ من اعوجاج ضماير الخطاة

والامر الثالث من الجوهريات المذكورة آنفًا التي يحتاج الانسان الى معرفتها هو الوسايط التي بها ترجع الطبيعة الفاسدة الى الصلاح. والفلسفة عاجزةٌ من اصلها عن معرفة ذلك بالكلية. ولا عجب في ذلك لان الحكمة البشرية مهما استطاعت ان تفعل من هذا القبيل فانما يكون ضبط وتهذيب مبادي الانسان الاصلية واهوآيهِ الطبيعية. ولكن لا يصدر من جميع ذلك اصلاح حقيقي. بل مهما حصل لا يكون الا انتقالاً من نوعٍ الى اخر من انواع الخطية. فلاجل رجوع النفس الى الاستقامة الادبية رجوعًا حقيقيًّا ولو جزئيًّا يدعو الامر الى ادخال مبدا جديد في الانسان قادرًا على اخراج ما يحركه الى الخطية. لانه من المحال ما يقول بعض الناس ان الرجوع الى الفضيلة قد يصدر عن

العقل. لان مجرَّد تصوُّر الطريق المستقيم لا ينفع ما لم يوجد ميلٌ الى اتباعهِ. ولا يخفى ان عدم وجود العواطف نحو الفضيلة والقداسة هو الآفة العظمى لطبيعتنا وبها يقوم فسادنا بحسب الاصل. والطريق الوحيد الذي بهِ يُقاد الانسان الى محبة الطاعة لشريعة الله واتباعها انما تتم بغرس المحبة لله وللقداسة في قلبه. ومن حيث ان القدرة البشرية عاجزةٌ عن ذلك وهو عملٌ متوقفٌ على قوةٍ الهية وقدرةٍ خالقة لا يكون رجوعٌ حقيقي عن سُبل الخطية الا ما هو صادر من مساعدة الله. نعم قد يكون اصلاحٌ خارجيٌّ وكثيرًا ما يكون ابدالٌ في المبادي التي تحرك الانسان الى الاعمال. فالذي كان في صبآيهِ يميل كثيرًا الى لذَّات الجسد قد يصير في شيخوختهِ عبدًا للبخل او لطلب المجد من الناس. ولكن في جميع ذلك قد حصل التغيير بغلبة مبدأ طبيعي على غيرهِ وتملُّكهِ مكانهُ. والحاصل ان كل ما يحدث من التغيير في صفات الانسان لا يتمُّ الا بتحريك او تقوية شيءٍ من المبادي الطبيعية التي تحركه الى العمل او بغرس مبادي جديدة بحيث تغلب على ما كان متسلطاً عليه من قبل

والان فلننظر الى طريقة الاصلاح الموجودة في الكتاب المقدس. فانها مما يطابق هذا المبدا الذي قد وضعناه الان تمام المطابقة. لان العهد القديم والعهد الجديد يعلمان على طرقٍ متنوعة لزوم التجديد بقدرة الله. وذلك ان القوة الالهية تضع في

الانسان قلبًا جديدًا اي مبادي جديدة تحركه الى الاعمال الادبية التي أخصُّها محبة الله والناس . فلو نظرنا على طريقةٍ فلسفية الى طبيعة الانسان وما يوجد فيهِ من الحاسيات والاهواء والشهوات والعواطف ثم فرضنا دخول هذا المبدأ الجديد الطاهر الى النفس لرأينا قوى الانسان واهواءهُ قد انتظمت حالاً بحيث لا يتعدّى شيءٌ منها حدَّهُ واقتُلِعَت رذايل طبيعتنا . وربما يستهزئُ الذين يدَّعون العقل والفلسفة بهذا التعليم على انهُ محالٌ . مع انهُ موافقٌ لاعظم الفلسفة من كل جهةٍ بل هو نفس الامر الذي يحتاجه كل فيلسوفٍ حكيمٍ لو اخذ على نفسهِ انهُ يحلُّ المشكل المذكور اعني كيف يرجع الانسان الفاسد الطبيعة الى الصلاح . ولكن المبدا اللازم لاصلاح الخاطي قد عجز عن معرفتهِ العقل والفلسفة وكتاب الله هو الكتاب الوحيد الذي يعلّم الطريقة الحقيقية لتطهير النفس من الخطية . انه قد احتال كثيرون من الفلاسفة واصحاب الاديان المختلفة بحِيَلٍ لا تُحصى لعلهم يجدون طريقًا مستقيمًا لذلك فلم يجدوا . ومن هذه الحِيَل الاجتهاد في اخراج النفس من تحت طايلة الجسد بطرقٍ متنوعةٍ من التقشف لتعذيبهِ وتطهيرهِ . ولكن هذه الطرق جميعها مبنية على ان الجسد اخصّ ما يوجد فيهِ الفساد وهو مذهبٌ فاسدٌ ولذلك لم ينجحوا البتَّة . لان المرض اعمق مما ظنّوا فلم تصل اليهِ علاجاتهم . واما الانجيل فهو الذي يعلّم الفلسفة الحقيقيَّة في اصل الخطية

وعلاجها. وبحسب قول كتاب الله جميع الشرور تخرج من القلب. واذا اردنا اصلاح الثمر فعلينا ان نصلح الشجرة اولاً. والاحتياج الى قوة الهية لاصلاح الناس كما يجب لايتعرض لاستعمال الوسايط ولا يُخرِج فعل الاسباب الطبيعية. فعند ما يدخل المبدا الجديد الى عقل الانسان تبقى النفس في استعمالها هذا المبدا تحت حكم شرايع العقل والارادة العمومية كما كانت قبلاً. ولا ريب في ان مبدا التقوى مبدا بسيط الى الغاية في فعلهِ. فيحبُّ الانسان التقي الله لعظمتهِ وصلاحهِ في نفسهِ ويفضّل السماءَ على الارض لشرفها وابديَّتها وهكذا يجري في كل ما يشعر بهِ الانسان الذي دخل الى قلبهِ هذا المبدا واصلح طبيعتهُ الفاسدة

ومما يتعلق بهذا الموضوع الرسوم الادبية الموجودة في العهد الجديد. ونخصُّ الكلام بالعهد الجديد لا لانهُ يعلّم رسوماً في الواجبات الادبية غير الرسوم الموجودة في العهد القديم بل لانهُ يعلّم ذلك باجلى بيانٍ. ولا حاجة الى مدح رسوم الانجيل الادبية على وجه العموم لانها قد اغتصبت المدح الجزيل من كثيرين من اشدّ اعداءِ الديانة المسيحية. ولم يستطع احدٌ ان يرينا شيئاً يجعلها اصلح مما هي في وجه من الوجوه. نعم قد اعتُرِض بان هذه الرسوم لا تناسب الانسان لانها تطلب كمالاً لا يستطيع الانسان ان يصل اليهِ. لكن هذا الاعتراض يُسلَّم بالقضية التي نريد اثباتها اعني وجود الكمال المطلق في رسوم

الانجيل الادبية . لاريب في اننا لانحتاج الى برهانٍ يوضح انهُ اذا انزل الله قانونًا لسيرة خليقتهِ فلا بد ان يكون قانونًا تامًّا . ولا يصح ان القانون يتنازل لنقص الخليقة لان ذلك يكون مغايرًا لجميع الشرايع

وقد اعتُرِض ايضًا بانهُ قد تُرِك من وصايا الانجيل كثيرٌ من الفضايل العظيمة التي كان يعترف بفضلها ادباء الوثنيين كمحبة الوطن والمصادقة والشجاعة وما اشبه ذلك . والجواب ان محبة الوطن والمصادقة من حيث هي فضايل ادبية فهي داخلةٌ في وصايا الانجيل العمومية التي تطلب منا محبة الناس وعمل الخير لهم وان نعتبر كل شي حسن وكل امرٍ ممدوح . ولكن عند ما تتعرض محبة الوطن ومصادقة الاحباب للالتزام المطلق بمحبة جميع الناس لاتكون من الفضايل بل من الرذايل

ويظهر فضل رسوم العهد الجديد الادبية اذا لاحظنا هذه الظروف الاتية . اولًا انها بسيطة مع كونها جامعة الى الغاية . فكل الواجبات الادبية التي نعتبرها ملزمةً ترجع في الكتاب المقدس الى مبدأين وهما محبة الله ومحبة الناس . فمقدار الاولى ما تصل اليهِ استطاعتنا ومقدار الثانية ما عندنا من المحبة لانفسنا . وقد قال السيد المسيح انهُ على هذين تتعلق جميع التوراة والانبياء . فالواجبات المتعلقة بضبط الاهواء النفسانية لاتحتاج الى مبدا اخر لان النفس اذا كانت مملوة من المحبة

للاخرين تكون محبة الذات فيها مضبوطةً بحيث تكون موافقةً من كل وجهٍ لتحريكنا الى عمل الواجبات الذاتية

ثانيًا ان وصايا الاداب الموجودة في العهد الجديد مع انهُ يُعبَّر عنها بكلامٍ جامع يُصرَّح ايضًا فيها مراتٍ كثيرة بتعلقات الانسان الواقعة واحوالهِ المتنوعة. فلم نتركنا نستنتج واجباتٍ خصوصية من مبادىء عمومية بل تجعل واجبات كل واحدٍ بحسب ظروفهِ صريحةً لديهِ. فواجبات الوالدين والاولاد والازواج والزوجات والرعاة والرعايا والموالي والخدم والقسوس والشعب والاغنياء والفقراء والصديق والغريب موضوعةٌ فيهِ باجلي بيانٍ

ثالثًا الواجبات الادبية التي غفل عنها وغلط فيها معلمون اخرون توجد في هذا الكتاب على طريقةٍ واضحة ويؤمَر فيهِ بالعمل بموجبها. فان ادباء الوثنيين مثلاً لم يسلّموا بفضيلة التواضع والوداعة والحلم والصفح عن الذنوب. واما العهد الجديد فهي مامورة فيه صريحًا ويُذكَر فيهِ ان كثيرًا من الصلاح الحقيقي يقوم بممارستها. انهُ في عهد نزول المسيح الى الارض كان الناس يعتقدون بكثيرٍ من القوانين الفاسدة في الاداب. فالذي يجب على الانسان من المحبة لجميع الناس كان محصورًا عندهم في حدود ضيّقة. فكان يجوز عند اليهود مثلاً اخراج الارانقة كالسمرة والخطاة المشهورين كالعشّارين من دايرة المحبة والاحسان.

وهل يجب الخضوع لولايةٍ غريبة استولت عليهم والطاعة للحاكم الردي الظالم ام لا يجب فقد كان ذلك عندهم مسئلةً تحتاج الى حكمةٍ عظيمة في الحكم بها على الصواب. وكان خلافٌ فيها بين الجمهور حتى ان الجميع اتفقوا على تقديمها الى المسيح لعلها تكون فخًّا يقع فيهِ بحيث يوجب عليهِ حكمهُ سلبًا كان ام ايجابًا مقاومة احد الفريقين. فلما سألوهُ هل يجوز دفع الجزية لقيصر ام لا يجوز طلب دينارًا ونظر الى الصورة المرسومة عليهِ وقال لمن هي. فقالوا لقيصر. فاجابهم بهذا الجواب النفيس اعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله. فكان حكمه انهم اذ كانوا يرضون ان تجري معاملة قيصر بينهم وذلك علامة تسلطهِ عليهم فلا مانع من اعطآيهم لقيصر ما كان حقًّا لهُ وايضًا لم يكن ذلك مغايرًا لطاعتهم لله. فوبخ في جوابهِ هذا الفريسيين والهيروديين اذ كان الفريق الاول منهم يتعللون بان واجباتهم لله حجةٌ على امتناعهم عن دفع الجزية لقيصر والفريق الثاني يتغافلون عن واجباتهم لله استعطافًا لقلوب الولاة المتسلطين

وبولس الرسول ايضًا اذ كان تحت ولاية نيرون المشهور بالظلم يامر بالطاعة لارباب الولاية لا خوفًا من غضبهم ولكن لاجل مسالمة الضمير. فهذا هو الضابط العمومي في ما يجب على الانسان في هذه المسئلة العسيرة ولا يمكن ان يكون اصوب منهُ. فان الديانة المسيحية الحقيقية لا تتعرض للاحكام السياسية مهما كانت

ولكنها تناسب الانسان كيفما وجدتهُ في تعلقات هذه الحيوة وتعلّم ما يجب عليهِ. ولهذا لا يمكن ان تكون سببًا للخيانة والعصيان على الاحكام. بل هي تعتبر اهل السياسة كخدّام الله لاجل سلامة الجمهور وحسن نظامهِ ولاجل ردع اصحاب الشرّ والتعدي. وفي ذلك يقول الرسول انهُ يجب على المسيحيين ان يخضعوا للسلاطين العظماء فانهُ ليس سلطانٌ الاَّ من قِبَل الله. والله قد اقام هولاء السلاطين. فمن قاوم السلطان فانما يقاوم الله ويقع في الخسارة لنفسهِ. لان الروساء ليسوا خوفًا للاعمال الصالحة بل لاعمال الشر. أتريد ان لا تخاف السلطان فاعمل صلاحًا فيكون لك من عندهِ مدحةٌ. لانهُ خادمٌ لله ولك الى الخير. وانت ان عملت سوءًا فخف فانهُ لم يتقلد السيف باطلاً. وانما هو خادم الله منتقمًا بالغضب من الذي يعمل السوء. ولذلك ينبغي ان تخضعوا لهُ ليس من اجل الغضب فقط بل من اجل النية ايضًا. ولاجل هذا تؤدُّون الجزية فانهم قدام الله متولُّون هذا الامر. فلهذا أدُّوا الى كل امرءٍ حقهُ. الى الذي تجب لهُ الجزية جزيتهُ والى من تجب لهُ العشور عشورهُ والى من تجب لهُ الكرامة كرامتهُ (١)

رابعًا ان العهد الجديد ينسب جميع الفضايل الى القلب ولا

(١) رومية ص١٣

يعتبر افضل الهدايا واثمنها او افضل ما يكون من القيام بالواجبات الدينية حينما لاتكون نية القلب في ذلك نقيةً. فقد صُرِّح فيهِ بان اول ميل العقل الى ما حُرِّم انما هو مخالفة الشريعة وبان كلام الشتيمة والكلام الباطل من الخطايا التي لابد من اعطاء الحساب عنها في يوم الدينونة. وقد صُرِّح ايضاً فيهِ بان الصلوة والصدقات التي تصدر عن طلب المجد لا ثواب لها من الله ولو مدحها الناس باحسن المديح. وقيل فيهِ ايضاً ان محبة العالم ومحبة المال من الخطايا الاصلية يتفرع منها كثيرٌ من امثالها. وايضاً ان الكبرياء والانتقام لايمكن اجتماعها مع النعمة الالهية. واما نقاوة القلب وميله نحو الاشياء السماوية والاتكال على الله والتسليم الى ارادتهِ فيحسبها الانجيل فضايل اصلية

خامساً ان وصايا العهد الجديد الادبية تمثَّلت في حيوة الرسل والمسيحيين الاولين وعلى الخصوص والى الغاية القصوى في حيوة يسوع المسيح. فلا يمكننا ان نتصور صفاتٍ هي اكمل في الصلاح من الصفات التي ينسبها اصحاب الاناجيل الى واضع الديانة المسيحية. وقد سبق الكلام في ان سيرتهُ التي كانت مشتملة على جميع انواع الفضايل ظاهرةً بين ظروفٍ عسرة لا توافقهُ قد أُخبِر عنها في الاناجيل باخبار بسيطة تخبرنا مجردًا بما قال يسوع وما فعل وما احتمل خالية من التعظيم لهُ ومن تنميق الكلام لاستجلاب المديح اليهِ. فمن هذه الاخبار نعلم انهُ لم يتبع

حزبًا من احزاب اليهود ولم يطلب نظر الغني او الفقير ولم يتمسك بشيءٍ من غلط طايفتهِ وهوى انفسها. لكنهُ اظهر من كلامهِ ان الغايات التي اعتبرها في ما عمل كانت اعظم من التعصب الجنسي. ولم يَخَفْ ان ينسب قداسة الفريسيين الظاهرة الى الرياءِ وان يحكم على تقاليد الشيوخ انها مغايرةٌ لشريعة الله وعلى ارآءِ الزنادقة المستريبين انها كانت ناشيةً عن الجهل بمعاني الكتاب المقدس الحقيقية

وكان يسوع المسيح دايمًا يحوّل افكار الذين يسمعون كلامهُ عن الامور الارضية الى الامور السماوية بناءً على انها وحدها تستحق اهتمامهم وعنايتهم. ومع انهُ لم يملّق احدًا كان اهتمامهُ متّجهًا على الخصوص نحو الفقراءِ. فكانت احتياجاتهم الروحية والجسدية تحرك اشدَّ ما يكون من الشفقة في قلبهِ. وكان يخاطبهم بكلامٍ لطيف ينهض عزايمهم. واما قدرتهُ على الشفاءِ فكان يستعملها نحو كل طالبٍ غنيًّا كان او فقيرًا من غير التفاتٍ الى كونهِ من امتهِ او غريبًا. فكان يتحنن على اليهود والسمرة والوثنيين والعشارين والخطاة. ولم يمنعهُ تعصبٌ مثل ما في الكتبة والفريسيين عن معاشرة التايبين ولو كانوا قبلاً من اشدّ العصاة الادنياءِ. بل كان يقبل بالشفقة الخطاة التايبين ويعزّيهم بتحقيق المغفرة وكان يسمح لهم ان يدنوا من شخصهِ بعلامات الشكر والمحبة. وكان يرثي لاصحابهِ في احزانهم باكيًا مع الباكين ويقيم

بقوتهِ من المرض او من الموت كثيرين من الاعزّآء عندهم . ومع انهُ كان يوبّخ المصرّين على خطاياهم اشدَّ التوبيخ وكان احيانًا يغضب عليهم كان لا تزال شفقتهُ نحوهم دايمةً . وعند ما فرغ يوم نعمتهم بكى عليهم باشدّ ما يكون من الرقّة القلبية

وكثيرًا كانت تقع المناظرة بين يسوع المسيح وجماعةٍ من العلمآء ذوي الخبث والدهآء . فكانوا يتعصبون عليهِ بمكرٍ ويسالونهُ مسايل عسرة طالبين منهُ الجواب حالًا . لكنهُ لم يرتبك مرةً في شيءٍ من المسايل ولم يتحيَّر من مكر اعدآيهِ الخبثآء . بل كانت اجوبتهُ سديدةً ومملوةً من الحكمة بحيث ترتبك اخصامهُ غالبًا ويمتلي الحاضرون عجبًا ومديحًا

واما امثال المسيح فلا نظير لها في الحسن والاصابة . فانها تتضمن كثيرًا من الحقايق الجوهرية وكانت شديدة المناسبة للموضوع ولواقعة الحال حتى ان الذين قصد توبيخهم بها التزموا كثيرًا ان يقرُّوا بصحتها . وفيها يوجد اخصُّ تعاليم الانجيل ظاهرة ومزينة بتشابيه والفاظ حسنة تسرُّ القاري وتعينه على معرفة كمال نعمة الانجيل وحقيقة عرضها علينا مجانًا . وفيها ايضًا نبواتٌ عن رفض اليهود ودعوة الامم وعن كيفية قبول الانجيل المختلفة عند الذين يسمعونهُ وعن وجود المسيحيين الصادقين والغير الصادقين في الكنيسة وعن الاضطهاد الشديد الذي كان الذين امنوا بالمسيح عتيدين ان يقاسوه وعن سقوط اعدآيه

وهلاكهم اخيرًا

وفي جميع مخاطباتهِ كان يتكلم بما لم يتكلم بهِ احدٌ من الناس قبلاً. فرفع التفاسير التي كانت قد زيدت على الشريعة واظهر رسومها على ما هي. ولم يُدخِل عليها شيئًا من مبادي بعض النظريات الفلسفية في تعاليمهِ. ولم يتداخل في ابحاث العلماء الغويصة بل علَّم الحقَّ بالبساطة والسلطان

واما غيرتهُ على وجوب تقديم الاكرام الى الله والعبادة لهُ بالطهارة والقداسة وكراهتهُ لما وضعهُ الناس في امر الدين والعبادة فظاهرتان من جميع سيرتهِ. وكان روح العبادة الحارَّة السامية سمةً كثيرة الوضوح فيه. فكان قبل طلوع النهار ينفرد لاجل العبادة ويصرف ليالي باسرها في الصلوة. وكان من عادتهِ الصلوة وتقديم الشكر في جميع الاحوال مع كون عبادتهِ خاليةً من كل وسواسٍ وهوَس. وكان يعلّم ان المقبول في الصلوة عند الله هو القلب لا اللسان وروح الصلوة لا طولها

وكان جودهُ ووداعتهُ وجهدهُ في نموّ خير البشر امرًا ظاهرًا كل يومٍ من حيوتهِ مع عدم الافتخار في اعمال الرحمة وفي اعجب المعجزات التي كان يعملها. فكان يصنع الخير في جولانهِ بين الناس ولا يطلب المجد منهم بل كان متواضعًا قانعًا بادنى ما يكون من حالة الفقر. وعند ما كان الناس يمدحونهُ كان يتحول عنهم ولما ارادوا ان يقيموهُ ملكًا هرب من بين ايديهم وحينما

سالوهُ مسايل خارجية كان يوجّه افكارهم الى ما هو اهمُّ منها واذ كانوا يتفوهون بما لا معنى لهُ من المديح كان يعلّمهم شيئًا من الحقايق الجوهرية . وربما لم يُظهِر في اعمالهِ حكمةً اكثر من عدم تعرضهِ للامور العالمية . وبذلك اظهر في سيرتهِ ما قالهُ اذ حاكموهُ اخيرًا ان ملكوتهُ ليس من هذا العالم

وفي معاشرتهِ تلاميذهُ نرى الهيبة ممزوجةً بالوداعة والصدق بالتنازل لضعفهم . فلا عجب من محبتهم لمثل هذا المعلم . فانه لا نظير لمخاطباتهِ الاخيرة لهم قبل آلامهِ وللصلوة التي قدمها من اجلهم المملوة من المحبة والتعزية . فما اركّ وافرغ مخاطبات سقراط لاصحابهِ بالنسبة الى مخاطبات المسيح لتلاميذهِ المذكورة في الاصحاح الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر من انجيل يوحنا . ولا ريب انهُ لا يمكننا ان نجد خُطَبًا في اي لغةٍ كانت تستحق ان تُقابَل بخُطَب المسيح هذه الاخيرة . ومحبته الخالصة تبين لنا على افضل نوع اذ تذكرنا انهُ كان حينئذٍ عالمًا بان آلامهُ قريبةٌ وانها تكون قاسية شديدة في الغاية ومع ذلك لم يهتمَّ الاَّ بامر تلاميذهِ الممتلئين من الاحزان وكان كل ما قالهُ متعلقًا بهم . ثم كان وضع العشاء السري المقصود بهِ ذكر موتهِ مصحوبًا بظروف يُوقَف منها على صفات المسيح باحسن وانفع طريقةٍ . ومن يريد الوقوف على ذلك فعليه بالاطّلاع على اخبار اصحاب الانجيل

والامر الاخير في صفات المسيح الذي نذكرهُ الان هو الصبر والجَلَد اللذان بهما احتمل من الآلام الشديدة المفرطة ما يفوق الادراك. ففي جميع ذلك شي من السر. لان اشد هذه الالام لم يكن لها في الظاهر تعلُّق بالظروف الخارجية. فلما سلَّمهُ الخاين من تلاميذهِ وفارقه الاخرون واخذتهُ الجنود لم يَلُح عليهِ شيءٌ من الخوف والقلق. بل سلَّم نفسهُ وخضع بكل سكونٍ لجميع اصناف الاهانة والهزءِ. ولما جرى البحث في امرهِ امام شيوخ اليهود وبيلاطس الحاكم الروماني كان على الغالب صامتًا لا يوبخ احدًا ولا يشكو شيئًا حتى لم يتكلم شيئًا في حق نفسهِ. ولما سألهُ القضاة اجابهم علانيةً عن مسايلهم واقرَّ بانهُ المسيح ابن الله وملك اسرائيل. وعند ما تراكم عليهِ الهزء والشتيمة كان هاديًا في الغاية ولم ينطق بكلمةٍ تدلُّ على الضجر او الغضب. والى ذلك يشير النبي بقولهِ كما ان النعجة صامتة امام الذي يجزُّها هكذا لم يفتح فاهُ. ولما ناحت عليهِ بنات اورشليم وهو ذاهبٌ الى المكان الذي صُلِب فيه حاملاً صليبهُ طلب منهنَّ ان لا يبكين لاجلهِ بل لاجل نفوسهنَّ ولاجل اولادهنَّ لعلمهِ بما ياتي على المدينة من الشدايد. ولما كان معلَّقًا على الصليب نظر امهُ المباركة بين الواقفين واذ كان عالمًا بانها تحتاج من يلتفت اليها طلب ذلك من التلميذ الذي كان يحبهُ. ومع انهُ لم يكن يمازج الغضب شيءٌ من الرحمة في قلوب الذين اضطهدوهُ اعطانا قدوةً جليلةً في

اصعب ما يوجد من الواجبات علينا وهو محبة الاعداء. كما يقول بطرس الرسول ان المسيح ايضاً تألّم بدلنا وابقى لكم مثالاً لكي تتبع خطواتهِ. ذلك الذي لم يعمل خطيةً ولم يوجد في فمهِ غدرٌ. ذلك الذي كان يُسَبُّ ولا يَسُبُّ. أُصِيبَ فلم يتهدَّد. لكنهُ كان يسلّم نفسهُ للذي يقضي عليهِ ظلماً (١) ومن كلماتهِ الاخيرة قبل موتهِ كانت صلوةٌ لاجل الذين كانوا يصلبونه. فقال يا ابتِ اغفر لهم لانهم لايدرون ماذا يصنعون. واللصّ مصلوبٍ معهُ قد تاب وطلب منهُ ان يذكرهُ حين يدخل الى ملكوتهِ قال في هذا اليوم تكون معي في الفردوس. ثم قال اخيرًا يا ابتِ في يديك اسلّم روحي ثم امال راسهُ ومات

وكان فضل صفات المسيح غريبًا في احنوآيها من السجايا على ما يعدُّه الناس متناقضًا. فكان يزهد في املاك العالم ومجدهِ ويحسن التعبُّد والتقوى بدون شيءٍ من العبوسة والتقشُّف. وقد اجتمعت فيهِ المهابة والتواضع. وكان يظهر الغضب الشديد على كل نوعٍ من الخطية وعلى الخطاة المصرّين على خطاياهم مع الرقّة القلبية نحو كل تايبٍ صادق. وكان يقرن روح العبادة الفايقة بحيويةٍ مملوة من الحركة والعمل. واذ كان يعاشر اناسًا من كل رتبةٍ لم يتخذ شيئًا من اهوآيهم المنحرفة ولم يسكت عن رذايلهم. وفي هذا الموضوع يقول احد الفضلاء

(١) رسالة اولى ص٢ ع٢١ الى ع٢٢

قد امتازت حيوة المسيح بخصلةٍ يقوم بها الكمال الادبي اكثر من غيرها وهي اجتماع الشيء ونقيضهِ اي اجتماع فضايل يعسر اجتماعها بل يشعر ظاهرها بالتناقض ولكنها متى اجتمعت على حقها يوجد فيها مناسبة ادبية وتجذب المحبَّة والاحترام بقوة متساوية . فنرى مثلاً في يسوع المسيح من الاخلاق المهيبة وسمو الفضيلة ما لم يظهر او يصل اليهِ شخصٌ اخر على مدى الزمان وذلك ممزوجٌ بتنازلٍ ولطافةٍ وبساطةٍ كلية لايظنُّها احدٌ انها تليق بعظمتهِ . وهكذا قرن رفض العالم مع نعيمهِ وخيراتهِ بالسيرة اللطيفة والبشاشة الانيسة . واقترن فيهِ شدة الحاسيّة بالحكم على النفس . والكراهة الشديدة للخطية بالشفقة على الخاطي . والانعكاف الكامل على عمله بالصبر الهادي على المقاومة وعدم النجاح . والمحبة العمومية بالمحبة الخصوصية . والسلطان اللايق بمخلص العالم برقة الابن وشكره

واما منافع الديانة المسيحية في الجماعات والافراد فهي مدخلٌ عظيمٌ لكلامٍ مفيد في هذا الشان . ولكنهُ موضوعٌ لايسعنا الان الكلام فيهِ ولا يمكننا ترك ذكرهِ بالاختصار . فنقول ان البرهان من هذا القبيل يقتصر على مسيئلةٍ واحدة وهي اننا لو نظرنا الان الى جميع العالم من حيث احوال شعوبهِ وحكمنا بالانصاف لوجدنا احوال الشعوب المسيحية احسن من احوال من سواهم بما لايقاس . ولو نظرنا من ثمَّ الى الشعوب المسيحية وقابلنا الذين

يكون كتاب الله شايعًا بينهم وهم يطالعونهُ ويتعلَّمون تعاليمهُ بالذين يعارضون قرآءتهُ ولا يطالعونهُ لوجدنا حال اوليك احسن من هولآء. واذا كان ذلك كذلك فنسال كيف يمكن ان اكذوبةً تكون واسطةً هكذا لاصلاح العالم ونافعةً على قدر ما تُعرَف وتُطَاع

وفضلاً عن ذلك قد راينا في ايامنا هذه نجاح الانجيل في تهذيب اغلظ قبايل الارض الذين كانوا على قربٍ من درجة الوحوش. فانهم قد تنوَّروا وارتقوا الى التمتُّع ببركات الحيوة المتمدنة وتلطَّفت اخلاقهم الوحشية في الغاية. وذلك مشهور في كرنبلاند وافريقيا وجزاير البحر المحيط وبين هنود اميركا وغيرهم. ولا اعلم ماذا يقول الكافرون في هذه الامور غير انني بالنظر الى نفسي لو قام واحدٌ من الاموات او جآء صوتٌ من السمآء لما كان ذلك عندي برهانًا على صحة الانجيل اقطع من هذه المنافع المشهورة العظيمة. فهل يمكن ان الاكاذيب المتتابعة يصدر عنها مثل هذه المفاعيل

نعم قد اعتُرِض على الديانة المسيحية بانها قد دعت الى حروب عظيمة واضطهاداتٍ ظالمة. ولكن ذلك من المستحيل لان الديانة التي لا تامر الاَّ بالاحسان والسلامة وتنهي عن مقاومة الشر بالشر وتوصي بمسامحة الاعدآء لا يمكن ان تدعو الى الحرب والاضطهاد. نعم قد يُتخَذ منها فرصة لمثل هذه

الشرور. ولكن نسبة ذلك الى الديانة المسيحية كانها قد دعت اليه جهلٌ عظيم بعد النظر الى كون روحها مضادًّا لهذه الشرور على الخط المستقيم. فلو كان الاعتراض صحيحًا لصحَّ ان ننسب الى الاحكام المدنية جميع الحروب والفتن التي حدثت عن اجراء شرايعها. ولصحَّ ايضًا ان نشكو الحرّية بكونها دعت الى جميع فواحش الحركة الفرنساوية في الجيل الماضي. واما السبب الحقيقي في هذه الشرور فليس هو الاَّ الشرّ الموجود في طبيعة الانسان. وافضل الاشياء في العالم قد تكون سببًا لتهييج هذا الشر. وقد تنبَّأ المسيح بان ديانتهُ تكون سببًا للمخاصمة بين الاهالي. ولايضاح حقيقة ما تنبَّأ بهِ قال لا تظنُّوا اني جيت لالقي سلامًا على الارض. لم اجيء لالقي سلامًا لكن سيفًا. وقد عوَّج هذا القول الذين يتخذون ظاهر الكلام بان المعنى المقصود هو ان ديانتهُ تميل الى تهييج الخصام بين الاحباب. ولكن لا يضلُّ في هذه القضية من يقرأ العهد الجديد. ولا ريب في انهُ حالما يتمسك جميع الناس بالديانة المسيحية على حقها تنقطع الحرب الى اقاصي الارض. ويحوّلون اذ ذاك سيوفهم الى سكك ورماحهم الى مشاذب ولا يتعلمون الحرب بعد ذلك. هذا قول كتاب الله على سبيل النبوة وهذا ما نعتقد بهِ

واما منافع الانجيل في الافراد الذين قبلوهُ بقلوبهم فهي اعظم برهانٍ على انهُ من الله. فكم صار المتكبر متواضعًا

بواسطتهِ والنجس طاهرًا والماكر نصوحًا والظالم عادلاً والحاقد غفورًا والسكير صاحيًا والشاتم اديبًا والكذوب صادقًا وهلمَّ جرًّا. فايُّ ديانةٍ تؤثّر مثل هذه المنافع العظيمة. وان قيل ان كثيرين ممن يدَّعون هذا التغيير هم من اهل المكر والخباثة فالجواب ان ذلك لايدلُّ على ان الذين تحقق صدقهم مدة حيوتهم يكونون من اهل المكر ايضًا. ان جميع الناس يريدون حسن الظن في صدقهم. فان وُجِد بعضهم ماكرًا فهل يكون ذلك برهانًا على انهُ لا يُوجَد انسانٌ صادقٌ في العالم

ومهما كان تاثير هذا البرهان في الذين لم يشعروا بقوة الانجيل في نفوسهم فلا ريب ان يكون له اعتبار كلي عند الذين قد رجعوا بواسطتهِ عن ضلال طرقهم. فمن هولآء يوجد الوفٌ يشهدون بانهم قد اختبروا قدرة كتاب الله على ترجيعهم عن خطاياهم واضرام محبة الله والفضيلة في قلوبهم. فلا يستطيعون الاَّ ان يومنوا بان الديانة المسيحية من الله ويعتقدوا بان لا شيء من الاكاذيب والخداعات ينوّر العقل ويقدّسهُ هكذا. ولا شيء من استنباط البشر لهُ من التاثير في القلب ما لهذا الكتاب الالهي. ولهذا يقال بالحق عن هولآء ان لهم شهادة الحق في انفسهم

وفي حقايق الكتاب قوةٌ ليس للارشاد والتقديس فقط بل لتعزية المحزونين ايضًا. فياتي الانجيل بالسلام والراحة الى كل صدرٍ يقبلهُ بالمحبة. وحينما يُنخَس الضمير من تذكُّر فعل

المحرَّمات وتتالم النفس من جرحٍ لايشفيهِ علاجٌ بشري تكون مواعيد الانجيل كبلسم جلعاد علاجًا قاطعًا لهذا المرض الاليم المتمكن. ومن فعلهِ المُنعِش يُشفَى القلب المنكسر ويُرفَع ثقل اليأس بالكلية. فالانجيل كملاك الرحمة ياتي بالتعزية الى اظلم اماكن الضيقة. ويدخل الى السجن ويخمد احزان التايبين الموثوقين فيه. ويشجّع قلب الانسان الذي يلاقي الموت على المشنقة اذا كان يقبل في قلبه دعوتهُ لاكبر الخطاة. ويسلّي احزان الذين ينوحون على الموتى ويمسح الدموع من اعين الذين يبكون فراق الاحباب والاهل. وبوعدهِ الذين يقبلونهُ بالخير بعد الموت ينهض رجاءهم ويحوّل ظلام القبر الى نورٍ. فيصبح المسيحيون الحقيقيون من قوة ايمانهم بقيامة الجسد في يوم البعث يسلّمون اعزّ الاحباب الى حفظ القبر وهم يثقون انهم بعد نومٍ قصيرٍ يقومون الى حيوةٍ ابدية

وكثيرًا تُبارَك اكواخ الفقراء بتعزية الانجيل. فانه يناسب ذوي الضيقة والمسكنة على الخصوص وقد سبق قول النبوة عن يسوع المسيح بان المساكين يُبشَّرون منه. فيضع الانجيل فيهم القناعة بحالهم والتسليم لامر الله والمحبة من بعضهم الى بعضٍ والشوق الى نعيم السماء. والشيوخ العاجزون الذين يفقدون قواهم وينقطعون عن اشغال العالم وسروره بسبب المرض او الهرم قد يجدون فيه ينبوعًا للتعزية. واذ هم ممتلئون من روحه

السماوي ينظرون الى ذهابهم من العالم بدون حزنٍ بل يفرحون بما ينتظرونهُ فرحًا لا يوصف . ويجعل الانجيل نير العبودية وقيود الظلم تحت الطاقة والاحتمال . فكم من مرةٍ نرى العبد التقيَّ بسبب ما يوثرهُ فيهِ كلام الله يفوق مولاهُ في السعادة بما لا يُحَدُّ . فلا يبالي بسلب حرّيتهِ منهُ الى مدةٍ يسيرة لانهُ يعلم انهُ عتيق المسيح ويعتقد ان جميع الاشياءَ تأُول الى خيرهِ وان هذه البلايا الخفيفة التي دوامها لحظةٌ تصنع لهُ كثيرًا من المجد الابدي بل ان هذا الانجيل الشريف ترياقٌ للموت نفسهِ . فان الذي يتبع اقوال المسيح لا يذوق الموت اي لا يجدهُ لعنةً ولا تصيبه حربة الموت المسمومة بالخطية . فكم من مرةٍ يملأُ الانجيل قلب التقي من السلامة وهو في حالة الموت . وكم يُنعِشُ النفس بالفرح السماوي عند فراقها هذا المسكن الارضي . وكم يحوّل فراش المايت الى مكان راحةٍ ناعمة . فنراه لا يعتريه شيءٌ من الخوف ولا تمرمر الآلام نفسهُ ولا يثقل عليهِ حزنٌ . بل لهُ في تلك الساعة الهايلة كمال الرجاءِ والسرور والتهلل

فالمسيَّلة التي نحن الان في صددها عن هذا الكتاب الذي يتضمن مثل هذه التعاليم الصحيحة السامية في اللاهوت . الذي يخبر عن تاريخ الانسان الصحيح وصفاتهِ الحقيقية من غير تعويجٍ ولا مبالغة . الذي لهُ قوةٌ عجيبة في الدخول الى القلب البشري والتاثير في ضميره . الذي يخبرنا عن نفس القضايا التي

نحن في اشد الاحتياج الى معرفتها . الذي يوضح لنا الاخرة ويعلّمنا كيفية الوصول الى سعادتها ومجدها . الذي يتضمن رسومًا كاملة في الواجبات الادبية مناسبةً لطبيعتنا وحالنا سالمةً من النقص الذي يقع في غيرها من مذاهب الآداب . الذي لا ينهي عن شيءٍ هو من الحلال ولا يطلب امرًا غير موافقٍ للعقل السليم ورسوم الفضيلة . الذي يجمع جميع الواجبات في بعض مبادي عمومية لكنهُ يجريها في اوامر كثيرة جزئية تناسب حال كل انسانٍ في مهمّات الحيوة واضعًا امامهُ امثلتها من سيرة اناسٍ صالحين مذكورة فيها بصدقٍ مع نقايصهم التي لا تخلو منها سيرة افضل الناس . الذي يرسم لنا صفات يسوع المسيح واضع الديانة المسيحية بكمال الفضل الادبي الذي لا يقبل الزيادة او النقصان وجميع ذلك بمجرد ذكر كلامهِ واعمالهِ وآلامه . الذي يتضمن اخيرًا المصادر الحقيقية للتعزية في كل انواع المصايب البشرية وللراحة في حال الموت نفسهِ . ومضمون المسئلة هو هل يمكن ان يكون مثل هذا الكتاب تاليف اهل المكر وهم صيادون اميّون . أما كان يقع مثل هولاءِ في غلطٍ بشيءٍ من اللاهوت او الآداب . هل كان يمكنهم ان يحفظوا مثل هذه المناسبة الحسنة والموافقة الكاملة بين اجزآيهِ . هل كان يمكنهم ان يتصوروا سيرة كسيرة الرب يسوع الذي حين يخبرون عما صنع وقال تحت ظروفٍ مختلفة صعبة لا نراهم يقعون في ضلالٍ او سقطةٍ من الضعف البشري . هل كان

اصحاب المكر يحرّمون الكذب والخداع قطعاً كما حرّم ذلك العهد الجديد. هل كانوا يشدّدون في طلب القداسة كما نرى في الانجيل. هل كانوا يقدرون ان يجعلوا مكرهم في الكتاب موافقاً على التمام لمزاج العقل البشري واحوال الناس. هل يُحتمَل انهُ كان لهم من الحكمة ما يحذرهم من التحزُّب باحزاب امَّتهم والتعلق ببعض مذاهب زمانهم او بعض الاحكام المدنية. هل كان في طاقتهم ان يقدموا لتعزية المحزونين ما يوجد في الانجيل. اين الناس على وجه الارض الان الذين يستطيعون ان يؤلّفوا مثل هذا الكتاب

فنقول انه اذا اقنع احدٌ نفسهُ بعد فحص الكتب المقدسة من غير هوى نفسٍ ان الذين كتبوها كانوا من الماكرين الخبثاء فيمكنه ان يعتقد ان رجلاً وحشيًّا يصطنع ساعةً او ان طفلاً يكتب كتاباً كمقامات الحريري او ان الاجرام السموية هي خلقة مخلوقٍ. لكن هيهات ان يكون كتاب الله تزويرًا. انه لم يوجد لانسانٍ او لجماعةٍ من العقل والعلم ما يكفي لكتابته. ويد الله ظاهرةٌ فيهِ فهو ينير بنورٍ يُعرَف من بهآيه انهُ من الله. ولهُ من قوة التاثير في القلب ما يدلُّ على قدرة واضعهِ الفايقة وعلمهِ المحيط بكل شي. وهو ينير ويطهر ويرشد ويعزّي جميع الذين يقبلونهُ بقلوبهم. فلا ريب انهُ كلام الله وافضل انعامهِ تعالى على البشر

فيا لسمو هذا الانجيل الشريف وما اظلم تلك اليد التي تختطفهُ منا وهو اشهى التعزية واحلاها لقلوبنا . هل يريد احدٌ ان يُظلِم الباب الوحيد الذي منهُ ياتينا نور الرجآء وان ينزع من الضعفآء والمساكين العاجزين السند الوحيد الذي تستطيع انفسهم ان تستند عليهِ بالسلامة وان يسلب من الذين يموتون الواسطة الوحيدة لتعزيتهم وان ينهب من العالم اغنى كنوزه وان يفتح ابواب الفواحش ويرجع الخرافات وخبث الكفر على الارض . هل يريد ذلك احدٌ فعليه ان يجتهد في ملاشاة الانجيل وجعل الديانة هزءا والاخرة اضحوكةً . ولكن ليعلم يقينًا ان الله سيدينهُ على جميع ذلك في يوم البعث . الا انني لا اظنُّ ان مثل هذا الفكر الخبيث يداخل احدًا ممن يطالع ما قيل من الكلام السابق في هذا الكتاب . بل الارجح ان الاعتبار لخيره ان كان من اهل الدنيا يحثهُ على اعتبار الديانة المسيحية . وان كان من اهل التقوى فلا ريب ان قلبه الصالح يقول أَحَبُّ اليَّ انقطاع ضوء الشمس من انقطاع نور الانجيل

الفصل الرابع عشر

في ان الكتب المقدسة وعلى الخصوص العهد العتيق قد كان للذين كتبوها الهامٌ من الله يصونهم من الغلط في افكارهم واقوالهم

قد سعينا في ما تقدم من الكلام ان نثبت صدق الكتب المقدسة . والان ناخذ في الكلام عن الهام الذين كتبوها . نعم ان هذين الموضوعين متداخلان احدهما في الاخر وكثيرٌ من الادلة على الاول منهما يثبت الثاني ايضًا . ولكن يوجد بينهما فرقٌ يُعتبَر . فانهُ قد يكون كتابٌ صادقًا من غير ان يكون لهُ شيءٌ من الوحي اصلاً . كالاخبار الصادقة التي كتبها اناسٌ من اهل الصدق بمجرَّد استعمال قُوَى انفسهم . وقد يُبرهَن على صحة تاريخ الانجيل بواسطة المبادي المقبولة في الامور الدارجة بين الناس كما يُبرهَن على صحة تاريخٍ اخر . وبالحقيقة لا بد من ذلك في نظام البراهين قبل ان يتكوَّن برهانٌ قاطعٌ على صحة الوحي الالهي . وبناءً على ذلك قد كان لكل الذين كتبوا من الفضلاء في الادلة على الديانة المسيحية عادة ان يثبتوا اولاً الحوادث المذكورة في الانجيل باستشهاد مجرد الشهادة البشرية . وربما يصدّق البعض من

الناس ايضًا الحوادث المذكورة فيه حتى المعجزات ايضًا من دون التفات الى انهُ هل كُتِب خبر هذه الحوادث بوحيٍ من الله. فقد ذهب البعض الى ان لاشيءَ من الوحي للذين كتبوا الانجيل مع الاعتراف بانهم كانوا من ذوي الصدق ويجب قبول شهادتهم كما يجب قبول شهادة غيرهم من المورخين الصادقين. فتكون صحة الحوادث كافية للبرهان على ان الديانة المسيحية بعمومها صادرة من الله. ولكن لاينتج من ذلك ضرورةً ان المورّخ الذي يخبر عن تلك الحوادث كان لهُ الهام من الله يحفظه من السهو في الجزئيّات. فهذه قضيةٌ قائمةٌ بذاتها وهي امرٌ عظيم الشان يستحق البحث الراهن من غير تعصبٍ

وهنا محل للكلام في التمييز بين الالهام والتنوير الذي هو في كل مسيحي حقيقي اساس الايمان الحاصل من فعل الروح القدس. والفرق بينهما ان غاية الالهام غالبًا تكون اعلان حقايق جديدة او اظهار ماكان غير واضحٍ فيما قد عُلِم سابقًا. فيكون الالهام يرشد العقل على نوعٍ غير طبيعي الى كتابة بعض اشياءَ او التكلُّم بها وهو يحافظ على قواهُ او يقويها بحيث يستطيع العقل ان يوضح بالصواب مالم يكن معروفًا من قبل او ان يتصوَّر افكارًا ويستعمل كلامًا نفيسًا تعجز القُوَى الطبيعية عن الوصول اليهِ. واما التنوير من الروح القدس فلا يعلن حقايق جديدة بل انما يضع في النفس امكانًا لتفهم على طريق

روحية حقايق معلنة من قبل. وعلى هذا يُبنَى الفرق العظيم الواقع بين الحركات الروحية التي يشعر بها جميع المسيحيين الحقيقيين وبين الوسوسة التي تدّعي بشيءٍ من الالهام. فالمسيحي العاقل يستطيع ان يستشهد كتاب الله لاثبات جميع الافكار التي تلوح في عقلهِ وهو في اعلى درجةٍ من الفرح والمحبة الروحية. واما ذوو الوسوسة فيتركون الكتاب ويتكلون على حركات القلب الداخلية والمؤثّرات في المخيّلة وما يحرك اليهِ العقل بديهًا والاحلام او المناظر الموهومة وما اشبه ذلك. فلو كانت هذه التحريكات من روح الله لاشتركت مع الالهام بحقيقتهِ. ولهذا نرى اكثر ذوي الوسوسة يعتقدون انهم من اهل الالهام. ولكن مهما كان اعتقادهم قويًّا في ذلك فلسنا ملتزمين ان نصدّق دعاويهم ما لم ياتوا بالبراهين الخارجية التي يستعملها الله شهادةً لصحة ما يعلنهُ للانسان

ويوجد ايضًا فرقٌ بين الالهام والاعلان. فان الاعلان لم ياتِ الانسان دايمًا بوضع الروح القدس حقايق في العقل بتلقين داخلي. بل كان الله يخاطب الناس قديمًا في اوقاتٍ كثيرة باصواتٍ مسموعة او يعلن ارادتهُ بارسال الملكة وبوسايط اخرى خارجية. وعلى ذلك جاء الاعلان الى كثيرين لا يدّعون بالالهام. فجميع بني اسرائيل الذين وقفوا امام الله عند طور سينا قد سمعوا الوصايا العشر من فمهِ تعالى لكن ليس احدٌ يقول انهم

كانوا جميعهم ملهمين. وهكذا لما كان المسيح على الارض سمع كثيرون اكثر من مرةٍ صوتاً من السماء يقول انهُ ابن الله الحبيب. وبالحقيقة يقال عن جميع الذين سمعوا كلام المسيح ان اعلاناً اتاهم من الله. ولكن لا يقال انهم كانوا جميعهم ملهمين

وقد قسم المحققون الالهام الى ثلثة اقسام. الهام العصمة والهام التلقين والهام الترقية. اما الاول فهو ما اذا حرك الروح القدس مورّخاً ان يكتب وفي كتابتهِ يرشدهُ في اختيار الحوادث والظروف ويساعدهُ في سرد الاخبار بحيث يُحفَظ من السهو والغلط. فليس من الضرورة ان تُوحَى اليهِ الحوادث لانها قد تكون معروفةً عندهُ وراسخةً في ذهنهِ. ولكن ليس في طاقة الانسان ان يكون سالماً من الغلط في قصّ الحوادث القديمة. فان كان من الضرورة ان يكون التخبير خالياً من الغلط فلا بد من الهام الكاتب. واما الثاني فلما كان اخصُّ الاغراض من الالهام اعلان حقايق لم تُعرَف قبلاً كان الهام التلقين لازماً عند الحاجة اليه. كما لما اتى الانبياء بنبوةٍ على خراب مملكة او برسالةٍ من الله الى امّةٍ او الى شخصٍ كان من الضرورة ان الافكار يتناولها ذهن النبي من الروح القدس. واما النوع الثالث الذي هو الترقية فيكون في الذين يستطيعون بوحيٍ من ربهم ان ينطقوا او يكتبوا ما لا يصل اليهِ مجرد قواهم. وعلى ذلك قد نطقت النساء الملهمات من الله بديهاً بافصح كلام الشعر مما لا تصل

اليهِ قواهنَّ بدون مساعدة. وقد يكون هذا الكلام خاليًا من اعلان تعليم جديد ويُقتصَر فيه على اعتصام القوى البشرية عن الغلط كما اوضحنا ذلك في محلهِ. ولكن تُرقَّى قوى العقل ترقيةً عجيبة بحيث تصير الافكار اكثر اشراقًا وسموًّا ويعبَّر عنها بكلامٍ اكثر مناسبةً وبلاغةً مما لو كانت القوى على الحالة الطبيعية. وبمثل هذا الالهام كتب داود بعض الزبور وسليمان الامثال وصاحب سفر ايوب ما يوجد فيهِ من الكلام البليغ والانبياء كثيرًا مما يوجد في كتاباتهم

وعلينا هنا مسئلةٌ اخرى. وهي هل أُلهِم بكلمات الكتاب كما أُلهِم بالافكار. فمن الناس من يقول انهُ لا يلزم ان نعتقد بان الكلمات المستعملة في التعبير عن الحقايق المُوحَى بها قد أُلهِم بها من الروح القدس ويشهد لذلك اعتبار اختلاف اسلوب الكلام بين الكاتبين. فان لكل واحدٍ منهم اسلوبًا مختصًّا بهِ على حسب علمهِ ومزاج عقلهِ. ومنهم من يقول ردًّا على ذلك انهُ ما لم يُلهَم بالكلمات كما أُلهِم بالافكار لا يمكننا ان نتحقق ان الكاتب قد اظهر ارادة الروح القدس بالتمام. لان الناس بمعرض الغلط في اختيار كلماتٍ مناسبة للمعانى المقصودة كما هم كذلك في بقية الامور. وكما ان الناس يعجزون كثيرًا عن التعبير عن افكار عقولهم بكلام يطابق المقصود كذلك قد يقعون في مثل هذا العجز عند ما يعبّرون عن الافكار المنزلة عليهم من الله لو تُرِكوا لارشاد مجرد

قواهم . وفضلاً عن ذلك لا يمكننا ان نتصور اعلان حقايق للعقل من غير ان يكون معبَّرًا عنها بكلماتٍ . لانه قلَّما نستطيع ان نفتكر فكرًا بيِّنًا عن امرٍ من الامور من غير توسط كلماتٍ فكيف يستطيعون ان يكتبوا شيئًا بيِّنًا بدون ذلك

فنقول ان الارجح في هذه المناظرة ان يكون كل واحدٍ من الفريقين مصيبًا من وجهٍ كما يكون في كثيرٍ من المناظرات . او بالحري اننا نحصل على الحق باتخّاذ ارآء الفريقين والاجتهاد في موافقتها . فان المبادي المذكورة آنفًا التي تجري في الافكار تجري ايضًا في الكلمات من غير خلافٍ . فمتى كانت الحقايق المعلنة مجهولةً قبلاً عند الذين أُنزِلَت عليهم وعلى الخصوص متى لم يفهموا معنى ما أُعلِن كما يظهر كثيرًا في امر الانبياء نعتقد ضرورةً ان الكلمات كالافكار قد أُلهِم بها من الروح القدس . ولا بدَّ ان ذلك كان ايضًا في قضية الرسل وغيرهم ممن أُنزِل عليهم موهبة الالسنة التي لم تكن الاَّ الهامًا بكلماتٍ لاجل التعبير عن حقايق الانجيل

ولكن كما ان الكاتب لا يحتاج في قصّ الاخبار المعهودة الى الالهام بكل فكرٍ بل الى عصمة تصونهُ من الضلال هكذا في استعمال كلماتٍ للتعبير عما كان معروفًا عندهُ لا يحتاج الى الالهام بكل كلمةٍ بل الى ملاحظةٍ وهدايةٍ فقط . فعلى هذا المذهب يُصان كلام الذين كتبوا الكتاب من الغلط والالتباس وتبقى لوايح روح

الانشآء المختص بكل واحدٍ ظاهرةً منهم . ومثال ذلك في الاب الذي يرشد يد الولد في الكتابة بحيث يحرك الولد قلمهُ ولكن بهداية الاب وارشادهِ لكي لا يتجاوز الحدود المفروضة . وايضًا قد يُمثَّل هذا الاعتصام من حيث الافكار والكلمات بأبٍ يمسك بيد ولدهِ في طريقٍ ضيق فالولد يمشي بنفسهِ وياخذ في خطواتهِ ما يستطيع واما ابوهُ فيحفظهُ من الوقوع ويتكفل بثباتهِ في الطريق . وكذلك الحال في من كان يصونهم الروح القدس في امر الانشآء . فانهم لم تكن قوى عقولهم باطلة بل انما كانت مرشدة ومصونة عن السهو والضلال وكل واحدٍ منهم باقٍ على طريقتهِ في افكارهِ والفاظهِ . فهو يتكلم او يكتب بما عندهُ من الكلام ويستعمل اساليب الانشآء التي من دأبهِ ان يستعملها . وهكذا على هذا المذهب لم يتجرَّد المُلهَمون من قرايحهم والفاظهم المالوفة ولكن كانوا كانهم يكتبون او يتكلمون من غير الهامٍ بهذا الاعتبار

وللبعض اعتراضٌ على هذا المذهب في الهام الاعتصام بانهُ اقلُّ كمالًا مما لو قرَّر الروح القدس كل كلمة في ذهن الذي كتبها . والحق ان هذا الاعتراض لا وجه لهُ اذ كانت كيفية حصولنا على المعرفة امرًا لا طايل تحتهُ بشرط ان لا يكون ريبٌ في صحتها . فان امورًا كثيرة لا يزيدنا ايُّ وحيٍ كان شيئًا من التحقيق على صحتها . والمعرفة التي وصلت الينا باستعمال العقل ليست

باقلّ قيمةً من حيث وصولها الينا على طريقة طبيعية . بل بالحقيقة هذه القوى الطبيعية التي بها نستطيع ان نتحقق مبادىء الحق الاولى انما هي عطيّة الله كالوحي . فالمعرفة البديهية اليقينة التي عندنا ببعض الحقايق قد تُحسَب من وجهٍ كالهامٍ ملازم . فلو فرضنا ان انساناً بواسطة وحي ملازم يتحقق صحة بعض قضايا بحيث لا يشوبهُ ريبٌ فيها البتة فما الفرق والحالة هذه بين ذلك وبين الاشعار البديهيّ بمبادي بيّنة بالطبع لكل انسانٍ عاقل . واذ ذاك لا يزيدنا وحي التلقين شيئاً في معرفتنا الاشياء التي نحن متحققون صحتها طبيعيًّا . فلا نحتاج في كل ما يتعلق بمعرفتنا المستفادة من الاختبار او المشاهدة الاّ الى مساعدة تعطينا قدرةً على التعبير عما يجب ان يُدَوَّن لمنفعة الكنيسة خلوًّا من الضلال في الماهية والكيفية

ثم قد ظنّ بعض الذين لا ينكرون الهام الذين كتبوا الكتب المقدسة بالعموم انهُ من الواجب ان نسلّم بامورٍ في هذا الموضوع لا تدعو حقيقة الامر الى التسليم بها وبذلك قد اوقعوا ما يجاهدون بهِ في صعوباتٍ عظيمة . فمع انهم يصرّحون بان الالهام التام قد ارشد الذين كتبوا الكتاب المقدس في جميع الامور العظيمة الضرورية يسلمون انهم قد تُرِكوا لمجرّد قواهم العقلية في الامور الجزئية واذ ذاك قد سهوا في بعض قضايا عرضية . ويُرَدُّ عليهم بانهُ لو امكن ان يُفصَل بالتدقيق بين ما

كُتِب بالالهام وبين ما لم يُلهَم بهِ لما نتج من هذا المذهب شرٌّ او ضرر. ولكن لا توجد حكمةٌ بشرية كافية لوضع هذا الفصل فلذلك تكون نتيجة هذا المذهب دخول الشك في هذا الامر العظيم الذي تحقيقهُ من اشد الضروريات. وايضًا يبعد من العقل ان روح الله يعصم كاتبًا من الغلط في بعض ما يكتبهُ ويتركهُ في البعض الاخر. لانه حينئذٍ يكون كالشاهد الذي ان وجدناه قد غلط في بعض الاوجه تضعف ثقتنا بجميع شهاداتهِ. ولو استطاع احدٌ ان يبرهن على ان اصحاب الاناجيل قد غلطوا في الامور الجزئية لكان البرهان على انهم كتبوا شيئًا من الاشياء بالالهام ضربًا من المستحيل

وكثيرًا ياتون بكلام بولس برهانًا على ان الكاتب الذي كان على الغالب ملهمًا قد يُترَك في بعض الاحوال سالكًا طريق ارآيهِ (١) ولكن اذا سلَّمنا بالمعنى المنسوب الى الرسل في هذا الفصل لاينتج من ذلك ما نحن فيهِ من هذا المذهب. بل الناتج انما يكون ان بولس في هذه الاحوال المعيَّنة لم يكن مُلهَمًا. فنبقى في ثقةٍ كاملة بما قالهُ في جميع الاحوال الاخر على انهُ كان ملهمًا من الله. ولكن في كون ذلك هو معنى الرسول نظرٌ. لان الاقرب الى العقل ان ما قصدهُ هنا لم يكن الاَّ ان يعلّمنا ان ربنا يسوع المسيح لم يفرض شيئًا في القضية التي كان كلامهُ فيها ولكنهُ

(١) انظر قرنثية اولى ص ٧ ع ١٢ وع ٤٠

بمساعدة الروح الذي كان فيهِ اعطى حكمًا اراد ان يكون مسموعًا مطاعًا. ويشير واضحًا الى انهُ كان يتكلم بالهام بقوله واظنُّ ايضًا ان فيَّ روح الله. فان قولهُ اظنُّ لا يجب ان يأوَّل بالدلالة على الشك لان ذلك بعيدٌ عن معنى اللغة التي كتب بها بل هو عبارة عن اعتقاد ضميرهِ. ولهذا لا حاجة الى اعتقاد ان بولس قد اقرَّ بانهُ كتب شيئًا من غير مساعدة الالهام الالهي. وانه بعيدٌ جدًّا ان ذلك الذي أُلهِم في بقية الامور يُترَك الى نفسهِ في هذا الامر الوحيد الذي لا يُحسَب من الامور الاقلّ اعتبارًا

فيكون تعريف الالهام على الصحيح انهُ قدرةٌ الهية اثَّرت في عقول الذين كتبوا الكتب المقدسة بحيث عصمتهم من الغلط في المعاني والالفاظ. وهذا هو الذي يقال لهُ الالهام التام. وهو اتمُّ المطلوب لان اليقين الخالي من كل شك هو غاية ما يُطلَب في ايِّ خبرٍ كان. واذا كان لنا ذلك في الكتب المقدسة فلم يبقَ لنا شيءٌ نطلبهُ من هذا القبيل

واما كتب العهد القديم فلنا اصرح البراهين على ان كلام المسيح ورسله فيها كان دايمًا يدلُّ على الاعتقاد بانها مُلهَمٌ بها وخالية من الضلال. من ذلك قول المسيح لليهود فتشوا الكتب لانكم تظنون ان لكم فيها حيوة الابد وهي التي تشهد من اجلي. وقولهُ ايضًا لانكم ان امنتم بموسى كنتم تومنون بي لانهُ كتب من اجلي. وقال ايضًا ضللتم اذ لا تعرفون الكتب يشير صريحًا الى

ان الكتب المقدسة دستورٌ لا ضلالَ فيهِ . وفي الفصل المتضمن هذه العبارة قد ذُكِر ان يسوع اوقع الفريسين في الارتباك اذ سألهم كيف يستطيع داود بالروح ان يدعو المسيح ربَّهُ وهو ابنهُ . فيشير بقولهِ بالروح الى انهُ كان ملهمًا من الروح القدس في كتابتهِ الزبور . وبعد ان قام المسيح من الموت يشير الى ذلك باجلى بيانٍ حيث يقول هذا هو الكلام الذي كلمتكم بهِ اذ كنت معكم انهُ لا بد من ان يكمل كل شيءٍ مكتوب في ناموس موسى والانبياءِ والمزامير من اجلي . حينئذٍ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب وقال لهم انهُ هكذا مكتوبٌ وهكذا كان ينبغي ان يتألَّم المسيح ويقوم من الموتى في اليوم الثالث . وفي ما سبق من كلامهِ هذا اشار ايضًا صريحًا الى هذا المعنى بقولهِ يا غير فاهمين وثقيلي القلوب في الايمان بكل ما نطقت بهِ الانبياءُ . أما كان ينبغي ان يقبل المسيح هذه الآلام وهكذا يدخل مجدهُ . وبدا من موسى وجميع الانبياءِ يفسر لهما ما كُتِب في جميع الكتب من اجلهِ . فقال احدهما للاخر أما كانت قلوبنا ملتهبة اذ كان يتكلم معنا في الطريق ويفسر لنا الكتب . وكذلك في بستان الجسمانية قال الرب لبطرس اتظنُّ اني لا استطيع ان اصلي الى ابي فيرسل لي حالاً اكثر من اثني عشر جوقًا من الملائكة . ولكن كيف تُكمَّل الكتب لان هكذا ينبغي ان يكون . وهذه العصمة من الغلط نفسها ينسبها المسيح الى العهد القديم في مناظرتهِ مع اليهود

المذكورة في الاصحاح العاشر من انجيل يوحنا حيث يقول أليس مكتوبًا في ناموسكم اني قلت انكم الهة. فان كان قال الهة لاوليك الذين كلمة الله كانت اليهم ولا يمكن ان تُنقَض الكتب الى اخرهِ. وتوجد ايضًا ايات كثيرة يصف فيها اصحاب الاناجيل الكتب المقدسة بانها دستورٌ للحق لا شيء فيه من الضلال والغلط. من ذلك ما قيل فيها واذ صنع هذه العجايب الكثيرة امامهم لم يومنوا بهِ لتكمل كلمة اشعيا اذ قال يارب من صدق بسماعنا ولمن استعلنت ذراع الرب. وقيل ايضًا ولهذا لم يستطيعوا ان يومنوا لان اشعيا يقول ايضًا قد اعمى عيونهم الى اخرهِ. وايضًا لان هذا كان ليتمَّ المكتوب لا ينكسر منهُ عظمٌ. ولا يخفى ان المعبَّر عنه بالكتب في جميع هذه العبارات هو العهد القديم اذ لم يكن حينئذٍ العهد الجديد قد كُتِب

واما شهادة الرسل في رسايلهم للالهام في كتب العهد القديم فليست اقلَّ دلالةً على ذلك من شهادة المسيح واصحاب الاناجيل. فان بولس في رسالتهِ الثانية الى تيموثاوس يذكّرهُ بانهُ منذ صبآيهِ عرف الكتب المقدسة القادرة ان تحكمهُ للخلاص بالايمان الذي بيسوع المسيح. ثم يقول ان كل كتابٍ أوحى بهِ الروح من قِبَل الله مفيدٌ للتعليم والتوبيخ والتقويم والتاديب بالبر لكي يكون رجل الله كاملاً مستعدًّا لكل عملٍ صالحٍ. فلا ريب ان الكتب التي عرفها تيموثاوس منذ صبآيهِ كانت كتب

العهد القديم اذ لم يكن غيرها حينئذٍ قد كُتِب . ولكن حينما يتكلم بولس عن كل كتابٍ قد أُعطِي بوحيٍ من الله ربما يدخل في هذه العبارة جميع كتب العهد الجديد التي كتبت قبل حبسهِ المرة الثانية في رومية . ولعل تلك الكتب احتوت على الاناجيل الثلثة الأُوَل واعمال الرسل وساير رسايل بولس . لان الظاهر ان الرسالة الماخوذة منها هذه الاية كانت اخر كتابات بولس لانهُ يقول فيها وانا حاضرٌ الان ان انقدم وقد قرب وقت ذهابي . وان الكنيسة كانت تعدُّ كتابات بولس من الكتب المقدسة نعلم من رسالة بطرس الثانية التي ربما كُتِبَت في ذلك الوقت او قبل ذلك قليلاً . ويحق لكلامهِ في هذا الشان النظر الخصوصي لانهُ يتضمن الشهادة الوحيدة التي لنا صريحةً من رسولٍ الى اخر في شان كتاباتهِ . فيقول واحسبوا امهال ربنا خلاصًا لكم كما ايضًا اخونا الحبيب بولس قد كتب اليكم بما أُعطِي من الحكمة وذلك كما كتب ايضًا في الرسايل كلها قايلاً فيها عن هذه الامور وفيها بعض اقاويل عسرة الفهم التي اوليك الذين ليسوا علماء ولا ذوي ثبوتٍ يعوّجونها كما ساير الكتب ايضًا هلكةً لانفسهم . فيظهر من هذا الكلام ان رسايل بولس كانت حينئذٍ مشتهرة وان بطرس الرسول كان يعدُّها من الكتب المقدسة . ولهذا يُحتمَل ان بولس نفسهُ اراد ادخالها مع سايركتب العهد الجديد بقولهِ كل كتابٍ أُوحِي بهِ الى اخرهِ . واذا كان ذلك كذلك فيكون

في هذه الاية شهادةٌ على ان جميع العهد القديم وجانبًا عظيمًا من العهد الجديد قد كُتِبا بالهامٍ من الله . واذا اعتبرنا الاخبار عن توبة بولس العجيبة ورسوليتهِ من الله وكونهِ مفعمًا بموهبة اللغات والشفاء والنبوة الى غير ذلك فلا نقدر ان ننكر والحالة هذه انهُ شاهدٌ يُوثَق بشهادتهِ كل الثقة

وقد شهد لنا بطرس الرسول ايضًا على الهام انبياء العهد القديم بكلامٍ لا يحتمل التاويل . فاذ كان يتكلم عن المنظر العجيب الذي شاهدهُ على طور التجلي يزيد على ذلك ويقول وعندنا كلام الانبياء اثبت ففعلتم جميلاً اذا نصتم لهُ كانهُ لسراجٍ منيرٍ في موضعٍ مظلم الى ان يظهر النهار ويشرق الكوكب المضيء في قلوبكم . واعلموا هذا اولاً ان كل نبوةٍ في كتابٍ ليس من تأويل المؤوِّل وما جاءت قطُّ نبوةٌ من مشيَّة البشر بل من وحي الروح القدس تكلَّم اناس الله المقدسون . ومن هذا الرسول شهادةٌ اخرى في رسالتهِ الاولى حيث يتكلم صريحًا عن الهام الانبياء اذ يقول ذلك الخلاص الذي التمسهُ الانبياء وفحص عنهُ الذين تنبَّأوا بالنعمة التي تكون فيكم باحثين عن الوقت والزمان يدلُّ روح المسيح فيهم متقدمًا بالشهادة على الآلام التي في المسيح والتكرمات التي تكون بعد ذلك . وقد أُوحِيَ اليهم انهم ليسوا خدَّامًا لانفسهم بل لكم بهذه الاشياء التي اخبركم الان اوليك الذين بشروكم بها بروح القدس الذي أُرسِل من السماء

وانهُ لظاهرٌ ان جميع الرسل كلما ذكروا كتب العهد القديم ساق كلامهم الى انهم كانوا يعتقدون بانها قد أُوحِيَ بها من الله. ففي الرسالة الى العبرانيين توجد شهادات مثل ذلك كثيرة وصريحة نذكر البعض منها. فنقول انهُ قد قيل في اولها بانواعٍ كثيرة واشباهٍ شتَّى كلَّم الله اباءنا على السن الانبياء من قديم الدهر واخيرًا في هذه الايام كلمنا بابنهِ. وكل ما قالهُ الانبياء يُشار اليه في هذه الرسالة كانهُ قول الله نفسهِ. من ذلك ما ذكر في الاصحاح الماخوذ منهُ الكلام السابق وهو قولهُ وعند ادخالهِ البكر الى العالم قال فلتسجد لهُ جميع مليكة الله. انما قال في المليكة هكذا انهُ صنع مليكتهُ ارواحًا واما في الابن فقال كرسيك يا الله الى ابد الابدين. فجميع هذه العبارات التي ذُكِرَ فيها ان الله قال كذا وكذا انما هي ماخوذةٌ من المزامير. ومن ثمَّ يلزم ان ما قيل في المزامير قد قيل بالهامٍ من الله. وهكذا في الاصحاح الثاني من هذه الرسالة قد نُقِل جانبٌ من المزمور الثامن متَّجهًا الى المسيح. وهكذا ايضًا ذُكِرت فيهِ اقوالٌ من العهد القديم كانها اقوال الرب يسوع. من ذلك العدد الثاني عشر المقول فيه اني ابشر باسمك اخوتي والعدد الثالث عشر الذي يقول فيه وقال ايضًا اني اكون عليهِ متوكلاً. وفي الاصحاح الثالث من هذه الرسالة أُورِد شيءٌ من المزامير منسوبًا الى الروح القدس وهو قولهُ فلهذا كما قال الروح القدس اليوم ان انتم سمعتم صوتهُ

فلا تقسُّوا قلوبكم الى اخرهِ . وفي الاصحاح الرابع قيل مثل ذلك فانهُ قال في بعض المواضع في اليوم السابع هكذا ان الله استراح في اليوم السابع من جميع اعمالهِ الى اخرهِ . وفي الاصحاح الخامس يقول لكن لهُ قال انت ابني وانا اليوم ولدتك كما يقول ايضاً في موضعٍ اخر انت الحبر الى الابد كدرجة ملكيزاداق . ولم يَقُل ان الله كان المتكلم فى ما كُتِب في المزامير فقط بل ايضاً في ما كتبهُ الانبياء . فمن الاصحاح الثامن أُورِد كلام طويل من ارميا النبي قيل فيهِ انهُ كلمة الله وهو قولهُ هوذا تاتي الايام يقول الرب الى اخرهِ . ولنكتفِ بشهادةٍ اخرى من هذه الرسالة وهي قولهُ في الاصحاح العاشر ويشهد لنا ايضاً الروح القدس بعد ما قال هذا هو العهد الذي اصنع معهم بعد تلك الايام يقول الرب الى اخرهِ

وبالاجمال نقول انهُ كما ان الذين كتبوا العهد القديم قالوا انهم كانوا يتكلمون بما انزل الله عليهم كذلك قد استُشهِدت جميع كتب العهد القديم في العهد الجديد واعتُبِرَت كانها من الله ومكتوبةٌ بالهامهِ . ويعسر وجود آيةٍ واحدةٍ ذُكِرت فيها هذه الكتب المقدسة ولم يكن فيها اشارةٌ الى الالهام بها على سبيل التصريح او التلميح

الفصل الخامس عشر

في الالهام بكتب العهد الجديد

اذا كان العهد القديم قد كُتِب بالهام كما اتضح فيما سبق من الكلام واذا كان العهد الجديد يتضمن اعلانًا من الله يحتاج اليهِ الانسان كما احتاج الى ما أُعلِن في العهد القديم بل هو بالحقيقة تتميمهُ فهل يمكننا ان نصدّق ان الله اذا الهم الانبياء في كتابة الاول منهما يترك الثاني الى ضعف مؤلّفين لا الهام لهم

فلا ريب انهُ يلزم لتتميم المقصود من الاعلان ان الالهام يرشد الذين يكتبونهُ . لان المقصود من الاعلان انما هو تأدية معرفة صحيحة بالحق لارشاد الناس في الايمان والاعمال . ولكن اذا كان الكتاب الذي يتضمن مثل هذا الاعلان من تاليف البشر وهم في حال القصور والغلط فلا يمكن ان نتحقق في امرٍ من الامور المكتوبة ان عندنا الحق المعلَن خاليًا من الضلال . وقد يكون الذين كتبوهُ من اهل الصدق والامانة ولا نأتمن انهم لم يكونوا مثل ساير الناس محلّ الغلط والضلال وتحت طايلة الغرض والتعصب . واذ ذاك يكون من الواضح ان المقصود من الاعلان يبطل على الاكثر ما لم يُلهَم الناس الذين يكتبون

الكتاب الذي يتضمنهُ

وايضاً اذا تاملنا بالانتباه فحوى كتب العهد الجديد لانستطيع ان نثق بها ثقةً كاملةً ما لم تكن لنا بيناتٌ على ان الالهام قد ارشد الذين كتبوها . نعم ان العقل عند النظر الاول في تدوين كلام يسمعه انسانٌ او حوادث يراها يتبادر الى ان الامر انما يحتاج الى صدق المورخ واستقامتهِ فقط . فقد يُسَلَّم بذلك على نوعٍ اذا كتب الشاهد حالاً ما سمعهُ او رآهُ . ولكن من يصدّق انهُ بعد مضي عشر سنين او خمس عشرة او خمسين استطاع اصحاب الاناجيل ان يكتبوا بالتحقيق التام خُطَباً طويلةً لمعلمهم وان يذكروا بالصحة جميع ظروف معجزاته التي اخبروا بها . نعم قد يقال انهم يستطيعون ان يخبروا بجوهر القضايا التي عاينوها . ولكن ذلك لايشفي غليلاً بل كان مثل هذا التاريخ يفقد جزءًا من الاحترام الذي يجب ان يكون لهُ لكي يتسلط على ضماير الناس ويكون اساساً لثقتهم الكاملة . واما من جهة التعاليم السامية التي يعلّم بها الرسل في رسايلهم فاذا سلمنا بانهم كانوا فيها كغيرهم في محلّ الغلط فلابد ان نسقط دايماً في الريب خايفين انهم لم يفهموا ما سمعوهُ او نسوهُ او انهم لتاثير الميل والتعصب عوّجوا الحقايق التي كتبوها وهم لايعلمون

ولكننا لم نُترَك لنستفيد من مجرد مقتضى الحال ان الذين كتبوا العهد الجديد كانوا ملهمين من الروح القدس . بل لنا

براهين كثيرة صريحة على ان الرب قد وعد بالارشاد المعصوم من الغلط تلاميذهُ الذين اختارهم شهوداً لهُ امام العالم وسلَّمهم اذاعة ديانتهِ بين جميع الشعوب وفي جميع الاعصار. من ذلك قولهُ واطلب الى الاب فيعطيكم معزِّيًا ليثبت معكم الى الابد روح الحق الذي لا يطيق العالم ان يقبلهُ لانهُ لا يراهُ ولا يعرفهُ. واما انتم فتعرفونهُ لانهُ حالٌّ فيكم وسيكون فيكم. وان الروح القدس الموعود بهِ ههنا كان ارساله لكي يرشد الرسل في تأدية شهادتهم يظهر مما ورد في الفصل الخامس عشر من انجيل يوحنا حيث يقول فاما اذا جاء الفارقليط الذي ارسلهُ انا اليكم من الاب روح الحق الذي من الاب ينبثق فهو يشهد لاجلي. واما الوعد بالالهام التام فموجودٌ على اجلى بيانٍ في الفصل السادس عشر حيث يقول واذا جاء روح الحق فهو يعلّمكم جميع الحق لانهُ ليس ينطق من عندهِ بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سياتي وهو يمجدني لانهُ ياخذ مما لي ويخبركم. جميع ما هو للاب فهو لي فمن اجل هذا قلت انهُ مما لي ياخذ ويخبركم. وايضًا وعد المسيح تلاميذهُ بالهام التلقين عند ما يُدعَون الى الجواب امام الملوك والروساء وامرهم ان لا يهتمُّوا سابقًا بما يقولون لانهم يُعطَون ما يجب ان يقولوهُ في وقت الحاجة. من ذلك قولهُ لانكم لستم انتم المتكلمين بل الروح القدس هو الذي يتكلم فيكم. فاذا كان الرسل قد أُعطُوا الالهام التام لكي يستطيعوا ان يدفعوا عن انفسهم امام المحاكم المدنية

فلا يُظَنَّ انهم تُرِكوا بدونهِ عند ما كتبوا كلام المسيح واعمالهُ مقصودًا بكتابهم ان يكون دليلاً للكنيسة الى اخر الزمان. واذا كان الرسل قد اتاهم الالهام مرةً ما فلا شك ان يكون ذلك حينما أُمِروا بختم تدوين شهادة الله. ولا يوافق العقل ان نعتقد بان كل كتابٍ من كتب العهد القديم أُعطِي بوحيٍ من الله وان كل كتب العهد الجديد كُتِبت بدون هذه المساعدة. وعدم موافقة ذلك للعقل يظهر باجلى بيانٍ اذا نظرنا الى ان نور العهد الجديد اشرق من القديم باضعافٍ كثيرة. ان الذي سبق المسيحَ وبشَّر بمجيئهِ كان اعظم الانبياء الذين تقدموهُ ولكن الاصغر في ملكوت السموات هو اعظم منهُ. فلذلك اذا كان جميع الانبياء قد تكلموا كما الهمهم الروح القدس فلا يُصدَّق ان الرسل الذين كانوا شهود المسيح المنتخبين واعظم روساء ملكوتهِ تُرِكوا خالين من هذه الهداية العاصمة من الغلط وهم مشتغلون باعظم ما تعيَّن لهم من الواجبات المهمَّة. وعلى ذلك يدَّعي الرسل بالالهام ويتكلمون بسلطانٍ يُحسَب من الاستكبار لو لم يكونوا تحت هداية مرشدٍ لا يغلط. فلا يكتبون مجرَّد ارآيهم الشخصية ويثبتونها بالبرهان ولكن يكتبون كاناسٍ يعرفون حق ما يكتبونهُ ويحكمون في مسايل لا يعرفها بالتحقيق غير الذين يتدبرون بالهامٍ من الله

وفضلاً عن ذلك ان بعض العهد الجديد من باب النبوة ككثيرٍ من العهد القديم. واذا كانت صحيحةً فيستحيل ان يكون

قد كُتِب بدون الالهام. فالرويا التي رآها يوحنا اما ان تكون خرافةً باطلة واما ان تكون قد كُتِبت بالهامٍ. وقد التزم بعض الذين ينكرون الوحي بالاقرار ان عليها سمة القدرة الالهية لما فيها من عظمة الافكار والطبقة العليا في الكلام. ولو كان لنا فرصةٌ لكي نقابل بالتاريخ الصحيح ما يوجد في هذا الكتاب الفريد من النبوة لحصلت لنا بينةٌ على الهام كاتبهِ لا يسهل دفعها. وقد وجد فيها كثيرون من ذوي الدراية والتحقيق اقوى البراهين على الالهام الالهي. ومثل ذلك يقال في جميع نبوات العهد القديم والعهد الجديد على انهُ ان كان فيها شيءٌ من الصحة فلا بد من كونها بالهام الله. اذ من الحق الواضح انه لا يستطيع احدٌ ان يتنبأ بالحوادث المزمعة الوقوع الا من كان ملهمًا من روح الله. وبالحقيقة يجب ان نعتقد ان موسى وامثالهُ كانوا ملهمين عند ما اخبروا ان الله كلمهم واعلن لهم الاوامر والسنن ما لم ننكر صدقهم. ولكن كلامنا الان مبني على افتراض كون هذه الكتب صحيحة وقد كتبها اناسٌ من اهل الحق والامانة

وكثيرًا يُجعَل اسلوب كلام الانجيليين برهانًا على الهامهم. لا لانهم كتبوا بفصاحةٍ معجزة بل لانهم كتبوا كاناسٍ مجرَّدين عن العواطف البشرية. فانهم يكتبون ببساطةٍ غير مصنَّعة وباعتبارٍ للحق خالٍ عن كل ميلٍ وهوى نفسٍ على نوعٍ لا نظير له في مولَّفات البشر. وكيف استطاع اناسٌ اميّون ان ينشئوا كتبًا مثل هذه من

دون الهامٍ من الباري تعالى . فلو اختير الف رجلٍ من العقلاء غير معتادين على الانشاء ليكتبوا تاريخًا بسيطًا في اغرب ما اطَّلعوا عليهِ من الوقايع لما وُجِد في واحدٍ من مولَّفاتهم شيءٌ يشبه اسلوب كلام الاناجيل . وقد شرع اناسٌ كانوا اكثر علمًا من الرسل في ان يكتبوا اناجيل من غير الهامٍ ونسبوها الى بعض الرسل . ولكن احسن البينات على وجود الالهام في كتابة الاناجيل الحقيقية يُستفاد من مقابلتها مع هذه الكتب الغير القانونية المنسوبة الى الرسل زورًا

ولكن لاحاجة الى اعادة ما قد ذُكِر في باب البينات الداخلية . بل انما نقول بالاجمال ان جميع البراهين المورَدة في ذلك الباب على صحة الاعلان الالهي تبرهن على حقيقة الالهام ايضًا باجلى بيان . ولهذا يُراجَع ما قيل في الفصل المذكور عوضًا عن تكرار الكلام مرةً ثانية

والمعجزات ايضًا تفيد اقطع البراهين على الهام كتابٍ اذا تحققنا ان الذي كتبه كان لهُ قوةٌ على اجتراحها . لان اخصَّ الاغراض من اظهار المعجزات انما كان البرهان على ان الذي كان يتكلم كان مُرسَلًا من الله الى الناس في امرٍ من الامور . كما قال نيقوديموس بالحق اننا نعلم انك جيت معلمًا من الله لان لايستطيع انسانٌ ان يعمل المعجزات التي انت تعمل ما لم يكن الله معهُ . واذا كانت المعجزات كافيةً للبرهان على صحة اعلانٍ شفاهيٍّ

أفلا تكون مقنعةً كذلك في اعلانٍ مكتوب . واذا وُجد فرقٌ فانما يكون من جهة الاخير منهما لان الاحتياج الى كون الاعلان المكتوب الذي يُقصَد بهِ تعليم اهل كل زمانٍ مثبتًا بالبينات الصريحة اشدُّ ضرورةً من الاحتياج الى ذلك في الاعلان الشفاهي الذي لا يسمعهُ الا قليلٌ من الناس ويفقد حالما يُنطَق بهِ

ولا يخفى ان جميع ما قلنا في شان الالهام انما قيل بناءً على التسليم بصحة ما ذُكِر في العهد الجديد وبان الكتب المقدسة تتضمن اعلانًا من الله . والكلام الان ليس مع الكافرين بل مع الذين يقرُّون بان الديانة المسيحية عمومًا جاءت من الله ولكن يرتابون في ان الذين كتبوا كتب العهد القديم والعهد الجديد قد كتبوها بالهامٍ تام او ينكرون ذلك على الاطلاق . وبما ان هولاءِ يسلّمون بان الرسل والانجيليين كانوا من اهل الصدق والاستقامة فمن الواجب ان يصدّقوا شهادتهم . فاذا ادَّعوا بالوحي لا يستطيع المذكورون ان ينكروهُ عليهم لانهم بذلك ينفون صدقهم ويبطلون اقطع الادلَّة على صحة الديانة المسيحية . ولماذا أُعطِي اصحاب الكتب المقدسة قوة عمل المعجزات الا لكي يوثق بشهادتهم احسن الثقة . فحينما يقولون ان الروح القدس تكلم فيهم وان الذي سلموهُ للناس لم يكن كلام البشر بل كلامًا منزلاً عليهم بالوحي ألا تثبّت قولهم على عمل المعجزات ما كتبوهُ كما تثبّت

ما قالوهُ

واذ قد بيّنّا في ما سبق من الكلام ان الرسل قدّموا شهاداتٍ كافية على الهام العهد القديم فلنورد الان بعض عبارات تبرهن على انهم ادّعوا بالالهام لانفسهم. فانهم يسمّون دايمًا ما تكلموا به كلمة الله. وبولس يصرّح بانهُ لم يقبل ما كرز بهِ من انسانٍ بل من وحي يسوع المسيح وان الذي كتبهُ انما كان وصايا الرب وان ما علّم بهِ هو واخوتهُ قد اوحى بهِ اليهم الله بروحهِ. ولذلك قال ان الذي يحتقر ما علّم بهِ لايحتقر الناس بل الله. وبطرس يحسب الوصايا المسلّمة من الرسل مع كلام الانبياء ويعدُّ رسايل بولس مع الكتب المقدسة كما ذكرنا سابقًا. ويوحنا يقول نحن من عند الله فالذي يعرف الله يسمعنا ومن لم يكن من الله فلا يسمعنا وبذلك نعرف روح الحق وروح الضلال

ولا يبقى علينا الان لاجل اتمام البينة على الهام العهد الجديد والعهد القديم الاَّ البرهان على ان هذه الاسفار كانت مقبولةً عند الكنايس المسيحية بالاتفاق على صحة الالهام بها. ولكن مع انهُ يوجد اصرح البينات على ذلك لابد للكلام فيهِ من تفصيلٍ واسهاب وذلك لايناسب هذا المختصر. فبما اننا قد وضعنا لهذا الموضوع محلاً في غير هذا الكتاب لاحاجة الى ذكرهِ هنا. الاَّ اننا نقول بالاجمال ان في الاجيال الاولى لم ينكر احدٌ من المسيحيين الاَّ بعض الارانقة الهام الكتاب المقدس بل تمسك

الجميع بذلك كحقيقةٍ جوهرية في ديانتهم . فلم يبقَ الاَّ للذين يريدون ان يدعوا انفسهم من اهل العقل والبصيرة في هذه الايام الاخيرة ان يعترفوا بصحة القضايا المذكورة في الكتاب المقدس وهم ينكرون الهام الذين كتبوهُ . ولكن لا يستطيع احدٌ ان يذهب الى ذلك وهو لا يعتقد بالشيء ونقيضهِ . فاذا اقرُّوا بمعجزات الكتاب ونبواتهِ وبان الديانة المسيحية من الله كان الهام الذين كتبوا هذه الكتب نتيجةً لازمةً من اقرارهم وانكار ذلك اعظم ما يناقض بهِ الانسان نفسهُ . وبالعكس اذا أُنكِر الالهام فحالاً يُترَك الاقرار بصحة المعجزات والنبوات

واما الاعتراضات التي يُعتَرض بها على الهام الكتب المقدسة التام فلا نهاية لها كالواقع في امر كيفية كون العالم المنظور من حيث هو خليقة الله . ولا ريب في انهُ توجد مشابهة كلية في توجيه التعلُّل بين الكافرين بوجود الله والكافرين بالوحي . ومرجع براهينهم جميعها الى الجهل البشري . فانهم لا يستطيعون ان يتصوروا خليقةً تُخلَق من كائنٍ غير محدود في قدرتهِ وحكمتهِ ولا وحيًا فايق الطبيعة من ذات هذا الكائن لا يكونان محلاً لاعتراضاتٍ عظيمة مثل اعتراضاتهم بل اعظم مما يستطيعون ان يعترضوا بهِ على اعمالهِ الموجودة وكتابهِ

واما من جهة الاعتراضات الخصوصية الناتجة مما ظاهرهُ يوهم التناقض ومن الحوادث الفايقة الطبيعة ومن بعض تعاليم

عويصة توجد في الكتاب المقدس فيجب على القاري ان يراجع المطوّلات في هذا الموضوع . ولا يسعنا ان نقول هنا الاَّ بالاجمال ان الاعتراضات الاعتيادية على الهام الكتب المقدسة تناقض صحة الحوادث والقضايا المذكورة فيها بقدر مناقضتها للالهام بها . فلهذا لا احتياج الى نظرٍ فيها وردٍّ عليها في هذا الباب

فملخّص جميع البينات على كمال الالهام في كتب العهد القديم والعهد الجديد هو اولاً جميع البينات الداخلية على الديانة المسيحية سواءٌ كانت من جهة عظم قيمة التعاليم المتضمنة في هذه الكتب وبساطة وسمو اسلوب كلامها . او من كمال صفات يسوع المسيح وسيرته الطاهرة الحسنة . او من الاقرار الدايم بعناية الباري تعالى مع روح التقوى الطاهر والعبادة الخالصة الموجودة في كل صحيفةٍ من صحايفهِ . او من قدرة الكتب المقدسة على الدخول الى القلب واصلاحهِ . او من مناسبتها لمزاج العقل البشري وللمعاملات والتعلقات الكاينة بين الناس . فان جميع ذلك يشهد بان هذا الكتاب قد كتبه اناس بارشاد الروح القدس وهم معتصمون به من السهو والضلال

ثانيًا ان كل نبوةٍ تمّت فهي بيّنةٌ قاطعة مستقلّة بذاتها على الهام ذات السفر الذي يتضمنها من الكتب المقدسة . وكذلك جميع الشرايع التي خرجت من فمهِ تعالى يجب ان تُعَدَّ اوامر ملهمًا بها مالم يقع الريب في صحة الخبر من اصلهِ

ثالثًا انهُ كانت لاكثر الذين كتبوا اسفار الكتاب المقدس قدرةٌ على عمل المعجزات . فذلك برهانٌ على ان الله قد تكلم بواسطتهم عند من يعتقد بصحة وقوعها . واذا كان الانبياء والرسل قد أُلهِموا بالكلام الذي تكلموا بهِ مع الناس شفاهًا فمن باب اولى ان يكونوا ملهمين في تدوين الكتابات التي كان الغرض منها ارشاد ايمان المومنين واعمالهم الى اخر الزمان

رابعًا ان الذين كتبوا الكتاب المقدس غالبًا يدَّعون بالالهام . فيتكلمون بسلطانٍ باسم الرب ويسمُّون ما تكلموا بهِ كلام الله .

خامسًا ان الرب يسوع قد وعد تلاميذهُ بالالهام الكامل . كما انهم ايضًا قد ادَّعوا بانهم كانوا تحت الهام الروح فيما كتبوهُ

واخيرًا فيما كان بعض الرسل احياءً قد وضعت جميع الكنايس الاولى كتاباتهم بين الكتب المقدسة وقبلتها على انها ملهم بها من الله وكلام الله المعصوم من الغلط

فبناءً على جميع ذلك لا نستطيع الا ان نحكم بان جميع كتب العهد القديم والعهد الجديد قد كُتِبت بالهامٍ من الله . وانها تتضمن قانونًا معصومًا من الغلط لارشاد ايمان الكنيسة واعمالها ما دام العالم موجودًا .

انتهى

طبع في بيروت سنة ١٨٥١ سنة مسيحية

Alexander's

Evidences.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040277445

893.7Aℓ2
P5

BOUND

SEP 26 1958